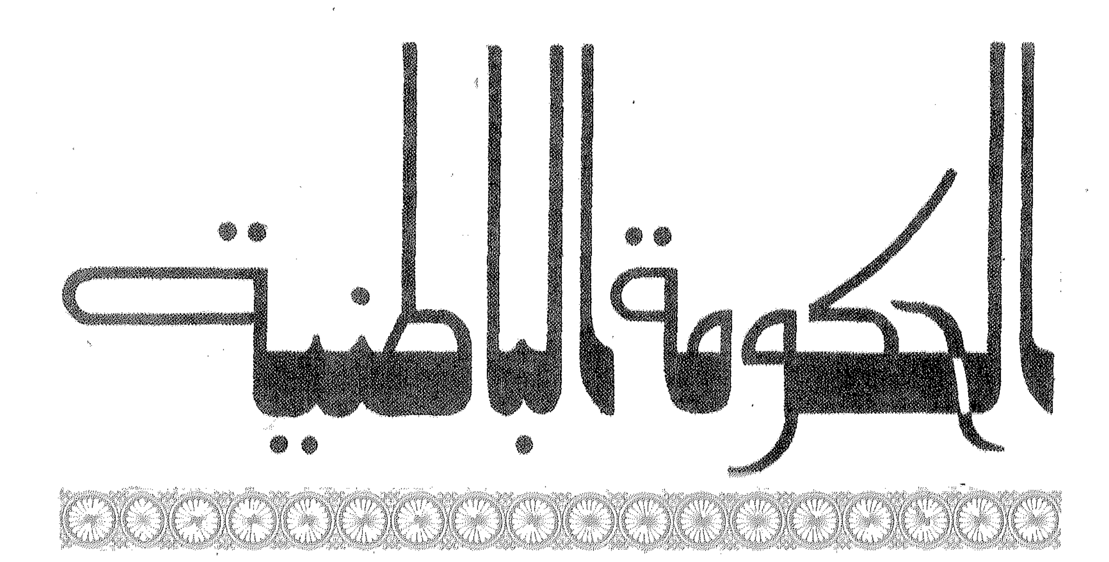
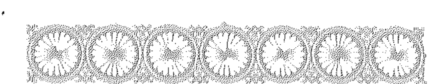
دكتور
حسن محمد الشرقاوى









الحكومة الباطنية

الطبعة الأولى

1412هـ - 1992م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص ب ١١٣ ٦٣١١ تلكس LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

دكتور
حسن محمد الشرقاوى



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهـــداء

إلى الخـائفين ليثبتـوا ، والمتشككين ليؤمنـوا ، واليائسـين ليتحرروا . . . والتـائبين ليطمئنوا . . .

إلى المؤمنين ليزدادوا إيمـاناً ، والصـابرين ليشتـدوا عزمـاً ، والمخلصين لـيروا ثمرة إخلاصهم ، والمجاهدين لينعموا ، والعارفين ليشهدوا . . .

إلى كـل هؤلاء أهدي كتـابي هذا . . . عسى أن يتقبلني تقبـلاً حسنـاً ، ونعم بـالله وكيلاً .

المؤلف

د. حسن الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة إعزاز وتقدير

يسعدني ويثلج قلبي أن يقدم للقراء الأعزاء باكورة إنتاجي ، العالم الجليل ، وأستاذي الكبير الدكتور / محمد علي أبو ريان ـ رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية ـ بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ـ والذي كان له النصيب الأوفى في بلورة أفكاري ، وشحذ عزيمتي ، وشد أزري ، بفضل ما أسبغه علي من تشجيع ، وما أولاني به من رعاية واهتمام ، مما حفزني إلى ركوب الصعب ، وعدم التسليم للعوائق مهما عظمت ، حتى أصبح المحال ممكناً ، والصعب يسيراً ، فلم يثنني عن عزمي ما أبداه بعض الأساتذة الأجلاء من صعوبة إخراج هذا البحث ، نظراً لندرة المراجع في هذا الموضوع ، كما أنه لا يعتمد على وقائع ملموسة فحسب ، بل يتطلب ذوقاً خاصاً ؛ واستعداداً معيناً ، ينبغي توافره في الباحثين الذين يخوضون غماره .

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها ، أن أستاذي الدكتور / محمد علي أبو ريان قد غمرني بفيض علمه ، وصدق نصحه ، وحفزني إلى مداومة البحث والدرس ، فسافرت شرقاً وغرباً ، وشاركت أهل الحق مواجيدهم ، وأقبلت بهمة على حضراتهم ، وحاولت أن أتذوق ما تذوقوه ، وأعاين ما عاينوه ، فلم أسلم من سكرة الوجد . حتى أنه وصل بي الحال فلم أميز بين أن أكون دراساً ومتذوقاً ، ملاحظاً وملاحظاً ، وهنا أرشدني أستاذي إلى الطريق الذي يجب علي أن أسير فيه ، وعلمني كيف أفرق بين نظري وذوقي ، وبين عقلي وقلبي .

وحقاً ، لقد أتعبته كثيراً ، حتى جاء هذا العمل كثمرة ، للمعاناة والمكابدة والمجاهدة .

فله مني أجمل الثناء ، إعترافاً بفضله ، وإقراراً مني بحسن صنيعه ، فجزاه كل خير ، ونفعنا الله جميعاً بعلمه الفياض ، وفكره المتجدد الخصيب .

والله ولي التوفيق

مقدمة الطبعة الثالثة

حظي هذا المؤلف باقبال شديد من القراء الأعزاء في مصر بخاصة والعالم العربي الإسلامي بعامة، وقد درس الطرق الصوفية بمختلف مذاهبها ذلك لأنه ينقسم إلى قسمين قسم نظري مأخوذ عن الكتاب والسنة وآراء علماء الأمة الإسلامية، والقسم الآخر دراسة مسيحية حقلية استمر فيها الباحث أكثر من ست سنوات يتدارس طريقة طريقة من الطرق الصوفية المنتشرة في العالم العربي كالجيلانية والرفاعية والشاذلية والأحمدية باعتبار أصحابها الرواد الأوائل للتصوف الإسلامي. وقد انبثقت منها طرق فرعية أخذ أصحابها عن الأصل وأزاد من أزاد من الأوراد والسلوكيات والمواجد والتصوف الذي نقصده هو التصوف الإسلامي السني الذي لم نجد فيه اتهامات المستشرقين من أنه امتداد للمستسيزم المسيحي الذي ينادي بوحدة الوجود أو إيصالها الناسوت باللاهوت حتى يصبح الرب والعبد شيء واحد فالتصوف الإسلامي السني يفرق بين الرب والعبد باعتبار أن العبد فقير والله هو الغني وأن العبد محتاج والله هو الجواد وأن العبد ضعيف والله هو القوي.

فليس التصوف الإسلامي السني ينادي بوحدة الوجود إنما بوحدة المشهود وهذا مؤيد في قول عز من قائل:

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾.

كما لاحظ المؤلف أن مشايخ الصوفية يركزون على الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن والنظر والذوق.

فليس هؤلاء من الباطنية كما أنهم ليسوا من أصحاب الظاهر فحسب إنما يمزجون بين ظاهرهم وباطنهم في فكرهم وسلوكهم وتطبيقاتهم وهذا ما يخالف بين صوفية الإسلام والفرق الأخرى الخارجة عن الإسلام ولقد ذكرهم الامام أبو حامد الغزالي المتوفي 505 هـ وأحصاهم في كتابه « فضائح الباطنية وفضائل المستنصرية » وبين تهافت دعاويهم وأوضح أنها فرق ضالة خارجة عن الإسلام .

ولا شك أن التصوف السني يأخذ من الكتاب والسنة طريقه ويهتم بآراء الصوفية الذين أخذوا مادتهم عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين سلوكياتهم التي لم تخرج قيد أنملة عن تعاليم الإسلام وربما يتبادر إلى ذهن المتأمل النظري والذي يهتم بالظاهر فحسب انهم خرجوا بشكل أو آخر عن التعاليم الإسلامية ذلك لأنه لم يستخدم تأويله الجانب العملي أو السلوكي أو الذوقي الذي يربط بين الظاهر والباطن وهذا ما جعل كثير من الظاهرين ينكرون التصوف السني رغم أنه لم يخرج عن الإسلام .

فالتصوف الإسلامي السني يهتم بتربية النفس وتأديبها ومحاسبتها ومراقبتها ومعرفتها وله باع عريض في علم النفس وفهم النفس الأمر الذي دعانا إلى تأليف كتاب في علم النفس الإسلامي مأخوذ عن الكتاب والسنة ويعتبر أول كتاب في هذا التخصص وقد تابعه كتب كثيرة في هذا الموضوع كذلك حاولنا أن نكتب كتاباً في التربية الإسلامية حيث أن التصوف الإسلامي يهتم اهتماماً بالغاً بآداب الصوفية متخذاً أحكامه من القرآن والسنة .

نرجو من القارىء الكريم أن يفيده هذا المؤلف فكراً وسلوكاً وتطبيقاً والله ولي التوفيق

د. حسن الشرقاوي
1991/5/20

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــديم :

السيد الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان

رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

هذا السفر الذي أخرجه الدكتور حسن الشرقاوي في مجال الدراسـات الروحيـة في الإسلام إنما يعد باكورة الأعمال التركيبية الجـادة التي خطط لهـا المؤلف ، ولا يزال يعكف على إخراج النفيس منها على مدار حياته العلمية . والكتاب يتألف من سبعة أبواب يعالج المؤلف في معظمها التنظيم الباطني للحياة الروحية في الإسلام وقد برع المؤلف في استنباط القواعد والأصول ، وتحقيق المراسم التي نشأت معها وفي ظلها وبسبب منها دولـة الباطن جاهدة في أن تقيم الفواصل بينها وبين دعاوي الباطنية وشباتهم .

على أن أوصاف هذه الحكومـة الفريـدة في نوعهـا قد خـاض فيها كتـاب سابقـون ومعاصرون كالسخاوي والشعراني والمناوي من السابقين ، ثم الدكتور توفيق الطويل من المحدثين ، إلا أن كتاباتهم كان يعوزها أمران ، أولهما المنهج الـدقيق ، وثانيهـما الدراسـة الحقلية ، وكلا الأمرين قد تلافاهمـا المؤلف ، وقدم لنـا دراسة طيبـة عن حكومـة الباطن مقارناً إياها بحكومة الظاهر ، مستعرضاً دستور الحكومـة الباطنيـة ومصادر التشريـع فيها مشيراً إلى كيفية صدور الأوامر والأحكام في ظل رئيسها القطب الغوث ، معرجـاً إلى بيان تقاليد مجالس الحكومة الباطنية ، والمواضعات التي استقرت عليها محاكم الأولياء . .

وقد استند المؤلف في كل ما أشار إليه من صفـات وخصائص لهـذه الدولـة أو لهذه الحكومة إلى دراساته الميدانية التي كانت (طنطا) مركزاً لها ، وتبلورت آراء مدرسة السيد البدوي في الجامعة السطوحية .

وقد استند في آرائه إلى النماذج التي أشـار إليها ، إلى منـطقة ـ سبـيرباي ـ ومنـطقة دسوق ومنطقة دمنهور .

والحق أن المؤلف قد عالج موضوع الحكومة الباطنية معالجة علمية موضوعية شاملة ، فلم يتعرض للبنية والوظيفة فحسب ، ولكنه أشار إلى الخصائص والسمات الأساسية والفرعية التي تلزم هذه الحكومة لزوماً ذاتياً ، وأيضاً السمات التي تلزمها كنتيجة للتطور الزماني ، والبيئة المكانية ، فعدد في الباب الرابع أهم هذه الخصائص ثم لم يفته أن يوجه أنظار القارىء إلى الثمرة المرجوة من وراء هذه الدراسة ، فعرض في الباب السابع لما ينتظر الصوفي من ثمرات العمل والطريق .

والكتاب مذيل ببعض المراجع التي تختلف في قيمتها من حيث الإصالة والفرعية ، والتي تنم عن جهد المؤلف العريض في تتبع المعلومات التي ساقها المؤلفون في الأصول قديمها ومحدثها .

والله نسأل أن يوفق المؤلف ، ومن سار على دربه إلى إثراء مكتبة التصوف خاصة والمكتبة الإسلامية عامة ، وأن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والسداد ، وأن يهبنا نحن أسرة الدراسات الفلسفية في الإسلام ، مزيداً من العزم والقوة على متابعة المسيرة وإخراج مؤلفات أخرى عن مضامين الحياة الروحية في الإسلام خاصة ، وعن التراث الإسلامي عامة .

والله الموفق سواء السبيل

د. محمد علي أبو ريان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب جمع بين الدراسة المسحية العلمية للطرائق الصوفية في منطقة الوجه البحري بجمهورية مصر وبين البحث النظري للمركز لما كتبه أئمة الصوفية عن الفكر والسلوك الصوفي في الأزمنة والعصور المختلفة .

وقد حظى الكتاب بعناية واهتمام فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق ـ طيب الله مثواه ـ فعمل على شراء النسخ المطروحة في المكتبات المختلفة ووزعها على محبي التصوف ، وأشاد بهذا العمل في كل مجلس حتى رفعني إلى مقام لا أستحقه أبداً . . .

وقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب نتيجة لما أولاني به فضيلة الإمام الراحل من عناية واهتمام ، وعندما نفذ الكتاب من الأسواق أمر فضيلته بإعادة طبعه على نفقة الأزهر الشريف بيد أن المنية عاجلته قبل أن يتم هذا العمل .

ومهما ذكرت من كلمات في ذكرى هذا الإمام العظيم فإن قلبي قبل لساني يعجز عن اعطائه حقه من الشكر والتقدير والعرفان بالجميل ، فلقد شجعني إيما يكون التشجيع ، ووقف بجانبي عند الشدة ، وقدم لي كتابي الثاني « نحو علم نفس إسلامي » ولم يتوقف لحظة عن معاونتي ما وجد لذلك سبيلا . . .

وكتاب الحكومة الباطنية الذي نقدم طبعته الثانية ، قد أثار بعض الشكوك حول عنوانه عند صدوره أول الأمر ، وانحصرت الشكوك التي أبداها البعض حول مفهوم الحكومة الباطنية وهل هي مقابل الحكومة الظاهرية أم المقصود الباطنية وهي الفرق الضالة الخارجة عن الإسلام .

والحق لا علاقة بين الحكومة الباطنية والفرق الضالة مثل القرامطة البابكية المزدكية والثعلبية والمحمرة والسبعية والحشاشين وغير ذلك من الفرق الضالة المضللة التي تزعم أن للقرآن ظاهر وباطن وأن ظاهره هو القشر وباطنه هو اللب ، أما الغبي فإنه يهتم بالقشر دون اللب وأما الذكي فهو الذي يهتم بلب القرآن ويرمي القشر بعيداً . . .

وهذه الفرق الضالة المضللة قد خرجت عن الإسلام من حيث أنها لم تتقيد بالكتاب ولا بالسنة ، واستمرأت الكذب والرياء والضلال والتضليل فأمرت اتباعها برفع التكاليف والفرائض المقررة واتخذت لأنفسها مذاهب زائفة وأفكاراً عفنة ، وعقائد منحرفة ، تجعل مما هو غير معقول مقبولا ، وكل ما هو غير مقبول معقولاً ، فكانت بمثابة الصدق الخائن والعدو في ثياب الصديق ، وسلكت سلوكاً انحرافياً بعد عن حقيقة الإسلام ، وأمسكت بمعاول الهدم لتخرب كل القيم الطيبة ، وعمدت إلى اغواء بغض ضعاف النفوس بما تثيره فيهم من نعرات وشهوات ، فجذبتهم إلى صفوفها ، وأغوتهم بما تقدمه إليهم من اباحات لترضي أصحاب الأهواء ، إلى أن وصل الأمر بهم إلى رفض كل فضيلة وموافقة كل رذيلة . . .

أما الحكومة الباطنية التي نقدمها للقراء فهي حكومة الأولياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ليس فيها خارج ولا ضال ولا مرائي ، إنما هؤلاء هم الثلة الطاهرة المطهرة من أهل الله الذي صدق باطنهم وظاهرهم فأخلصوا في عبادة الله وعملوا بما أمر تعالى وانتهوا عما نهى عنه ، فعمرت قلوبهم بالورع والتقوى ، وفتحت لهم أبواب الرحمة ، وانغلق عنهم باب الذلة ، وكشف الله لهم طريق النور فلم يقبعوا كأهل الضلالة في الظلمة . . .

هم الصادقون المخلصون حقاً الذين يرون أن لا شريعة بلا حقيقة ، ولا حقيقة بلا شريعة وان من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، وان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق . . ولا يعول على كلام ولا يهتم بكرامة من يزعم انه يطير في الهواء أو يمشي على الماء أو يأتي بفاكهة الصيف في الشتاء مادام لا يتقيد بشريعة الله ولا يؤد حقوقه تعالى من الفرائض والتكاليف الشرعية . . .

انهم الصفوة التي حافظت وتحافظ على حقوق الله ، وتعمل جاهدة على تطبيق شريعته وسنة نبيه محمد ﷺ ، مهما لاقت في سبيل ذلك من مكابدة وشدة ومحن ومعاناة . . .

وهؤلاء لا يبحثون عن مصلحة دنيوية ولا منافع وقتية ، ولا يسعون إلى كراسي

الحكم ليعتلونها أو إلى الشهـرة ليصعدوا في سلمهـا ، انما هم أهـل الله لا هـدف لهم إلا مرضاته تعالى ، ولا غاية لديهم إلا التقرب إليهِ بالنوافل والعبادات ، وهم يدركون تمامـاً ان الحياة الدنيـا لعب ولهو وزينـة وتفاخـر بين النـاس فحسب ، وأن الحياة الأخـرى هي الحياة الأفضل والأبقى إذ أنها الخالدة الدائمة . . .

فالعلاقة بين الحكومة الظاهرة والباطنة في نظر الأولياء تقوم على أسس من الشريعة السمحاء ، فلا تسلط على الحكومة الظاهرة ولا انكار لوجودها ، وانما هنـاك اتصال وثيق بينهما قائم على الأخذ بالقرآن الكريم والسنة المحمدية . . .

فلا تناقض بين الحكومتين ، ولكل مجاله في الفكر والسلوك والتطبيق ، فـالحكومـة الـظاهرة تحقق استتبـاب النظام والأمن والمحـافظة عـلى الآداب للناس ، والبـاطنة تحقق الأمن النفسي لكل من انخرط في طريقها وترسم له طريق السعادة الأخروية . . .

لا تعارض إذن بين الحكومتين ولا تنازع في الاختصاصات ، فالحكـومتان تسـيران جنباً إلى جنب في سبيل منافع الناس وتحقيق العدل والخـير في الدنيـا والآخرة تحت ظـلال الشريعة السمحاء وسنة محمد ﷺ . . .

أما الطاعنون والذين في قلوبهم مرض يودون أن يدمروا العلاقة بين حكومة الظاهر وحكومة الباطن فيسعون في الأرض خراباً ويفسدون كل معنى طيب ويشيعون الفرقة بين الناس بهـدف أن تنتشر الفوضى ويعم الفساد . . .

لكن الله لهؤلاء بالمرصاد ، فانه تعالى ينصر من ينصره ويدافع عن الصالحين ويدفع عنهم الظلم والظالمين وبالله التوفيق .

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

ليس هناك أبدع من أن يكون للإنسان عقيدة إلٰهيـة يتمسك بهـا ، ويدافـع عنها ، ويجعلها نبراساً يضيء له سبل الحياة الدنيا في مـظاهرهـا المختلفة ، وصـورها المتنـاقضة ، وأشكالها المتنافرة . ذلك لأنه بدون هذه العقيدة الإيمانية ، فإنه وإن بدا لـلإنسان اكتـمال عناصر النجاح المـادي والأدبي ، فإنـه يشعر شعـوراً أكيداً بـأنه مـا زال عبداً لهـواجسه ، أسيراً لعاداته ، سجيناً في بحر ملذاته وآلامه ، تتقاذفه ريح عاتية وتطيح الأمـواج بسفينة حياته ، وهو لا محال غارق وإن طالت كبوته .

لذلك تظهر أهميـة العقيدة لـلإنسان ، لأنها تعـطى له كيـاناً ووجـوداً ، ولحياتـه غايـة وأملاً ، ولفكره منطقاً وعلماً ، إذا ما امتلأت نفسـه بها ، فـإنها تصبح طـريقاً وسلوكـاً ، نـوراًوهداية ، خلقاً وعملاً ، فإذا سار الإنسان على هديهـا ، تفتحت له السبـل ، وقرب من منابع النورانية ، واستظل بالفتوح الإشراقية ، فتفيض نفسه حينئذ بـالحب والأمان ، وتخلد إلى الراحة والاستقرار ، وتشتاق إلى المودة والصفاء ، وتلبس ثوب العزة والـرحمة ، فتكون نفساً راضية ، التوكل وردها ، والصبر رداؤها ، والإخلاص مبدؤهـا ، والطاعـة بستانهـا ، والنية الحسنـة ظاهـرها وبـاطنها ، والمعـرفة طـريقها ، والبقـاء في الله سبيلهـا وغايتها .

فإذا ما تحقق للنفس ذلك بفيض رحماني ، أو منة ربانيـة أو نعمة إلٰهيـة ، تصبح في محبـة الحبيب ، وتستظل بنـوره السرمدي ، وتتحقق بـالشفافيـة في رحابـه القدسي حيث تكون قد خلصت من شوائب اللذات ، ومن مفاسد العـادات ، واستراحت من الخـواطر الشيطانية ، ومن الشهوات الدنيوية ، فهي نفس خالصة لعزته ، مبتهجـة بنور طلعتـه ،

عاملة لرضا جلال عظمته ، عابدة متعبدة في نور وحدته ، فيقترب الوريد من الوريد ، وينهال الفيض من الجنات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفي هذا المقام العلوي تكون النفس قد وصلت إلى الكمال الأخلاقي ، أو الولاية التامة ، فتصبح العقيدة إيماناً وسلوكاً ، شريعة وحقيقة ، ظاهراً وباطناً ، إسلاماً واستسلاماً ، ذكراً وكشفاً ، فكراً وعملاً ، نوراً ومعرفة ، وهنا يكون للحياة معنى ، وللوجود هدف وغاية ، ويعرف الإنسان مكانه من الوجود ، فيصعد دائماً درجات ، وكلما ازداد صعوداً ازداد اكتمالاً وأشرقت نفسه بالسعادة الحقيقية ، والهناء السرمدي .

وعالمنا اليوم بما يزعم أنه توصل إليه من عجيب الاختراعات ، وغريب الاكتشافات ، وما يسره للإنسان من بدائع الصناعات ، وما ابتكره من الأدوات التي تسهل للإنسان حياته ، وتقرب له البعيد من الأشياء والأمكنة ، أقول أنه رغم ذلك كله يعيش الإنسان شقياً تعيساً ، تحتويه المتاعب النفسية ، ويظله كابوس الصراعات المادية ، فيجعله أقل احتراماً لنفسه ووجوده ، أدنى للعبودية منه إلى الحرية ، لا يشعر بلذة النجاح والابتكار ، ولا بهناء ولا استقرار بل على العكس يشعر بأنه مسمار تدوسه الآلة الصماء ، وعجلة يمر عليها قطار مجنون ، يطحن عصارة الأفكار ، ويلوك بين أضراسه لحم الإنسان وشحمه ، كمارد جبار يزاحم أهل القرية المطمئنة رزقها وأمنها ، علمها وعيشها ، ويفرض عليها أبداً التسليم والطاعة لجبروته وسطوته .

ولكن هل يستمر خوف الإنسان ؟ . . حقاً إن خوف الإنسان يدفعه إلى التسليم والطاعة ، بل العمل على تجميل الواقع وتفضيله ، لا عن حب ورضا ، بل عن اضطرار وإجبار يفرضه هذا المارد الجبار الذي يسمى التقدم المادي أو الصناعة المستحدثة .

إلا أنه على الإنسان ألا ينخدع بهذه الحضارة الزائفة ، ويستسلم لقوتها وقدرتها على البطش والاحتكار ، بل عليه أن يقوي نفسه حيالها ، ويعمل جاهداً أن يمتلكها بدلاً من أن تمتلكه ، بمعنى أن تكون في يده ، وليس في قلبه ، فلا هو برافض التيسير والتقدم المادي ، ولا هو قابل أن تفرض عليه الآلة فرضاً كأن ليس لها من بديل ، ذلك أن الإنسان لكي يكون إنساناً حقاً ، عليه أن يرضي بعض متطلباته في حدود ما شرع الله من مباحات ، وما أوجبه من حلال ، وما نهى عنه من حرام ، كما عليه أن يختبر ما يقدم إليه من مغريات التقدم والتيسير ، ذلك أن كثيراً من المكتشفات الحديثة إنما تعمل على شقاء الإنسان وتعاسته ، وان قدمت له في أطباق شهية تحمل الاثم والسم والدماء ، فالامتحان

لهذه المنجزات ضروري وهام ، فإن كانت لإسعاده أخذ بها ، واستفاد منها ، وإن كـانت لتعاسته ، رفضها وابتعد عنها . . .

كما أن على الإنسـان أن يرضي قلبـه وربه ، روحـه وكيانـه ، بشريته وإنسـانيته ، فيغذي سلوكه بما هو أخلاقي ومثالي ، ويقبل على هـدف وجوده ، ويتعـرف على أسبـاب تواجده في الدنيا ، فإنه بما فطر عليه من الخير ، يعلم أنـه وجد لـرسالـة يؤديها ، وأعـمال عظيمة عليه أن يمضي إليها ، وسلوك أخـلاقي عليه ألا ينحـرف عنه ، فـإذا نسي ذلك أو تناسى ، طبعت إنسانيته بطابع ماديته ، واتخذ من طريق المادة سبيـلاً لتحقيق معنى واحد ألا وهو إرضاء شهـواته ولـذاته ، ومـظاهره الكـاذبة ، وبـذلك ينسى عن عمـد أو تعمد الجانب الروحي فيه ، بل يحـاول دائماً أن يـدنسه بـالمحرمـات والمعاصي والمحـظورات ، فتنطفىء في نفسه ومضات النورانية ، ويخفت بريقها ويخمد نورها ، ويستبـدل بها الـرياء والنفاق والاغترار ، وهذه هي الانتكاسة الكبرى والسقوط المقيم .

فأي الطرق ينتهجها الإنسان والحـال هذه ؟ . . . وكيف يتم لـه الاختيار ويستقيم عنده الخيار ؟ . . . هنـاك كثير من النـاس يعتقدون أن هـذا الذي نهتم بـه قول لا أهميـة له ، مردود عليه ، وأن تطبيقه محال ، وأن فرضه عـلى الإنسان يؤخـره ويعود بـه إلى حياة البداوة والغابة .

والـواقع أن هؤلاء القـوم فارغـو القلوب ، ضعيفو الإيمـان ، لأنهم لا يتفكرون ، فـالإنسان الـذي لا يحاسب نفسـه على زلاتهـا ، والـذي لا يـطيق صبـراً في اختبـار ، أو امتحـان ، والذي لا يقـدر على الصمـود أمام العـوائق والعقبات غـير الإنسـان الصـادق الأمـين ، الصابـر ، العفيف ، فهذا معـدن ثمين ، وجـوهر فـريد لا يمكن التشكـك في قدرته الخلاقة ، وإرادته الجبارة ، مهما لاقى من العوائق والصعاب .

وهؤلاء النفـر القليل ، قـد صدقـوا ما عـاهدوا الله عليـه ، وتعرفـوا على المثـالب والعيـوب ، وسلكوا طـريق الحق والمعرفـة ، واستناروا بنـور الإستقامـة ، والـطهـارة ، فـاستـظلوا بكؤوس العـزة والنعم ، ومضـوا مجـاهـدين في الله ، فـذاقـوا ، فلما ذاقـوا ، سكـروا ، ولما سكـروا شـاهـدوا ، فلما شـاهـدوا ارتـوا ، فلما ارتـوا عملوا ، فلما عملوا ارتقوا ، فلما ارتقوا وصلوا ، فلما وصلوا فنوا ، ثم بقوا في الله ، ولله ، وبالله ،ومع الله .

لقـد أفاض الله عليهم من منتـه ورحمتـه ونعمتـه ، ورضـوانـه ، فـرضي الله عنهم

ورضوا عنه ، هم أحباؤه وأولياؤه . هؤلاء أصحاب الحق العارفون بالله ، رجال الليل الصادقون ، الساجدون ، بالعشي والأسحار ، الذي يتفكرون في الله قياماً وقعوداً ، في يقظتهم ومنامهم ، قوم استضاءت نفوسهم ، فأصبح عليهم عملاً ، وظاهرهم باطنهم ، قوم صدق ، تعارفوا فتحابوا في الله ، وتعاونوا فعملوا بما علموا ، فأعطاهم الله علم ما لم يعلموا ، تواصوا بالخير والمرحمة ، وتدافعوا إلى الإيثار والإحسان ، مجلسهم مجلس أنس وبهجة ، وعلمهم من الله ولله ، قلوبهم نورانية مشرقة بصفاء الله ، لا يحدهم مكان ولا زمان ، سيماهم على وجوههم ، أصحاب الكمال والجلال ، لا يخافون غير الله فيهم قدوة للعالمين ، وباب انصاف للمظلومين والمحرومين ، ومنار صدق للمريدين والسالكين .

لهؤلاء الصالحين ، دولة وحكومة ، ونظام ورئاسة ، وطاعة وإخلاص ، واحكام ، واتصالات ، ومجالس واجتماعات ، وأوامر وتعليمات ، وسلطات واختصاصات ، ليس كما تراها في الحكومات المدنية ، أو في القوانين الوضعية ، أو في الدساتير والقواعد القانونية ، وإنما دستورهم لم يضعه من البشر أحد ، وقانونهم لم يصفه أحد من الناس ، وإنما وضعه رب الناس ، وخالق الموجودات ، الحق تعالى ، إله العباد .

والأولياء يتصل بعضهم ببعض عن طريق المبشرات ، وهي رؤى يراها المؤمن فتتحقق له ، ويتقابلون بطريق التوجه رغم بعد الزمان والمكان ، ويلهمون إلهاماً بالمغيبات ، وحلول المشكلات ، ودولتهم تقوم على مصادر ثلاثة : الرؤيا ، والطاعة ، والاخلاص الذي سبيله النية الصادقة والقلب النوراني .

ويتأكد للدولة الباطنية وجودها ، بما يفيض الله على أعضائها من كشوفات ، وانتصارات ، وفتوحات ، وفيوضات ، وما يمن عليهم من نعم ، ومنن وعطايا ومشاهدات ، وتجليات ، وما يتولاهم الله برعايته من رحمات ، فيفتح عليهم ، فيصبحون من عباده المخلصين ، إذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا ، لهم فراسات وتوسمات ، ورؤى وكرامات ، وحكم ومعارف ، وعلوم إشراقية يجل عنها الوصف ويقف أمامها العقل حائراً .

وأعضاء الحكومة الباطنية من الأولياء لا يخلعون عنهم رداء الشريعة الغراء ، يأمر بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ لا يخلدون للمظاهر الخادعة ، ولا يهتمون بأموال الدنيا الكاذبة ، حقائقهم توافق ظواهرهم ، يعيشون في الدنيا كرحلة عابرة يمسكونها بأيديهم ، وتنفر منها قلوبهم ، يروون بالشهادة الأرض بالدماء الذكية ، ويغمرونها بالطهارة والأنوار

البهية ، يكرههم كل فاسق عنيد ، ومكابر بليد ، يتقلبون في أحوالهم من درجات إلى درجات ، ومن حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، حتى يحظون بالصديقية العظمى ، والولاية التامة .

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقراء الأعزاء هو ثمرة متواضعة ، لمعايشة أهل الطريق في الله ، أعانني الله على اخراجه بعد توقف وأحجام ، فلقد أيقنت أن المسلمين قد تأكد لهم أن سر قوتهم وعظمتهم يكمن في قربهم من الله واعتمادهم على نصرته ومؤازرته تعالى ، فمن كان يصدق قبل حرب العاشر من رمضان أن جنودنا قد عبروا مناطق الهزيمة إلى نصر محقق على أعداء الله ، رغم قلة العدة والعتاد ، فإن هناك قوة عليا ألهمت المقاتلين ، وأفزعت الأعداء ، فانطلقوا في رحلة يسيرة يذيقون المفتونين ناراً ودماراً ، وكانوا يتوجون انتصاراتهم باسمه تعالى « الله أكبر . . الله أكبر » ، فسحقوا ما كان مستحيلاً ووصلوا إلى ما كان محالاً .

هؤلاء الأولياء أصحاب الحكومة الباطنية ظاهرهم وباطنهم « الله أكبر » فهم لا شك كانوا مع جنودنا البواسل يحاربون أعداء الله ويهتفون باسمه الأعظم ، ويدعون الله أن يشد من أزرهم ويتولاهم بنصر مؤزر من عنده ، ورحمة من رحماته ، مما كان له الأثر العظيم في النصر المبين .

لذلك فإننا لا نشك في أن هذا الكتاب بطبعته المتواضعة ، يساعد النفوس المتعطشة لمعرفة أثر الإيمان في التغلب على ما يعتقد أن أصحاب العقل أو النظرة العلمية أنه من المستحيلات ، فهناك شيء فوق المادة والعلم الوضعي يسمى الروح ، وهناك عالم غير هذا العالم الكثيف يسمى العالم اللطيف ، بل هناك أيضاً حكومة باطنية ، يتصل أعضاؤها بعضهم ببعض بشكل ما ، لهم روابط وتوجهات ورؤى والهامات . ولهم رئيس يسمى القطب « الغوث » ويساعده الأوتاد ، والأبدال ، والنجباء ، والرجباء ، والرقباء ، والنقباء ، والرفقاء ، وأهل الغيب ، وأهل النجدة ، وغيرهم من الأولياء ، وجميعاً يحملون لواء هذه الحكومة كل في اختصاصه كما أن لهم دستوراً ودليل عمل وأوامر وأحكاماً ، ومجالس يجتمعون إليها ، وعلوماً يسألون فيها .

واننا نأمل أن يجد القارىء في هذا الكتاب شيئاً جديداً ، يحمل له الأمل والأمان في مستقبل حياته الدنيوية والأخروية ، ويعاونه على الرد على الكثير من التساؤلات التي يختلج بها فؤاده ؛ بل ويساعده على تخطي العقبات والمعوقات ، ويملأ قلبه حباً ويقيناً ، ويؤيد

طـريقـه إلى الله بمـا يشهـده من أعـمال الصـالحـين ، ومـا يـراه من كـرامـات أهـل الحق الصالحين . . .

ومما لا شك فيه أن هذا هو أعظم مطامحنا ، وأغلى أهدافنا ، بل وغاية حياتنا وأمل آمـالنا ، فـالطريق شـاق وعر ، والنفس أمـارة ، والخوف قـائم مقيم ، والقلق قد عمـر النفوس فباتت تعاني الأزمات تلو الأزمات ، والصراع في الوجود عنيد ، بين طريق الخـير وطريق الشر ، والاختيار أبداً شاق ، والرضا عما نحن فيه بعيـد بعيد ، فـما بالنـا لا نقبل على تذوق تجربة الصادقين ، والباب مفتوح أمامنا مادام القلب بالإيمـان عامـراً ، وبالنيـة الصادقة في التوبة راغباً ، وفي الطاعة والإخلاص صادقاً عاملاً .

إذا كـان الأمر كـذلك فلنقـرأ هذه الصفحـات عسى الله أن يفتـح قلوبنـا بنـوره ، ويشدنا لمعرفة جلاله وجماله وكماله ، ويفيض علينا من نعمه ومننه ، انه سميع مجيب .

د . حسن الشرقاوي

الباب الأول

التنظيم الباطني للولاية الروحية

مقدمــة :

يتقبل الناس السلطة في المجتمعات الحديثة على أساس الاعتراف بأنها ضرورية إذا ما أريد لشؤون الحياة اليومية أن تؤدى على وجه مرض ، ولا شك أن الزعامة تظهر بدرجة ما ، وفي صورة ما ـ حيثما يتجمع عدد كبير من الناس . . . لكن القادة الطبيعيين ـ وهذا اصطلاح شائع لهم ـ موجودون في كل التجمعات بشكل وبآخر . . .

وإذا تعمقنا في نظام الطرق الصوفية ، فإننا نجد أنها جميعاً تخضع لقادة طبيعيين ، كما تخضع كل طريقة إلى واحد منهم ، وتعتبر أقوالهم وأفعالهم القدوة الطيبة التي تؤثر على أفراد الطريق ، دون اعتراض ، بل ودون تدخل العقل في الأمر ، إذ أن حاجة المريدين إلى الغذاء الروحي الذي يشغف النفوس والذي أساسه الحقيقي هو الإلهام أمر ضروري يدعمه المنطق ويؤيده الواقع الملموس .

لذلك فإن الصوفية يربطون بين الظاهر والباطن ربطاً منطقياً على هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وذلك بتطبيق الطريقة على الشريعة ، والشريعة والطريقة على الحقيقة ، ولهم في ذلك موازين خاصة يحكمون بها على الأفعال ، فما يظهر أحياناً لعلماء الظاهر من الفقهاء على أنها كبيرة من الكبائر تعتبر أحياناً عند الصوفية من الحسنات التي يثاب عليها الإنسان ، رغم أنه ليس هناك تناقضاً بين الشريعة والحقيقة ، أو الظاهر والباطن ، وإنما اختلاف الأحكام ناتج عن الفرق بين النظر والذوق .

فمثلاً إن كانت الصلاة فرضاً واجباً على كل مسلم أداؤه ، فإن تاركها يعد عند

بعض المذاهب كافراً أو خارجاً عن الدين وبالعكس فإن الـذي يؤدي التكاليف الـظاهرة ينظر إليه كرجل صالح رغم أنه يمكن أن يكون مرائياً .

أما الصوفية فإنهم ينظرون إلى العلاقة بين العبد وربه عـلى أنها علاقـة باطنيـة وأن الفعل ليس حسب الظاهر فحسب ، وإنما لكـل امرىء مـا نوى ، فـالصوفيـة بهذا المعنى يؤسسون حياتهم الأخلاقية على أساس النية ، والطاعة ، والاخلاص لله جميعاً .

ولقد أجمع المفكرون والفلاسفة الذين عنـوا بالمسـألة الأخـلاقية[1] عـلى أن الإرادة الخيرة هي معيار الحياة الأخلاقية الإنسانيـة ، إلا أنه في تصـورنا أن الإرادة الخـيرة ليست كافية ليكون الإنسان في عمله أخـلاقياً ، فـإنه مـع وجود خـير إرادة في الدنيـا ، وأصدق مجهود لتحري الصواب ، وأقوى عزيمة ، قـد يخطىء الإنسـان خطأ فـاحشاً في نـظره إلى الخير والشر والعدل والظلم جميعاً .

إذ أن الإرادة الخيرة عند الفـلاسفة تهـدف من الأفراد في المقـام الأول ضبط النفس وتهذيبها ومسـاعدة الآخـرين ، بمعنى أن يكون الإنسـان اجتماعيـاً ، ويحقق المثل الأعـلى باتباع هذا الطريق أو ذاك .

وإنه لمن الجلي الواضح أن المفكرين والفلاسفة حاولوا على مر العصور حل المسألـة الأخلاقية ، وقد تمخضت الجهود التي بـذلت لحلها عن قـواعد معينـة ، وتراكيب محـددة كان مصيرها جميعاً الفشل الذريع ، وذلك لربط هؤلاء الفلاسفة ربطاً تعسفيـاً بين الحيـاة الروحية والمادية[2] .

أمـا الصوفيـة فقد نجحـوا نجاحـاً باهـراً في مجال السلوك الأخـلاقي ، فالشريعـة والحقيقـة عندهم متحـدتان ، لا تغـاير ولا تنـاقض بينهـا ، بمعنى أن الشريعـة إجمـال ، والحقيقة تفصيل ، والشريعـة استدلال ، والحقيقـة كشف ، والشريعة غيب ، والحقيقـة شهادة .

فـإذا ظهر بعض الخـلاف بين علماء الشريعـة وأهل الحقيقـة ، فهو ليس اختـلافـاً جوهرياً وإنما نتاج عن التقلب المستمر للصوفي أثناء رحلة المجاهدة ، وانتقاله من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقـام ، فيكون ظـاهره غـير ممكن إخضاعـه إلى قواعـد العامـة من

---

(1) اندريه كرسون ـ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ ترجمة د عبـد الحليم محمود ص 18 ومـا بعدهـا ط 2 . دار الكتب الحديثة 1946 .

(2) المرجع السابق .

المسلمين إلى أن يستقر في مقام دائم وهنا تظهر التجليات .

وفي ذلك يقول الإمام أبو الحسن الكاتب : الفلاسفة نزهوا الله عن طريق العقـول فأخطأوا ، والصوفية نزهوه عن طريق العلم فأصابوا[1] .

(1) عبد السلام الحلواني ـ الرسالة الوفية في الرد على منكري الصوفية ، ص 21 مطبعة نشر الفضائل

الفصل الأول

نشوء الحكومة الباطنية

إن الذين يعرفون شيئاً عن علم العمران يدركون أن الدولة مهما بلغت من وضعيتها لا يمكن أن تتكون أو توجد بالطرق الصناعية ؛ فليست هي التي تصنع في مصنع ثم تنتقل وتثبت في موضع آخر ، بل إن الدولة تنشأ في المجتمع نشوءاً طبيعياً لأسباب أخلاقية ، ونفسية ، وعمرانية ، وتاريخية ، وتتفاعل هذه الأسباب فيما بينها فتكون مواداً أولية لازمة ، ومحركات إجتماعية واجبة ، ومقتضيات فطرية ضرورية ، تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة إنبعاثاً[1] .

والدولة الباطنية إنما هي في تصورنا ، نتيجة حتمية لنمو واكتمال مذهب الصوفية ، فلقد إجتمع للصوفية من الأسباب والأصول في صدر الإسلام ، ثم بعد صدر الإسلام ، ما كان خليقاً أن يكّون طرازاً خاصاً من الحكومة تلائم تكونها ورقيها .

وإننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذه الدولة تمثل طرازاً فريداً في نوعه في هذا العالم حديثه وقديمه ، وإن من أهم خصائصها أنها تجمع بين الظاهر والباطن ، أي بين الإسلام والإستسلام لله ، فالإسلام يعبر عن حظ الهياكل ، وعدم المنازعة والإستسلام هو حظ القلوب ، فالإسلام بهذا المعنى هو الصورة ، والإستسلام روح تلك الصورة ، وكما يقول ابن عطاء الله السكندري[2] المسلم من أسلم نفسه إلى الله فكان ظاهراً بإمتثال أمره ، باطناً بالإستسلام إلى قهره .

---

(1) الأستاذ أبو الأعلى المورودي ـ منهاج الانقلاب الإسلامي ص 6 ـ دار الفكر

(2) الشيخ ابن عطاء الله السكندري ـ التنوير في إسقاط التدبير الطبعة الأولى 1931 ص 3 وما بعدها .

ومعنى ذلك أن هناك ترابطاً متيناً بين الظاهر والباطن في هذه الدولة دون العمل على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية تطبيقاً قشرياً ـ كما هو موجود ـ في القوانين المدنية مثلاً ، إذ أنه إذا لم يتم الربط بينها ، وبين الباطن لأدى ذلك إلى تناقض وإنهيار في النظام الأخلاقي .

ويرى أحد المفكرين(3) ضرورة إستخدام تعبير « جواني » في مقابل « البراني » ويقصد بهما الباطن والظاهر ، ويؤيد القول الشائع بأن التغيير الجواني أصعب من التغيير البراني ، ويرى أن الحياة الروحية لا تنافي الحياة الدنيوية ، وأن الأخلاق الصحيحة في الأيديولوجية الإسلامية ، معناها تدبير الحياة المادية لمصلحة البشر وفقاً للأحكام والمبادىء السماوية ، وبعبارة أخرى إن الأخلاقية العاملة تقتضي الوعي التام لما ينبغي أن يكون بين الجواني والبراني من صلة وطيدة(4) .

ويتفق هـ . ر . جيب في كتابه(5) Mohammedanism في أن الصوفية تمتد نظمها الباطنية من عمل منسق من التنظيمات التي تنتشر من حد إلى حد آخر لتشمل العالم الإسلامي .

وانه ليجدر القول أن دولة الباطن عند الصوفية ، إنما تحكمها قوانين لا تخالف الشرع حقيقة ، ولكن ظاهرها لا يتمشى عادة مع تفهم معنى الخير والشر عند العامة من الناس .

ولتوضيح هذه النقطة الهامة التي أوردها ابن عطاء الله(6) في كتابه نذكر قصة الصوفي الذي كلما إبتلى بشيء قال « خيراً » فاتفق ليلة أن جاء ذئب فأكل ديكاً له ، فقيل له ، فقال « خيراً » ، ثم ضرب في تلك الليلة كلبه ، فمات فقيل له ، فقال : « خيراً » ثم نهق حماره فمات ، فقال : « خيراً » ، فضاق أهله بكلامه هذا ذرعاً ، ولم يُقبل تبريره لهذا البلاء ، إلا أنه حدث في هذه الليلة أن نزل بهم عصابة ، أغاروا عليهم ، فقتلوا كل من بالبلدة ، ولم يسلم منهم غير الصوفي وأهل بيته » .

ويوضح ابن عطاء الله المغزى الخفي من هذه القصة بقوله : لقد استدل العرب

---

(3) دكتور عثمان أمين ـ الجوانية ـ دار القلم 1964 ـ ص 121 ، ص 122 .

(4) نفس المرجع السابق .

(5) M. A. R. Gibb. Mohammedanism. Second edition, oxford press page 100. 103.

(6) الشيخ ابن عطاء السكندري ـ التنوير في إسقاط التدبير ـ ص 13 .

النازلون على الناس بصياح الديك ، ونباح الكلب ، ونهيق الحمار ، وما شاكل ذلك . . . فكان في هلاك هذه الحيوانات سبباً في نجاته وأهل بيته » .

فالصوفي على الحقيقة يرى الأحداث بعين قلبه لا بعين بصره ، ففراسته دليله ، وبصيرته طريقه ، وهو ينسجم كما يقرر الدكتور عثمان أمين[7] انسجاماً جوانياً ويستخدم ألفاظاً جوانية ، غير الألفاظ البرانية التي تستخدم في المجتمع المصطنع أو ما يسمى بالمجتمع المدني .

والمعروف أن المجتمع المدني ، أو الظاهري ، تحكمه قواعد ، وقوانين ، وعادات ، مألوفة وتقاليد متعارف عليها ، وعرف متواتر ، وأن أي إخلال بهذه القوانين والعادات والتقاليد تعد خرقاً لنظام الدولة، ومن ثم السكوت عليها ، إذ أنها تسبب - في رأيهم - أضراراً تهدد الأفراد والمجتمع ككل ، ولذلك لا يعترف بأي قوانين غير قوانين الدولة ، أو قواعد أخرى غير ما تعارفوا عليه ، وما توارثه الأبناء عن الآباء . . . رغم أنه كثيراً ما تحدث بعض الخوارق والأحداث غير المألوفة التي لا يمكن أن تفهم في ظل قوانين وقواعد المجتمع ، إلا أن أفراد المجتمع لا يركزون عليها ، بل لا يهتمون بها باعتبارها نادرة الحدوث ، أو أن هناك أسباباً لها غير معروفة لهم ، أما الخاصة من أهل الصوفية فإنهم يعرفون أسبابها ويخضعونها لقواعدهم الأخلاقية ، وآدابهم الصوفية ، وذلك استناداً إلى القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، إذ أنهم يقولون « اتقوا الله ويعلمكم الله » ، فالتقوى باب لعلوم وهبية لدنية ، والاسترسال مع الله ، مفتاح لنعم الله ، ومنن الله ، وعطايا الله ، وتجلي الله ، كما أنهم يعتمدون على التوكل ، وإسقاط التدبير مع الله ، ولذلك فهم يبصرون بنور الله ، ويتبعون كلام الله ، ويسيرون بتوفيق الله ، فظاهرهم كباطنهم ، وباطنهم كظاهرهم ، فيتكشف لهم ما ينغلق على غيرهم ، ويبشرون بالحقائق في يقظتهم ومنامهم ، ويختصون ببعض الأنوار والفتوحات ، وخوارق العادات ، وهذا غير بعيد على أحباء الله وأولياء الله .

---

(7) الجوانية ص 163 .

الفصل الثاني

التفرقة بين دولة الظاهر والباطن

تظهر التفرقة بين دولة الظاهر ودولة الباطن واضحة عند الحكيم الترمذي[1] وذلك عندما يفرق بن مراتب ثلاث من أصناف المسلمين :

1 ـ أصحاب علم الحلال والحرام (ويقصد بهم العلماء) .
2 ـ أصحاب علم الحكمة الظاهرة أو الدنيا .
3 ـ أصحاب علم المعرفة أو الحكمة الباطنية ، أو حكمة الحكمة ، أو الحكمة البالغة .

وأما ما وراء ذلك التقسيم فمحجوب عن الخلق .

فالمرتبة الأولى أي أصحاب علم الحلال والحرام وهم الذين يقصد بهم الحكيم أصحاب علم الأمر والنهى ، أي أصحاب العلم الظاهري من الفقهاء والعلماء ، وهم أصحاب الدولة الظاهرة أيضاً .

أما دولة الباطن فإن حكامها من المرتبتين الثانية والثالثة ، من أصحاب الحكمة الدنيا والعليا ، أي أصحاب علم التدبير ، وعلم الله وعلم أسماء الله .

وبهذا المعنى يكون أصحاب العلم الظاهر لا ـ ولاية لهم ولا يخضعون لحكم دولة الباطن ، أما أصحاب الحكمة أو المعرفة فهم الذين يتجاوزون العلم إلى الحكمة ، إذ أن العلم للعامة ، والحكمة للخاصة .

(1) د . عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ 2 ص 279 ـ 282 .

ويرى الإمام الشعراني[2] أن هناك منهجاً وقواعد لدولة الباطن ، فيحاول توضيح منهج كل من العلم الظاهر ، والعلم الباطن ، عندما يقرر : « أن المجتهدين حرموا وكرهوا واستحبوا أموراً لم تصرح بها الشريعة في دولة الظاهر ، وكذلك العارفون أوصوا وحرموا وكرهوا واستحبوا أموراً في دولة الأعمال الباطنية » فالاجتهاد في الدولتين ضروري ولا غنى لأحد الدولتين عن الأخرى ، فحقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة ، أي ناقصة .

أما الحكيم الترمذي[3] فإنه يجعل العلم لعلماء الظاهر ، والمعرفة والحكمة لعلماء الباطن ، وذلك لأن العلم اكتسابي ، أما الحكمة فلا تدرك بالتعليم ، بل هي هبة ربانية ، أو منة إلهية ، وهو يشارك الإمام الشعراني رأيه عندما يربط العلم والحكمة على أساس أن الطريق درجات ، ولا بد للسالك أن يمر على العلم الظاهري ، ومنه يتدرج عن طريق الصدق حتى يوهب له العلم الباطني أو الحكمة .

والحكمة بهذا المعنى لا تحل في عبد إلا برعايته العلم الظاهري ، رعاية توصله إلى تطهير الباطن ، فيكون أهلاً للمنة الإلهية ، فلا يركن الصوفي إلى الكشف والفتح ويترك التكاليف والفرائض الشرعية الظاهرة . . .

ويرى بعض الصوفية[4] أن الدولة الباطنية تمتد جذورها إلى الظاهر ، وتعتمد أساساً على العمل ، فالفصل بين الدولتين ليس فصلاً تعسفياً ، ولا فصلاً بين أصحاب العلم الظاهري ، وأصحاب العلم الباطني ، بل على العكس من ذلك ، يوجد هناك ربط منطقي بينهما يهدف إلى تحديد مصادر التشريع بمعنى تطبيق الطريقة على الشريعة ، والشريعة على الطريقة والحقيقة .

فالدولة الباطنية وإن كانت لها شخصيتها الاعتبارية المستقلة عن دولة الظاهر إلا أنها في الوقت ذاته بناء قائم على أسس من الشريعة الإسلامية ، فلا حقيقة بلا شريعة ، وأن كل متحقق متشرع ، ولكن ليس كل متشرع متحققاً .

ودولة الباطن هي دولة الفقراء ويعبر عن ذلك صاحب روض الرياحين نقلاً عن

---

(2) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ 2 ص : 18

(3) د . عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي جـ 2 ص 279 وما بعدها .

(4) أبو الفيض المنوفي ـ وحدة الدين والفلسفة والعلم ص 200 ، 201 .

(5) اليافعي ـ روض الرياحين ص 18 (لم نجد له أصلاً) .

الحسن البصري قول رسول الله ﷺ : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادي ، فإن لهم دولة » ، قالوا : « وما دولتهم يا رسول الله ؟ » قال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة ، قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو كساكم ثوباً ، أو سقاكم شربة في الدنيا ، فخذوا بيده ثم أفيضوا به إلى الجنة » .

ويرى نيكلسون أن للأولياء عند المسلمين حكومة باطنة ، تتصرف في العالم وتحفظ عليه نظامه ، وعلى رأسها القطب وتحته النقباء ، والأوتاد ، والأبرار ، والأبدال (البدلاء) الخ . ويزداد عدد كل صنف من هذه الأصناف بحسب درجتهم أو بحسب درجة بعدهم من القطب ، وقربهم منه(6) .

ومعنى ذلك أن الحكومة في الدولة الباطنية لها تنظيم هرمي يتصدر أعلاه القطب الغوث ويعاونه الامامان ، والأوتاد ، والأبدال ، والنجباء ، والنقباء ، وغيرهم ، إلا أن بعض الصوفية يرون الأوتاد أعلى من الأبدال ، والبعض الآخر يقررون أن النجباء هم الأمناء وهم في درجة المقربين ، أو درجة الصديقين ، والخلاف في التسمية ليس ذا أهمية أولى ما دامت الدرجات أو المقامات محفوظة وعلى رأسها القطب الفرد الغوث ، إذ أن الاختلاف في تسمية الأولياء يرجع إلى استخدام ألفاظ بدلاً من ألفاظ أخرى ، أما المعاني فواحدة بين الجميع(7) .

الفرق بين الحكومة الباطنية والمستيسيسم (التصوف المسيحي) :

كما أن هناك خلافاً جوهرياً بين الدولة الباطنية والمستيسيسم أو التصوف المسيحي ، لأن هدف التصوف الإسلامي هو المعرفة أو الحكمة العليا ، أما هدف المستيسيسم فهو الحب الذي غايته الحب الإلهي .

كذلك فإن الدولة الباطنية في الإسلام مشيدة على التأثير الروحي ، وبمعنى أدق على « البركة » ، ولا تتأتى البركة إلا بواسطة الشيخ المربي ، ولا يصير الإنسان منتسباً إلى هذه الدولة بمجرد قراءاته وتفهمه وتأمله لأفكار فحسب ـ كما هو الحال في المستيسيسم ـ وإنما عليه أن يتذوق التجربة الصوفية ، ومعايشتها بكامل أبعادها ليصير متصوفاً ، أي عن طريق السلوك العملي يصبح مريداً في طريق الله ، وأهم شيء في هذا الطريق تجريد

---

(6) نيكلسون ـ في التصوف الإسلامي وتاريخه ـ ترجمة د . أبو العلاء عفيفي ص 81 ، 82 وما بعدها التأليف والترجمة .

(7) راجع كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

التوحيد ، والاخلاص والطاعة لله ، وإسقاط التدبير مع الله ، والتوكل بالكلية عليه تعالى .

أما مجرد الحب[8] فإنه يوصل إلى مقام أو لا يوصل ، وهو غير كاف عند الصوفية ، الذين ينشدون الكمال الأخلاقي ، فالحب في التصوف المسيحي سلبي قائم على التفكر والتأمل في جلال الله فحسب . . كما يمكن أن تتصوره طوائفهم المختلفة ، أما في التصوف الإسلامي فهناك إيجاب وقبول ، فكر وعمل ، علم وسلوك ، سلب وإيجاب ، بمعنى تخليه عن الأوصاف المذمومة ، وتحليه بالأوصاف المحمودة .

لذلك فإن طريقتهم تتم بعلم وعمل ، بمعنى أنه يجب أن يكون للإنسان استعداد فطري ، وأن يكون لديه سلسلة صحيحة لتحصل له البركة ، ثم عليه أيضاً أن يتمكر في الحق تعالى ، وذلك بالذكر ، واستحضار الله في قلبه في كل ما يأتي وما يدفع ، وفي تركيز الذهن في الملأ الأعلى ، فيصل موفقاً من درجة إلى درجة ، حتى يحظى بأعلى الدرجات ، وهي حالة تسمو على حدود الوجود المؤقتِ ، فيصبح ربانياً .

أما التصوف المسيحي فإن هناك فصلا بين التأمل في الله ، والسلوك العملي أو بين الحياة المدنية ، والحياة في الله ، ولكل وقتها ونظامها ، وهذا الفصل في تصورنا تعسفي ، إذ أنه يجعل للإنسان حياتين ، حياة روحية ، وحياة مادية ، فكأن للإنسان أكثر من عقل ، وأكثر من قلب ، وأكثر من نفس ، وهنا يظهر التناقض الوجداني واضحاً ، وذلك بالاستخفاف بالعقيدة الدينية كمجال حيوي للحياة الإنسانية والأخلاقية .

وأنه لمن الواضح الجلي أن الحياة الإنسانية لا يمكن الحكم عليها من نجاحات روحية وحدها ، أو نجاحات مادية فحسب ، وإنما ينبغي الحكم عليها في ظل إطار شامل جامع ، أي من خلال الحكم على الإنسان ككل ، وأن أي نظرة بخلاف ذلك لا يمكن أن تتصدى إلى تقييم الحياة الإنسانية أو لفهم النفس الإنسانية التي هي موضوع الحياة .

---

(8) د . عبد الحليم محمود ـ المدرسة الشاذلية وإمامها ـ دار الكتب الحديثة ص 339 وما بعدها

الفصل الثالث

الاختلافات في أحكام الحكومة الباطنية

إن جميع الطرق التي تعد مراكز إشعاع روحي تتفق في أقوالها ونظمها ولا يشذ منهم أحداً ، ويرى الإمام الشعرانى[1] أنه إذا ظهر بعض الاختلافات بين مشايخ الطرق فهي اختلافات مفيدة كاختلافات الأئمة الأربعة في علوم الظاهر ، ولكن الهدف واحد ، والطريق إلى الله مشترك ، والرسالة المحمدية واحدة ، أما أسلوب المعاملات والعبادات والطاعات فيمكن أن يظهر فيه بعض الاجتهادات ، ولكن في الواقع لا يوجد اختلاف جوهري بينهم .

ويرى سهل بن عبد الله رحمه الله : « أن أعمال البر كلها في صحائف الزاهدين » ، وهذا يعني أن أهل الباطن ، غير أهل الدنيا ، وكما يقول ابن القيم الجوزية[2] : « إن أهل الباطن غير أهل الدنيا ، فأكثر آدابهم في رياضة النفس ، وتأديب الجوارح وترك الشهوات ، والوفاء بالعهود ، وحسن الأدب ، في مواقف الطلب » .

ويقول صاحب مدارج السالكين[3] : « منازل السير واحدة في كل طريق ، ولكن يختلف سير كل سالك بحسب حاله » ، فمنهم من يجاهد عن طريق الصبر على الابتلاء وذلك بتربية نفسه ، ومخالفة حظوظها وأهوائها ، ومنهم من يجاهد على طريق الشكر فيسقط التدبير مع الله ، ويوكل أمره إليه ، ومنهم من يرى أن الذكر أقطع للحجب ،

---

(1) الامام الشعراني ـ الطبقات الكبرى جـ 1 ص 3 ـ 15

(2) الروح لابن القيم الجوزية ص 262 ـ 267

(3) الامام الهروي ـ مدارج السالكين ص 18 ـ 25 .

ومنهم من يرى في العلم طريقاً لمعرفة الله ، والمعروف أن أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه كان على طريق الشكر ، وأما الإمام الغزالي فكان على طريق المجاهدة بالعلم ، لكن جميع الطرق تؤدي في النهاية لغاية واحدة ألا وهي الوصول إلى الله ولله وبا لله ومن الله .

ومن الواضح أنه إذا تعمقنا فيما يبدو من خلافات ظاهرية بين الطرق ، فإننا لا نجد أدنى صراع ، وما رأينا شيوخ الطرق تكلموا عن طرق أخرى ورجالها إلا بكل خير وتجلة واحترام ، وأن كلام أي شيخ من السادة الصوفية هو حجة معتمدة عند أهل الطرق الصوفية قاطبة وكل واحدة يستدل بأقوال أئمة جميع الطرق الأخرى ولا عبرة بمنافسة بعض التلاميذ القاصرين الذين لم يعرفوا بعد أصول الطريق وآدابه[4] .

فليس كلام القاصرين حجة على أساس انهم باختلاق الخلافات إنما خالفوا قواعد الطرق التي إنتسبوا إليها ، لأن من تمكن في أي طريق سلم لسائر الطرق ، ولم يجد خلافاً بين طريقته ، وطريقة أخرى ، لأن الغاية واحدة وإن إختلفت السبل إليها .

كما أن من درس التصوف[5] والطرق الصوفية دراسة نزيهة عرف انها مدارس أخلاقية لتهذيب النفوس ، وترويضها عملياً على الإخلاص والطاعة لله ، وذلك لبلوغ أقصى درجات الكمالات الأخلاقية والمعرفة ، وأيقن أن بدايتها جميعاً التوبة وسيرها الترقي في مدارج الشريعة ، وذلك بالتقرب بنوافل الخير ، ونهايتها المشاهدة المطابقة للشرع ، ولكن التوبة اما أن تكون صبراً على محبوب ، أو شكراً على إبتلاء ، أو خوفاً من وعيد الله ، أو تخلية عن الصفات المذمومة ، وتحلية بالصفات المحمودة .

والحق أن الإختلاف في حد ذاته إن وجد بين الطرق ليس صراعاً ، وإنما هو كإختلاف المعلمين في مدرسة واحدة في تدريس مقرر واحد فلكل طريقته في التعليم والكتاب واحد ، والعلم واحد ، وكل طالب حسب إجتهاده واخلاصه ، وعمله يتقرر فلاحه ، وصلاحه ، ونجاحه ، أو فشله ، وإنتكاسه ، وتلفه .

ومع ذلك فإنهم جميعاً لم يخرجوا عن قواعد الدين ، فهم جميعاً سبيلهم واحد ، وطريقتهم واحدة ، وكذلك من يأتي بعدهم ماداموا لم يخرجوا عن القواعد التي درج عليها سلفهم الصالح .

أما إذا ظهر بعض الخلاف ، فإنه يتركز في درجة الوصول ونوعيته ولذلك يبدو

(4) الطبقات الكبرى ج 1 ص 1 ـ 15 .

(5) د . توفيق الطويل . التصوف في مصر ابان العصر العثماني . ص 74 ط 1946 مكتبة الآداب .

لعلماء الظاهر أن أصحاب الطرق مختلفون لكنهم في واقع الأمر متفقون جميعاً ، إلا أنهم يستخدمون ألفاظاً لا يفهمها العامة أو أهل الظاهر ، نظراً لأن كل منهم يتكلم عن حاله الذي هو فيه ، فمنهم من يكون حاله الأنس ، ومنهم من يكون حاله القبض ، ومنهم يتكلم على حال التوكل ، وآخر على حال الخوف والرجاء[6] .

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه الإمام القشيري[7] من أن الحكايات التي تروى عن عقائد الصوفية توافق أقاويل أهل السنة والجماعة في مسائل الأصول ، وينقل الإمام القشيري عن أحمد بن عطاء أن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سراً له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر ولم يبث ذلك السر في أحد من ملائكته ، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان ، وفنون اللغات ، فجعلها الله صوراً له . ويؤيد ذلك الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية[8] .

ويرى الإمام الشعراني[9] أن العلم مراتب ، وما يعلمه أحد السالكين ، ربما لا يعلمه أو يدركه غيره ، ومن هنا يكون الاختلاف الناتج من درجة العلم والمعرفة ، هو الذي يوهم بوجود صراع بين أصحاب الطرق ، ولكن الصراع يختفي نهائياً عند الواصلين لأنهم يشربون من مشرب واحد ، أما المريد المبتدىء فإنه ما زال في درجة لا تسمح له بالإجتهاد ، لذلك فإن شيخه لا يأذن له بالكلام ، حتى ينضج ويكتمل وصوله .

ويورد صاحب التعرف حديثين شريفين عن علم الباطن الأول أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : « سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال : « هو سر من سري أجعله في قلب عبدي ، لا يقف عليه أحد من خلقي »[10] .

والحديث الثاني في قول الرسول ﷺ :

« إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله »[11] .

---

(6) راجع كتاب المؤلف « ألفاظ الصوفية ومعانيها » .

(7) الرسالة القشيرية جـ 1 ص 42 ، 435 .

(8) الشيخ الأكبر ابن عربي ـ الفتوحات المكية السفر الال وص 450 وما بعدها تحقيق د عثمان يحيى

(9) اليواقيت والجواهر جـ 2 ص 90 ـ 94 .

(10) الحديث أورده أيضاً الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في مشكلة الأنوار وكذلك ابن ماجه .

(11) الكلاباذي ـ التعرف على مذهب أهل التصوف ـ ص 87 روى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

وهـذا الحديث الأخير يدل دلالـة واضحة عـلى أن أهل الحق كلهم متفقـون عـلى مفهوم العلم ، وأن أعظم الفـوارق في الطرق قـائم في أشخاص شيـوخها ، وهنـاك شبه إجماع بين أكابر شيوخ الطرق في جميع الأزمنة إلى أن الطرق كلها واحدة[12] وإن إختلفت مشاربها وهذه القصة عن ذي النون المصري توضح ذلك ، إذ أرسـل يومـاً أحد المـريدين إلى أبي يزيد يقـول له : « إلى متى هـذا النوم والـراحة ، وقـد سافـرت القافلة » فـرد أبو يزيد : « أن الرجل كل الرجل من ينام الليل كله فـإذا أصبح الصبـاح كان آمنـاً في المنزل قبل نزول القافلة » .

ويعلق ابن عـربي على ذلك بقوله « الطريق على ضربـين » فعلى قـول ذي النون : « من عرف نفسه ، عرف ربه » ، فهو هنا مريد صادق مجاهـد ، وطريق آخـر يسلك بهم أي يكون مراد الله ، وكلا الطريقين سالك ، كالماشي ، وراكب السفينة مثلاً ، فأبو يزيد تسير به السفينة وهو قاعد ، ولذلك أصبح آمناً في المنزل ، فهو طالب ما يـطلبه ذو النـون وزاد عليه بالراحة والنعيم ، فالفرق هنا بين مقام ومقام .

الاختلاف الاقتصادي والاجتماعي :

ينـظر الاقتصاديـون إلى الدولـة المدنيـة في صورة من صـورها إلى مـا تحققه نـظرية العرض والطلب على أساس أنها المرجع الوحيد ، الذي ينبني عليه إشباع الحاجات المادية من ملبس ، ومأكل ، وحاجات وأدوات مطلوبة للإنسان[13] .

وعلى ذلك فإن المستهلك يقوم بـاشباع إحيتـاجاتـه الضرورية حسب نـظرية ثـابتة تخضـع لعوامـل معينة مثـل ذوقه ودخله وأسعـار السلع البديلة والمتـماثلة بدون النـظر إلى إعتبارات أخرى تحـدد سلوكه الشرائي . وفي نفس الـوقت يتحدد إنتـاج السلع المختلفة وطرحها بالأسواق حسب هذه النظريـة فتقدم السلع التي تـرضي ذوق ودخل ، ومنـاسبة أسعارهاللمستهلك ،وإلا فإنها لا تطرح حسب نظرية العرض والطلب ، كما يمكن تصور نوع آخر من الحكومة المدنية متمثلة في النظام الاشتراكي على أساس قواعد المادية الجدلية عند ماركس .

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحكومة المدنية أو الـظاهريـة بأشكـالها المختلفـة التي

---

(12) دكتور توفيق الطويل ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني ـ ص 74 طبعة 3947 مكتبة الآداب

(13) يلاحظ أنه في المجتمعات الاشتراكية يقوم الاقتصاد فيها على أساس ربطه بالانتـاج ، حسب النظريـة الماديـة الجدلية .

تهتم أساساً بالنواحي الاقتصادية فحسب ، فتركز على الحاجات وطرق إشباعها وذلك بالطرق والوسائل المادية والاحصائية ، متغافلة الجانب العقائدي للأفراد ، والذي يمكن أن يبطل نظريات العرض والطلب يرفض إعادة توزيع الدخول والانتاج بمعرفة السلطة ، فلا يقبلون عليها ، بل يرفضونها وخاصة فيما يمس الناحية العقائدية في المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، والدليل على ذلك أن المريدين في الطريق الصوفي يتعاملون بعضهم مع بعض بلغة غير لغة العرض والطلب[14] ، بمعنى أنه إذا كان التعامل يتم بين البائعين والمشترين على أساس الربح والمنفعة أو المصلحة ، فإن التعامل بين طوائف الصوفية يتم على أساس البركة « أو بركة الأولياء » .

فالشراء والبيع كطريقة للمعاملات يتم على أنه بركة من بركات ولي المنطقة وقطبها ، وليس لأن أسعار السلع رخيصة أو مناسبة ، فالمريد التاجر يروج سلعته على أساس مخاطبته للمشتري بأنه يتوجب عليه أن يحصل على بركة من بركات ولي المنطقة ، سواء كانت السلع من الأدوات ، أو البضائع أو من المأكولات أو الملابس ، وفي نفس الوقت يشعر المشتري بحاجته الماسة إلى الحصول على « بركة » من بركات ولي المنطقة ، دون النظر إلى مناسبة أسعارها ، ودون مقارنتها بمثيلاتها من السلع والبضائع الأخرى .

فهناك حركة تأثير تبادلية بين ولي المنطقة والبيئة ، بمعنى أنه إذا كانت البيئة التي يوجد بها الولي زراعية ، أو تجارية ، أو صناعية ، نشطت المشروعات الزراعية ، والتجارية والصناعية ، وزاد الاقبال على الانتاج وزاد النشاط التجاري والمالي ، وكل ذلك ناتج من بركة ولي المنطقة ، وهذا ما اتضح من البحث الميداني في منطقة طنطا ، إذ اتضح تأثير سيدي أحمد البدوي في مختلف الأنشطة ، فأصبحت بفضل وجود ضريحه مدينة كبيرة نشطت فيها أسواق من زراعية وتجارية وصناعية بعد أن كانت قرية صغيرة مهملة .

وكذلك مدينة دسوق فقد اشتهرت هذه المدينة بفضل حلول سيدي إبراهيم الدسوقي بها ـ والذي يعتبر حتى الآن قطب المنطقة ووليها الأكبر ـ وراجت حركة التجارة بها ، ونشط تسويق المنتجات الزراعية ، والصناعية وازدهارها .

كما يؤثر وجود ضريح ولي المنطقة بصورة غير مباشرة في الاعتقادات ، مما يقوي الإيمان والشعور بالأمن والطمأنينة ، بل والتقرب إلى ضريح ولي المنطقة ابتغاء الوسيلة

---

(14) قام المؤلف بدراسة ميدانية على منطقة وسط الدلتا

الصالحة والتي تؤثر في اعتقادهم في استجابة الدعاء ، وحل المشاكل الاجتماعية وعصمة الناس من المكاره والمصائب ، بل والرضى بالاختبار والابتلاء من الله .

ومن ناحية أخرى تساعد الولاية الروحية في المجتمعات التي تتواجد فيها ـ وذلك كما اتضح من الدراسة الميدانية[15] ـ تساعد في اعتقادات الناس في حل المشاكل ، وشفاء المرضى ، وزواج العانس ، وحل المربوط ، والوقاية من الحيوانات الضارة ، والسرقة ، واكتشاف الجناة ، بل واستشارة الأولياء في مشاكلهم الاجتماعية والعائلية .

ويبقى الطب وعلماؤه أن يقرروا صدق هذه الاعتقادات أو كذبها وتأثيرها في شفاء الأمراض . إلا أنه يلاحظ أن كثيراً من الذين يلجأون إلى الأولياء قد سبق لهم التردد على الأطباء ، وأنهم لما يأسوا من علاجهم بالطرق العلاجية المعروفة انصرفوا إلى الأولياء ، وقد تم على أيدي أصحاب الولاية الروحية من الموتى والأحياء على السواء شفاء بعضهم .

(15) قام المؤلف بعمل دراسة شاملة لمنطقة الدلتا وركز البحث على منطقة طنطا وضواحيها ، واتضح من البحث أن قطب المنطقة هو سيدي أحمد البدوي ، وهو يعتبر مركز الاشعاع الروحي الذي يستمد من وجوده جميع أولياء المنطقة ولايتهم الروحية .

الباب الثاني

نظام الحكم في الحكومة الباطنية

يشتمل هذا الباب على فصول ثلاثة هي :

الفصل الأول : أوصاف الصوفية ومظاهر دولتهم .
الفصل الثاني : رئيس الحكومة الباطنية (القطب الغوث) .
الفصل الثالث : أعضاء الحكومة الباطنية .

الفصل الأول

أوصاف الصوفية ومظاهر دولتهم

الصوفية أوصاف يعرفون بها ، وأخلاق يتصفون بها ، وآداب يتفقون على اتباعها ، وتعاليم لا يختلفون عليها[1] .

ويرى الإمام أبو الحسن الشاذلي[2] أن للصوفية أربعة أوصاف يمتازون بها عن سائر الخلق :

1 ـ التخلق بأخلاق الله عز وجل : وهذا ما نجده في الإيثار والتسامح والفراسة والبصيرة والسخاء والجود والعطاء والمحبة[3] .

2 ـ المجاورة لأوامر الله عز وجل : أي الطاعة لله ، والاخلاص له تعالى في الظاهر والباطن ، وصدق النية ، وعدم الاعتراض في الابتلاء والاخبار من الله ، والتوكل بالكلية واسقاط التدبير مع الله .

3 ـ ترك الانتصار للنفس حياء من الله عز وجل : وذلك بالرجاء في الله والخوف من الله ، ومخالفة النفس ، وتجنب حظوظها والبعد عن هواها .

4 ـ ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله عز وجل : ويظهر ذلك في المكابدة ، والمجاهدة في سبيل الله ، والصبر ، والمعاناة ، والزهد في الدنيا ، والفقر الله تعالى ، وهذا هو الخلق الحسن ، فإمامهم ومشرع دستورهم هو الله وهم المنفذون لأوامره

---

(1) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف .

(2) د . عبد الحليم محمود ـ المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي ص 127 ، دار الكتب الحديثة

(3) الامام الكلاباذي ـ التعرف على مذهب أهل التصوف ص 89 ـ تحقيق د عبد الحليم محمود .

وأحكامه ، والمقتدون في الدنيا بسيد البشر رسول الله ﷺ في شريعتهم وحقيقتهم ، لا ينافقون ولا يراؤون ،ظاهرهم باطنهم ، وغايتهم الطريق الموصل للقربة لله ، فلا يهم متاع ولا رياش ، فالدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم .

وهم يحددون مظاهر دولتهم الباطنية كما يرونها في عشرة أقسام(4) :

1 - تجريد التوحيد : وهو ألا يشعر الصوفي إلا بالله ، ولا يرى عوناً سواه ، ولا يعتمد على غيره ، ولا يأمل إلا فيه ، ولا يرضى بغيره حبيباً ، ولا نصيراً ، ولا معيناً .

2 - فهم السماع : وهو أن المريد الصادق تصفو نفسه عند ذكر الله ، فيلقن بالمعاني التي يجهلها ، والإشارات التي تقذف في قلبه ، وهي أسرار وحقائق ومنبهات وجميعها علوم ذوقية .

3 - حسن العشرة : وذلك بالزهد فيما عند الخلق ، والمعاونة والمساعدة للمحتاج ، وأداء الواجبات ، نحو الغير والمحبة للناس ، وعدم كراهية الأعداء .

4 - إيثار الإيثار : الإيثار هو البذل والتضحية ، أما إيثار الإيثار فهو أن ينسى الصوفي أنه صاحب عطاء وسخاء ، لأن كل شيء من الله ، وهو الجواد على الاستمرار .

5 - ترك الاختيار : ألا يختار لنفسه شيئاً ، ويقول الإمام الجيلاني : « دبروا ألا تدبروا فالله هو المدبر على الاطلاق » ، ومعنى ذلك أن تنعقد إرادة المريد مع الله فلا يريد إلا ما يريده الله .

6 - سرعة الوجد : وذلك من صفاء السريرة ، وصدق النية مع الله ، فيصادف القلب حالة تذكره بالله فيبكي خوفاً أو يفرح رجاء في الله .

7 - الكشف عن الخواطر : الصوفي يعرف الفرق بين الخاطر الشيطاني والملائكي ، فلا يلتبس عليه الأمر ، لأنه مخالف أبداً لهوى نفسه .

8 - كثرة الأسفار : حتى لا يعتاد الصوفي على الخلق والاملاك فالسفر هو هجرة إلى الله ، وهو وحشة للخلق وقربة لله .

9 - ترك الاكتساب : إذا وصل الصوفي إلى الفناء في الله ، فإنه يعتمد بالكلية على الله فلا يأخذ إلا من الله ، ولا يطلب شيئاً من الخلق ، فأكله وشربه ونومه من الله وفي الله وبالله ، وهذا معنى ترك الاكتساب .

10 - تحريم الادخار : ألا يجمع الأملاك ، ولا يفكر في الامتلاك ، فصاحب

---

(4) الامام الكلاباذي - التعرف لمذهب أهل التصوف - ص 89 تحقيق د . عبد الحليم محمود

الحقيقة يبتعد عن الخلقية ، وصاحب الدنيا يبتعد عن الحقيقة ، ويقترب من الخليقة .

فدولة الصوفية ليست كدولة الظاهر من نواحي عديدة كالتشريع والسلوك والأخلاق والغاية والنيات .

ولذلك فإننا نجد اختلافاً واضحاً بين الظاهر والباطن ، فالصوفية مثلاً قد اصطلحوا لهم ألفاظاً تعارفوا بينهم عليها ورمزوا بها لمعانيهم ، ويقول الإمام الشعراني[5] : إن الملامتية الذين هم أكابر الصوفية لا يصلون مع الفرائض إلا ما لا بد منه من واجبات النوافل ، خوفاً أن يقوم بهم دعوى أنهم أتوا الفرائض على وجه الكمال .

والملاحظ أن أئمة الصوفية ينظمون حكومتهم على طراز فريد في اللفظ والمعنى والسلوك ، إلا أنه لا يمكن تفهم نظام الحكم في الدولة الباطنية ، بل ولا يستطيع باحث أن يدعي لنفسه القدرة على تفهم المجتمع الصوفي أو التخصص في دراسته ، دون أن يكون على دراية تامة باللغة والإشارات والألفاظ التي يستخدمونها ، وهذا ما يصعب معرفته إلا ذوقاً[6] ، وهذا يقضي معايشة الباحث أهل الطريقة والانخراط معهم وتذوق ما يتذوقونه ، ولن يتمكن من ذلك إلا بالإيمان بالطريق إلى الله والإخلاص والطاعة وإسقاط التدبير .

كما أنه لا يمكن دراسة نظام الحكومة الباطنية في حدود عقلية الرجل المدني الذي يحاول دراستها عن طريق العلم الوضعي فحسب ، إذ أن عقليته هي ثمرة لنوع مختلف من النظم والأوضاع ، والقول بغير ذلك يؤدي إلى الوقوع فيما يسمى « بأغلوطة السيكلوجيين » والتي رفضها علماء الاجتماع وعلى رأسهم دور كايم وليفي بريل[7] .

كما يجب الإشارة إلى أن الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية تهتم في المقام الأول بالظواهر والأشكال في أبحاثها الميدانية في مجال البنائية والثقافية ، وحتى الأبحاث النظرية فإنها تركز في الدراسة على عوامل متكررة وسمات واضحة يتسم بها المجتمع المدروس ، دون التغلغل إلى أعماق ذلك المجتمع وفهم سلوك أفراده ، وبواعث هذا السلوك ، ودوافعه ، وأثر العامل الروحي أو الديني فيه .

ومن البديهي أن كل نشاط اجتماعي منظم يرتبط فيه الأفراد عن طريق مشاركتهم في عمل معين على أساس نوع من الانسجام الفكري والسلوكي ، إنما يتأتى هذا

---

(5) الشيخ عبد الوهاب الشعراني ـ الكبريت الأحمر جـ 2 ص 105 ، مطبعة عبد الحميد حنفي .

(6) راجع للمؤلف ألفاظ الصوفية ومعانيها .

الانسجام نتيجة لعادات وتقاليد اجتماعية مشتركة[8] .

ولكن يجدر بنا ألا نتغافل عن القوى المحركة لهذا النشاط ، إذ أنها الأساس الذي يمكن أن تبتدىء منه أية دراسة اجتماعية ، لأن أي سلوك اجتماعي يستند إلى عقيدة دينية تؤثر في ضمير أفراده اجتماعياً وسلوكياً .

وإذا تعمقنا في تركيب المجتمع الصوفي فإن الدراسة المركزة تؤكد تأكيداً واضحاً وجود التساند الوظيفي ، فحيث يوجد القطب[9] الغوث تنتشر الطرق الصوفية ، ومن انتشارها يوجد الالتزام الديني بآداب الطريق ، ويترتب على العمل بآداب الطريق ، ظهور الولاية ، ومن ثم اكتمال دراسة الباطن شكلاً وموضوعاً .

ونظام الحكم في الدولة الباطنية يقوم أساساً على تسلسل المقامات عند الأولياء ، فحينما يقطع المريد الصادق الطريق إلى الله ، يحظى بالولاية كهبة إلهية أو منّة ربانية .

وللولاية سمات خاصة تنفرد بها ، والولي صاحب فراسة وبصيرة ، ويمتاز بقدرة على خرق العادة ، وهذا الولي إما أن يمكث ولياً فقط ، فتكون معرفته خاصة به ، أو أن يختاره الله عز وجل لتأدية رسالة للآخرين ، فيكون نبياً ، أو رسولاً ، والنبوة تتضمن الولاية ، ثم انها أكبر منها ، ولذلك يقال أن حال الولي ناقصة ، بالنسبة لحال النبي ، لأنها خاصة به ، وقاصرة عن العموم ، بخلاف صاحب الرسالة النبوية ، المأمور بتبليغ الخاص والعام ، إذ أن الرسالة النبوية عالمية ، والرسول لا غيره هو حقيقة الإنسان العالمي ، ودرجته أسمى من درجة النبي المحدودة ، ودرجة النبي المحدودة أعلى من درجة الولي الخاصة ، ومقام الجميع القرب[10] .

ويقوم نظام الحكم على أساس الطاعة للقطب ، حيث أنه الإمام الذي يلزم أن يتبع ، وذلك لأنه يستمد سلطته من أوامر الله تعالى ، ومن القطب الأوحد الممد لجميع الأولياء ، عبر الأزمنة حتى قيام الساعة ، ألا وهو رسول الله محمد ﷺ .

ولذلك سنفرد فصلاً لبيان مقام القطبانية ، باعتباره أعلى وظيفة في الحكومة الباطنية .

---

(7) دكتور أحمد أبو زيد ـ الأنثربولوجيا الاجتماعية ـ ص 15 ـ 79 منشأة المعارف .

(8) د. عاطف غيث ـ مقدمة علم الاجتماع ـ ص 203 الطبعة الأولى 1962 .

(9) القطب هو رئيس الحكومة الباطنية، وسنتكلم عنه بالتفصيل في الفصول القادمة

(10) الامام عبد الوهاب الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ جـ 2 ص 78 وما بعدها .

الفصل الثاني

رئيس الحكومة الباطنية
(القطب الغوث)

يقول السهروردي المقتول[1] : أن العالم ما خلا عن الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات ، وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة .

فالإمام أو الخليفة هو القطب أو الإنسان الكامل والأقطاب أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود ، وهم الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق .

ومعنى ذلك أن القطب عند شهاب الدين السهروردي هو أعلى درجة بين الواصلين ، وقد يكون مستولياً ظاهراً أي له مقاليد الأمور السياسية فيصبح العصر نورانياً أي عصر إزدهار وتقدم ، وقد يكون القطب خفياً غير مستول ، حامل الذكر فحسب وليس له أي تأثير في الشؤون الزمانية ، وعلى ذلك تخلو الأرض من التدبير الآلهي ، وتغلب عليها الظلمات أي التأخر والإنحطاط .

أما الحكيم الترمذي[2] فيضع في أعلى الدرجات « المقربين » ويسميهم بالأمناء أو المنفردين وأحياناً بالنجباء وأحياناً بالبدلاء ، وهم كما يرى القائمون بالحجة المفوض إليهم في الأمور ، فهم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم على الأمة : « أولئك الأقلون عدداً ، الأكثرون عند الله قدراً . . هم الأمناء في عباده » .

---

(1) د. محمد علي أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص 105 وما بعدها دار الطلبة العرب بيروت 1969 الطبعة الثانية .

(2) د عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي نظريته في الولاية ص 276/171 الجزء الثاني مجمع البحوث 1971

ولما كان لا يكون في الزمان إلا واحد يتولى القطبانية فهو إذن الوالي في الأفـراد وإن وجد من يكون أعلم منه بالله تعالى[3] .

ويرى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي[4] أن القطب الغـوث هو الـواحد الـذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان وهو على قلب إسرافيل عليه السلام ، والقـطب مركز[5] الدائرة ومحيطها ومرآة الحق تعالى ، وعليه مدار العالم ، وله رقائق ممتدة إلى جميـع القلوب بالخير والشر على حد سواء ، لا يترجح عنده واحـد على صـاحبه ، وهـو عنده لا خير ولا شر ولكن كل شيء عنـده وجود ، وتـظهر أمـامه الأشيـاء على أنها خـير أو شر في المحل القابل لها بحكم الشرع والعقل[6] ،﴿ فألهمهـا فجورهـا وتقواهـا ﴾أي أن النفس الإنسانية شاملة لطريقي الخير والشر كما أنه الخليفة ومقامه تنفيذ الأوامر وتصريف شؤون الحكم ولا يتقيد بحالة تخصيص إذ أنه الستر العام في الوجود ، وبيده خزائن الجود والحق له متجل على الدوام .

مبايعة القطب على الخلافة :

يـرى السيوطي رضي الله عنـه[7] أن الحسن رضي الله عنه أول الأقـطاب وقبله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وهذا يعني عند الإمام السيـوطي رضي الله عنـه أن الحسن رضي الله عنه أول من كـانت له الخـلافة البـاطنية ، منفـردة عن الخلافـة الـظاهرة لأن القـطب الغوث هـو خليفة النبي ﷺ ووارث الأمـر من بعـده وكـأن الحسن رضي الله عنه ، لما ترك الخلافة الظاهرة إبتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين ، عرضه الله ما هو أجل منها وهي الخلافة البـاطنية أي من تـرك شيئاً لله عـوضه الله خيـراً منه ، وأمـا الخلفاء الأربعة فقد كانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معاً . ولم يجتمعا لأحـد بعدهمـا إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز وهذا يلزم منه أن يكون عمر أفضل من الحسن رضي الله عنهما وهذا لا يعقل ، وفكرة التعويض هذه في تصورنا فكرة اجتهادية تبرر الأحـداث التي استشهـد بسببها الإمـام الحسن رضي الله عنه ، ونحن لا نميـل إلى الاعتقـاد بـأن منـزلـة الحسن والحسين من الرسول تعد أساس هذه المرتبة العالمية ، وفي تصـورنا أن هـذا الرأي

---

(3) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ 2 ص 78 وما بعدها .

(4) رسائل ابن عربي ـ دار احياء التراث العربي (كتاب اصطلاح الصوفية) .

(5) رسائل ابن عربي ـ منزل القلب (دار احياء التراث العربي) .

(6) الامام السيوطي ـ تأييد الحقيقة العلية ص 55/56 ـ 1934 طبع الحاج شكارة .

(7) الشعراني اليواقيت والجواهر الجزء الثاني ص 78 ـ 83 .

ينقصه الدليل إذ أن المعروف أن الإسلام لا يعتبر القرابة الدموية للرسول ﷺ أساساً للخلافة بدليل خلافة أبي بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم ، مع وجود علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فلا وراثة للأنبياء وهي قاعدة طبقها الرسول ﷺ .

ويبايع القطب بأمر إلهي على السمع والطاعة كل مأمور من أدنى إلا العالون أي العابدون لله تعالى بالذات ، وكل من يدخل عليه يسأله سؤالاً فيجيب عليه ، ويرى الإمام الغزالي في الأحياء أن العابدين لله هم الأفراد ، وهم أولياء خارج نطاق الحكومة الباطنية ويمكن أن تكون مقاماتهم أعلى من مقامات الأقطاب .

ويبنى للقطب سرير في الحضرة المثالية ، يقعد عليه ، ويحيط بعلم كل شيء ، ولله المثل الأعلى ، وبعد أن ينصب إليه السرير ، يخلع عليه جميع الأسماء ، التي يطلبها العالم ويظهر بها حللاً وزينة متوجاً بها .

ويروى عن الأقطاب أنهم كانوا يعملون في حرف[8] شتى فتارة يكون أحدهم حداداً ، وتارة تاجراً ، وأحياناً يبيع الفول ونحو ذلك ، وذلك لتطبيق الشريعة ظاهراً وباطناً .

ويروى عن الشيخ علي الجمل وكان قطباً غوثاً[9] أنه كان يسأل القراريط (المال) من حانوت إلى حانوت ، فالسؤال هو طريق لمخالفة النفس فلا يجد الولي الكامل حظاً لنفسه ، مهما أوتي من نعم ومنن ومقامات عالية .

ويرى الشيخ الأكبر ابن عربي أن القليل من الجن والأنس يبايع القطب ، وهذا يرجع في تصورنا إلى أنّ المؤمنين فقط هم الذين يبايعونه بالخلافة والقطب معروف في الأرض والسماء ، إلا أن الله إذا أحب عبداً أخبر به[10] حملة العرش وأمر جبريل عليه السلام أن ينادي في السموات باسم ذلك العبد ، حتى يعرفوه ويحبوه ، ثم يوضع له القول في الأرض .

وقد حدد الشعراني[11] الأقطاب (حتى عصره أي حتى سنة 950 هـ تقريباً) من عبد آدم إلى عهد الرسول ﷺ بـ 25 قطباً ، ويرى أن القطب الغوث الفرد في الدنيا من أولها إلى آخرها حتى يوم القيامة هو رسول الله ﷺ .

(8) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ 2 ص 81 .

(9) عبد السلام الحلواني ـ الرسالة الوفية في الرد على منكري الصوفية .

(10) رسائل ابن العربي ـ منزل القطب ـ دار إحياء التراث العربي .

(11) اليواقيت والجواهر ـ جـ 2 ص 8 وما بعدها .

كما أنه يرى أن لكل بلدة قطبها يحفظها سواء كان أهلها كفاراً أو مؤمنين .

مدة القطبانية :

يرى أئمة الصوفية أنه ليس للقطب في الزمان الواحد مدة محددة ، ولا يعزل حتى ينقضي أجله ، وقد يستمر سنوات أو سنة أو شهراً أو يوماً أوساعة وذلك حسب ما قدر الله له .

ومن الأقطاب من يمكث ثلاثة وثلاثين سنة ، ومنهم من يمكث ثلاث سنوات ، وتنسخ دعوة القطب بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع ، ولا يورث القطب كما يورث الحكم الظاهر .

سلطات القطب الغوث :

يمثل القطب الغوث الحكومة الباطنية ، ويعتبر الرئيس الأعلى لها ، ويعتقد أئمة الصوفية أن القطب له مطلق السلطات على أهل الباطن ، وأمره وطاعته وحكمه نافذ ، ورؤيته صادقة وقوله غير مردود لأن علمه لا يصدر إلا عن الله تعالى وهو يتصل بأعضاء حكومته الهاماً أو عن طريق الرؤيا أو بطريق التوجه[12] .

خصائص القطب :

للقطب الغوث خصائص عديدة منها :

1 ـ أنه يختل وحده بالحق تعالى ولا تكون لغيره من الأولياء هذه المزية . والمعروف أن القطب الغوث في المرتبة الرابعة وهي مقام[13] الصديقية الكبرى ، أو القرية العظمى .

2 ـ إذا مات القطب الغوث انفرد تعالى بتلك الحظوة أو الخلوة لقطب آخر ولا ينفرد بالخلوة الله تعالى لشخصين في آن واحد أبداً ، وهذا الخلوة تعتبر من علوم الأسرار .

3 ـ يلزم أن يكون القطب واحداً في إقامة الدين وذلك لئلا يقع التنازع والفساد .

4 ـ قد يكون القطب قطباً بالسيف ، كأبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله

---

(12) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها (الرؤيا ـ الالهام)

(13) راجع الخلوة في كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

عنها ، وقد يكون الخليفة نائباً للقطب ، ويقصد بقطب السيف أنه المطبق للشريعة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

5 ـ قد تكون القطبانية لولاة الأمور كالخلفاء ، ويصح أن تكون للأئمة المجتهدين الأربعة أو لغيرهم وفي هذه الحالة يكون إشتغالهم بالعلم حجاباً ، لأن من شأنهم التخفي ، والأئمة الأربعة هم أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل رضي الله عنهم أجمعين .

6 ـ ينبه الشيخ محيي الدين بن عربي[14] إلى أن طاعة الأقطاب واجبة ويستشهد بالآية الكريم **﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾**[15] ويقصد بهم الأقطاب والخلفاء والولاة ولكن في المباح فقط ، ومعنى ذلك أن الصوفية لا يعتقدون في القطب أنه صاحب عصمة بخلاف الباطنية الذين يرون أن الإمام معصوم[16] .

هل يموت القطب ؟

يعتقد الصوفية أن الله أبقى من الرسل أحياء بأجسادهم في الدنيا ثلاثة مشرعين هم إدريس وإلياس وعيسى وواحداً حامل العلم المدني ، وهوالخضر عليه السلام الذي يحمل راية الدين الإسلامي فهم أربعة عليهم حمل الرسالة والاستمرار بالشريعة المحمدية كما أمر الله بها وهم :

الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون[17] .

ويؤيد الشيخ الأكبر ابن عربي موت القطب وإنتقال السر إليه ، ويرى أن الإمام ويقصد به نائب القطب قد يموت في إمامته ويولي مكانه إمام آخر ، وينتقل من الأوتاد الأربعة واحد منهم إلى هذا المكان كما سنبين في عرضنا عن الإمامين والأوتاد وهم جميعاً من أعضاء الحكومة الباطنية ومعنى ذلك أن أحد الوزراء يتولى منصب القطبانية بأمر إلهي وكذلك الأمر بالنسبة للإمامين .

ويسمى ابن عربي ، القطب عبد الإله ، ويسمى الإمام عبد الرب ، والإمام

(14) راجع الفتوحات المكية ـ السفر الأول ـ تحقيق دكتور عثمان يحيى
(15) سورة محمد ـ أية 33 ؛ سورة النساء آية 59 .
(16) الامام الغزالي ـ فضائح الباطنية 10 ـ 25 .
(17) اليافعي ـ روض الرياحين ص 3 ـ 20

الآخر عبد الملك وأما بقية أعضاء الحكومة فحسب مقاماتهم وأعمالهم التي خصهم الله بها ، وهذه الأسماء يجوز أن تكون غير الأسماء الظاهرة المسمى بها الولي في حياته الدنيوية ؛ لأن هذه الأسماء لها معان تدل على مقامات أشخاصها .

وكما أن القطب يموت فالإمام أيضاً يموت ، ويرى ابن عربي أن الإمام أي نائب القطب على النصف من عمره مع العالم ، وعلى النصف الآخر مع القطب إلى أن ينتقل إلى خلافة ـ القطبانية ـ فيصبح قطباً أو يموت فتنتهي إمامته ومعنى ذلك أن القطب يختار بالضرورة من النائبين أو الإمامين .

ويرى الشيخ الأكبر ابن عربي[18] أن مقام القطب بعد النبي ﷺ لأنه ممثله في الزمان والمكان ، ولا يتمكن القطب أن يقوم في القطبانية إلا بعد أن يحصل معاني الحروف[19] التي في أوائل السور مثل ألم والمص وغير ذلك ، فإذا أوقفه الله تعالى على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة وكان أهلاً لها[20] .

ويشرح ابن قضيب البان[21] موقف القطبية فيقول : « أوقفني الله تعالى على بساط القطبية وقال لي : « الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي ، وغوث الآن الزماني ، أول ما أسلم له : التصريف في قطر نفسه حتى يبلغ الأشد ، ثم أسلم له ، وأوقف له أقطار الأقاليم ، ثم أسلم له الأرض ثم أسلم له الملك ، ثم أجمع له الملك والملكوت ، وهذا هو الغائب الرحماني » وقال لي تعالى : « القطب يعرفه كل شيء حتى أهل الغيب ، وعالم المحال ، وأهل الأرض البيضاء ، وتعرفه أيضاً العوالم وصور أولي العلم حتى يسلمها بطابع الرحمة ويرويها بالبصر ، وقال لي تعالى ؟ : « القطب قلبه كن في عالم الأزل ، ومخدع الألوهية » . . .

وقال لي تعالى : « القطب خزانة أرواح الأنبياء ، والكون كله صورة القطب ، وهو شمعة نصبت لفراش المقربين ، وصلاح مشاهد العارفين ، وغذاء أفئدة الواصلين » وقال تعالى : « من نفس القطب صور برزخ الشؤون الصفاتية ؛ وعقلة اسرافيلة ، وفي نفسه عمود الشموس الروحية ، والذين يختارونه هم أهل زمانه » .

---

(18) رسائل ابن العربي ـ دار إحياء التراث العربي

(19) راجع اسم الله الأعظم في كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

(20) المتوحات المكية السفر الأول ص 200 ـ 250 .

(21) دكتور عبد الرحمن ـ الإنسان الكامل في الإسلام ص 150 / 151 .

(*) يذكر بعض الأئمة القطبانية وبعضهم القطبية ويفصل الشيخ الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود لفظ القطانة .

وقال لي تعالى : « القطب الفرد الواحد في كل زمان ، الحقيقة المحمدية ، ولكل زمان قطب منها ، وهو خطيب سر الولاء بكلمة : بلى . وهو شمس عروس أشهدهم وساقي عشاق أشواق ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾[22] ، وهذا وصف من ذائق لوحدة الشهود ، عاين وشاهد ، بعد أن كابد وجاهد ، حتى وصل إلى أعلى مقام ، فرأى ما رأى وهو في المقامات الرفيعة ، وتجلى الله له مبسطاً بعض علمه وأسراره وفتوحاته عليه .

علامات القطب :

للقطب خمس عشرة علامة ، واسمه في كل زمان عبد الله وهو رئيس الحكومة الباطنية . ويبين الشعراني[23] هذه العلامات ويوضحها ـ فيقول :

« أن يكون له مدد العصمة ، والرحمة ، والخلافة والنيابة ، ومدد حملة العرش وكشف حقيقة الغوائب ، وكشف حقيقة الذات ، وإحالة الصفات ، وكرامة الحلم ، والفضل بين الموجودين وإنفصال الأول عن الأول وما الفصل عنه إلى منتهاه وما ثبت ، فيه حكم ما قبل وما بعد ، وحكم من لا قبل له ولا بعد ، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم ما بدا في السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه .

وهذه العلامات لا يعرفها إلا أهل التمكين من الأولياء الكمل وليس بطريق العلم الكسبي[24] لأنها علوم وهبية لا يقدر على الوصول إلى منتهاه إلا أصحاب الأذواق .

صفات القطب :

راغب النساء[25] ، وريث الأنبياء ، مرآة الحق ، وصاحب علم سر القدر ، وعلم دهر الدهور غالب عليه الخفاء ،.لأنه محفوظ في خزائن الغيرة ، لا يعتريه شبهة في دينه ، ولا خاطر ، دائم العبودية والافتقار يقبح القبيح ويحسن الحسن ، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص ، تأتيه الأرواح في أحسن الصور ، لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب ، لا يرى من الأشياء إلا محل نظر الحق ، وهو غير أصحاب الأحوال من الأولياء أي أصحاب التلوين الذين يتغيرون باستمرار لكثرة

---

(22) سورة آل عمران ـ آية 31 .

(23) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ الجزء الثاني ـ ص 78 وما بعدها .

(24) راجع كتاب المؤلف ألفاظ الصوفية « العلم الكسبي و الوهبي » .

(25) اليواقيت والجواهر 87 وما بعدها .

إنتقالهم من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام .

ومعنى ذلك أن القطب منـزه عن الحال وثـابت في العلم ، فإن أطلعـه الله على مـا يكون أخبر بذلك على وجه الإفتقار لله لا على وجه الإفتخار كما أنه لا تـطول له أرض ولا يمشي في هواء ولا على ماء ولا يأكل من غير سبب ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر إذا أراد الحق تعالى ، فيفعله بإذن من الله تعالى من غير أن يكون مطلوباً له ، كما أن نكاحه من أجل اللذة والشهوة لا من أجـل التناسـل كفعل أهـل الجنة سـواء بسواء ، وذلـك لأنه وصـل واتصل فـلا يخشى عليـه من الـدنيـا وأهلهـا ، ولا من هـوى نفسـه ، وحظوظها ، ولذلك حظى بهذه المراتب العظيمة والعطايا والمقامات الرفيعة .

ومن شأن القطب الوقوف خلف حجاب بينه وبين الحق تعالى ، فإذا مات لقى الله عز وجل ، واستخلفه في القطبانية قطب آخر بأمر إلهي .

شروط القطبانية :

1 ـ أن يكون صاحبها ذا جسم طبيعي وروح وموجود في الدار الدنيا بجسده .

2 ـ أن يكون واحداً في زمانه فلا ينازعه في هذا المقام ولي آخر .

3 ـ أن يكون له نائبان هما الإمامان كل منهما يحكم نصف المعمورة .

4 ـ أن يكـون لـه في زمـانـه أربعـة أوتـاد ، واحـد منهم يحفظ الإيمـان ، والثـاني الولاية ، والثالث النبوة ، والرابع الرسالة ، وسنتكلم عن الأوتاد فيها بعد .

وكثير من الأولياء لا يعـرف الرسـل الأربعة وهم عيسى واليـاس وإدريس والخضر عليهم السلام ويسعون جميعاً للوصول ، وعندما يكشف لهم يعـرف كل منهم حقيقتـه ، ومعنى ذلك أن الولي الكامل هو الذي يعرف أعضاء الحكـومة بـل وأصحاب التشريـع ، أما الولي الناقص فيعرف الذين في مقامه أو أقل من مقامه .

مكان القطب وإقامته :

يرى الشيخ الأكبر محيي الدين[26] أن القطب لا يرى شيئـاً إلا ويرى الله قبله ولـه من البلاد مكة ، وإذا سكن في أي مكان آخر بجسمه فإن محله مكة وليس غيرها .

---

(26) رسائل ابن عربي ـ منزل القطبية ـ دار احياء التراث العربي حـ 2

ويؤيد صاحب روض الرياحين أن مكان القطب الغوث من الأولياء كمكان النقطة من الدائرة التي هي مركزها ويقع به صلاح العالم ، ولا يتقيد القطب بالمكوث في مكان ، فإن محل إقامته بجسمه حيث شاء الله أن يقيم وأن ينتقل دون تحديد مقام لـه ، والمعروف أن الدائرة هي أكمل الأشكال لذلك فإن مركز القطبانية في دائرة تقع على محيطهـا مراكـز الأولياء ، أعضاء الحكومة الباطنية .

هذا وقد قام المؤلف بدراسة ميدانية واختار منطقة وسط الدلتا (طنطا وضواحيها) باعتبارها مركز اشعاع روحي لجمهورية مصر العربية وبالذات مدينة طنطا لوجـود عديـد من ضرائح الأولياء بالمدينة وضواحيها وركز البحث على أكبر أوليـائها ذي الشهـرة الكبيرة والمشهود له من الخاصة والعامة بالولاية الكبرى ووضع البحث فرضـاً مؤداه أن القطب في مركز دائرة تلتف على محيطها مراكز الاتباع من الأولياء كنائبيه ووزرائـه وأعضاء حكـومته من الأوتاد والأبدال والنجباء والرجباء والنقباء ، وقد اتضح من الدراسة الميـدانية صـدق هـذا الفرض وانضبـاطه عـلى أولياء منـطقة طنـطا وضواحيهـا وأن سيدي البـدوي ، هو القطب الغوث ورئيس هذه الحكومة الباطنية في زمانـه ووقته ، وسنعـرض لهذه الـدراسة الميدانية في فصل مستقل ، كما سنبين للقارىء نتائجها التي حاولنا فيها اختيار مدى صحة آراء أئمة الصوفية فيما يتعلق بالقطبانية بخاصة والولاية بعامة .

مدى علم القطب :

يبين صاحب مدارج[27] السلوك أن العلمين الثابتين في الدنيا والآخرة ، هما العلم بالله تعالى ، والعلم بالآخرة ، وأما العلوم الدنيوية فهي تـزول بزوال الحيـاة فعلم الطب مثلاً لا يحتاج الإنسان إليه في الآخرة لانه لا يـوجد مـرضى فيها أو سقـام ، فهو إذن علم ناقص . وبالمثل العلوم الأخرى كالهندسة والعمارة والصيـدلة وغـيرها من العلوم الجـزئية والعمليـة والتطبيقيـة والنفعية ، أمـا علم الصوفيـة فـإنـه أسمى العلوم وأرفعهـا وأثبتهـا وأعلاها[28] مقاماً ولو أن الباحثين لا يعرفون عنه شيئاً .

وقد صرح المستشرق « هورجزونج » الهولندي : « إن التصوف الإسلامي مشتمل عـلى شيء من دولية الـدين[29] وهذا في تصـورنا إنمـا يعبر عن الشمـول الذي يتمتـع بـه

---

(27) أبو بكر بناني ـ مدارج السلوك إلى مالك الملوك ـ ص 12، 13 .

(28) د. عبد الحليم محمود ـ المدرسة الشاذلية وامامها ـ ص 339 وما بعدها

(29) د. محمد غلاب ـ هذا هو الإسلام ـ كتاب الشعب ـ ص 65 .

التشريع الإسلامي إذ يحوي الأديان السماوية الأخرى ويزيد عليها في منطق التطور إلى قيام الساعة .

ويبين الإمام بناني[30] طريقة حصول الغوث على العلم ، وذلك بالتدرج في صعوده في سلالم التوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والفقر ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والحمد ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ، وذكر عيوبها ، والقناعة ، والتوكل ، والشكر ، واليقين ، والصبر ، والمراقبة[31] .

فيصعد درجات[32] عديدة في الفناء والبقاء ، والصحو بعد الفناء ، وهذا أكمل من الأول ، لأنه مقام الأنبياء ووارثيهم من المرشدين المكملين ، وهناك مقامات في رحلة السالك بين المحو والصحو ،والسكر ، والذوق ، والقرب ، والستر والتجلي ، والمكاشفة والمشاهدة ، وحتى يصل إلى مقام المحبة[33] ، ومنها إلى المقامات الرفيعة كمقام الإصطفاء .

والقطب الغوث عند بعض العارفين يجيب على كل سؤال ، ويرد على كل استفسار ، ويتكلم بأكثر من لغة ، ويعرف كل جنس ، ولا يعلو عليه أحد من مريديه ، في سؤال أو جواب ، كما أن كثيراً من الأولياء الأحياء والأموات يشتركون مع القطب في بعض هذه الصفات ، ويتمتعون بالفراسات والتوسمات لصفاء قلوبهم ، فيلهمون بالحقائق إلهاماً ، فهم جواسيس القلوب ، والناظرون بنور الله تعالى .

ويقول الشعراني : « ولكن يوجد غيره أعلى منه في الدنيا ، ولكن لا يحمل لواء القطبانية لأنها لواحد فقط في الزمان والمكان[1] ، ومعنى ذلك أن رئيس الحكومة الباطنية وهو القطب الغوث وهو الحاكم بأمر إلهي ، ولكن هناك أعلم منه وهم المنفردون[2] ففوق كل ذي علم عليم .

والقطبانية ليست وراثية وإنما يختار الله الخليفة ، ولا يعلم به أحد ، لأن اختيار

---

(30) الامام أبو بكر بناني ـ مدارج السلوك إلى مالك الملوك بالهامش عقد الدرر واللآلىء ص 110
(31) راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف .
(32) الامام القشيري ـ الرسالة القشيرية ـ من ص 211 إلى ص 405 .
(33) راجع ألفاظ الصوفية للمؤلف .
(34) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ص 78 ـ 81 ـ جـ 2 .
(35) يذكر ذلك أيضاً الامام الغزالي وكذلك الحكيم الترمذي

القطب يتم بأمر إلهي ، فهو إذن منحة ربانية ، ومنة إلهية ، يخصها الله لبعض عباده الصالحين .

ويرى صاحب مدارج السلوك أن مرتبة القطب أعظم في الولاية من حيث المقام فقط لا من حيث العلم ، وإلا كان القطب هو أوحد أهل زمانه ولاية ومعرفة ومقاماً جميعاً ، وهذا معناه العصمة ، والعصمة لله وحده ، ولا يمكن أن يفردها الله لبشر .

وإنه لجدير بالذكر أن الصوفية يرون أن « الفرد » ؛ من طبقة المنفردين من الأولياء : ، ولو أنه خارج عن هيئة الحكومة الباطنية ، إلا أن مقامه عال ، بل ربما يزيد عن مقام القبطانية ، أو الغوثية ، وهذا ما يقرره الحكيم الترمذي ، وحجة الإسلام الإمام الغزالي .

ويستند الصوفية على وجود القطب ، أو الخليفة ، أو الإمام ـ وكلها مسميات بمعنى واحد عند أهل الطريق ـ على آيات قرآنية وردت في قوله تعالى : ﴿ **وإذا قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة** ﴾(البقرة : 30) ، وقوله تعالى : ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً** ﴾(البقرة : 124) .

الفصل الثالث

أعضاء الحكومة الباطنية

النائبان أو الامامان :

هما مساعدا القطب « الغوث »ونائباه في أمور الحكومة الباطنية ، ولهما وجود فعلي في الدنيا ، ويصح أن لا يعلم بهما أحد على الاطلاق . وهم اللذان يحفظ بهما الله عالم الغيب والشهادة ، وهو ما يدرك بالحس .

ويرى الشيخ بناني[1] أن النائبين من الأفراد ينوبان عن القطب في عالم الغيب ، حتى ينصرف القطب إلى عالم الشهادة ، الذي هو محل دعوة الرسول وإنزال الشرائع ، وأما ابن عربي[2] فيرى أن الله جعل منزل القطبية من الحضرة هو منزل السر ، وجعل الإمام الذي عن يسار القطب صاحب منزل الجلال ، والأنس ، وعنده صلاح العالم والبعدية ، وبيده المقاليد ، وهو السيد الطاهر ، وهو بمثابة سيف القطب .

ويرى صاحب روض الرياحين[3] أن ثلاثمائة هم الأولياء ، وسبعون هم النجباء ، وأربعون هم أوتاد الأرض ، وعشرة هم النقباء ، وسبعة هم العرفاء ، وثلاثة هم المختارون ، وواحد منهم هو الغوث رضي الله عنهم أجمعين .

وفي رأي الشيخ ابن عربي[4] أن الإمامين هما شخصان ، أحدهما عن يمين

(1) الشيخ محمد بنانبي ـ مدارج السلوك ص 34 .

(2) رسائل ابن عربي ـ منزل القطبية (دار احياء التراث العربي) .

(3) روض الرياحين ـ ص 16، 17 .

(4) رسائل ابن عربي ـ الفتوحات ـ للسفر الثاني ـ ص 100 .

الغـوث ، ونظره في الملكـوت ، والآخـر عن يسـاره ، ونـظره في الملك ، وهـو أعـلى من صاحبه ، وهو الذي يخلف الغوث .

الأوتاد :

ويـرى بعض أئمة الصـوفية أن الأوتـاد وهـم الـذين يحفظ الله بهم العـالم أربعـة لا خـامس لهم ، وهم أخص مـن الأبـدال ، والإمـام أخص منهـم ، والقـطب أخص الجماعة[5] ، والأوتاد أربعة في الكـون يمثلون عيسى وإدريس وموسى وهـارون ، والخضر عليهم السلام . وهـم وزراء الغوث[6] ومسـاعدوه في أمـور الحكومـة الباطنيـة ويحفظ الله بهم الجهات الأربع والجنوب والشمال والشرق والغرب .

ويذكر الشعراني[7] أن الآية الكريمة :

﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً** ﴾ (النبأ : 7) هي تأييـد لوجـود الأوتاد كما فسرها الشيخ محيي الدين بن عـربي ، ويرى أن الحكيم الـترمذي رضي الله عنـه كان من الأوتاد .

والأوتاد قد بلغوا ووصلوا وثبتت أقدامهم ومقـاماتهم ، أمـا الأبدال فـإنهم ينقلبون من حال إلى حال ، أي أن الأوتاد من أهل التمكين ، اما الأبدال فمن أهل التلوين .

ويذكر[8] أحد الباحثـين . أنه قـد ذكرت روايـات وأحاديث عن سيـدنا عمـر بن الخطاب وسيدنـا علي بن أبي طـالب رضي الله عنهما ، تشـير إلى وجود الابـدال بالشـام ، وأنهم ثلاثون ، ومرة ستون ومرة سبعون ، وأخرى غير محددين .

ويلاحظ من هذه الأحـاديث انها لم تذكـر غير الأبـدال أو البدلاء ولم يـذكر غـيرهم كـالأوتاد ، والنجبـاء والرقبـاء ، والنقباء إلا في آثـار أخرى ، عـلى انه يمكن أن نجمعهم جميعاً تحت لقب الأبدال بمعنى أنـه إذ مات واحـد منهم أبدل الله بـه غيره فسـواه أكان من الأبـدال أو الأوتاد أو النجبـاء أو الرقبـاء أو النقباء أو حتى وإن كـان قـطبـاً فهـو بـدل من الأبدال على أساس أنه من الأولياء ومن أعضاء الحكومة الباطنية .

والمهم أن اجتهاد أئمة الصـوفية في الـرأي واختلافهم في العـدد وأسماء الأوليـاء لا يؤثر في وجود هذه الحكومة وعدم وجودها لأنهم يجمعون على أن هناك دولة للأولياء .

(5) رسائل ابن عربي ـ (كتاب اصطلاح الصوفية) دار إحياء التراث العربي .

(6) محمد بناني مدراج السلوك بالهامش كتاب عقد الدرر واللالىء ص 166

(7) الشعراني للكبريت الأحمر ص 3 : 35 .

(8) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ص 52 الجزء الثاني (مجمع البحوث الإسلامية)

ويـرى الحكيم أن الأوتاد واحـد في اليمن ، وواحد في الشـام ، وواحد في المشرق وواحـد في المغرب ، والله سبحـانه يـدير القـطب في الآفاق الأربعـة ، من أرجاء الـدنيا كدوران الفلق في أفق السماء[9] .

الأبدال :

وهم أهل فضل[10] وكمال وإستقامـة وإعتدال ، تخلصـوا من الوهم والخيـال ولهم مظاهر أربعة : ـ

الصمت ، والجوع ، والسهر ، والعزلة[11] ، وكل ظاهر وباطن ، والأبـدال بعد الأوتاد الأربعة ، ويحفظ الله تعالى بهم الأقاليم السبعة ، والأبدال لا ينقصون ولا يزيدون كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

ويحفظ الله تعالى بالقطب الغوث كل هؤلاء[12] ـ وقد سموا البدلاء لأن البـدل إذا ما فارق مكان خلفه فيه شخص آخر ، على صورته ، ولا يشك الـراقي أنه البـدل ويرى أئمة الصوفية أن ترتيب الأبدال ، كترتيب السمٰوات السبع ، بحيث يكـون ارتباط الأول بـالسماء السـابعة ، عـلى الوجـه الذي سنـوضحه بعـد ، ولقد حـج رجل من أصحـاب سهـل ، فلما رجع ، قـال لأخيه أنـه رأى سهلاً « بعـرفة » وحلف بـالطلاق عـلى ذلك ، فذهبا لسهل وسألاه عن حكم اليمين ، فقال سهل : « ما لكم بهذا من حاجـة فاشتغلوا بالله وقال للحالف : « امسك عليك زوجك ولا تخبر بذلك أحداً »[13] .

ويروى عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنـه قال : « البـدلاء بالشـام ، والنجبـاء بمصر ، والعصائب بـالعراق ، والنقبـاء بخراسـان ، والأوتاد بسـائر الأرض ، ويحكى عن الشيخ المتوفي أن رجلاً أقسم أنه رآه بعرفة فقال له الناس : « الشيخ مـا يزال في مكانه » فخرج وأشار إليه بالسكوت .

وينقل عن يحيى بن معاذ الرازي قوله : « إذا رأيت الرجل يعمل الـطيبات فـاعلم أن طريقه التقوى ، وإذا رأيته يحدث بآيات الله فاعلم أنه على طريق الأبدال » .

---

(9) د عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ 2 ص 52 .

(10) الأستاذ أحمد ضياء الدين ـ جامع الأصول ن 1114 والمكتبية البلدية

(11) راجع كتاب ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف .

(12) د. أبو العلا العفيفي ـ التصوف الإسلامي ـ ص 30 وبالهامش .

(13) مدارج الحقيقة ص 50 ـ 51 .

ويرى الدكتور أبو العلاء عفيفي أن الأبدال هم صنف من أصناف الصوفية على رأسهم القطب ، ويرى نقلاً عن ابن خلدون أن فكرة الأبدال مأخوذة عن فكرة النقباء عند الشيعة ، وفي تصورنا أن طريق الصوفية هو طريق أهل السنة وأن الشيعة أئما يعتبرون من الباطنية .

ويدافع الإمام السيوطي عن الصوفية فيقول[14] وقد أنكر عليهم ـ بقصد أهل الحق ـ بعض العلماء ذكر الأبدال ، والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، بزعم انه لا أصل لذلك في الحديث . ويرد السيوطي على هذا الزعم قائلاً : « لقد وردت الأحاديث والآثار بذلك ، وقد جمعتها في كتابي الخبر الدال » . كما يذكر صاحب نفحات القرب الإمام الحموي أن الروح إذا كانت كلية كروح الرسول ﷺ ربما تظهر في صورة سبعين ألف صورة .

وينقل الشيخ أحمد حجاب عن الشيخ حسن أبو علي أنه كان كثير التطور تدخل عليه فتجده جندياً ، وأحياناً تجده صبياً ، وأحياناً تجده سبعاً أو فيلاً ، ويستشهد بما قاله الشعراني في ترجمة الشيخ حسن أبو علي[15] كما يروي الإمام في « المنجلي في تطور الولي » :

سألني رجل حلف بالطلاق أن العارف بالله الطشطوطي بات عنده ليلة كذا ، فحلف صديقاً له بالطلاق أنه بات عنده في نفس الليلة ، فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا ؟ فأرسلت إلى شيخ عبد القادر الطشطوطي أسأله في هذا فقال : « لو قال أربعة أني بت عندهم لصدقوا . « فأفتيت بأنه لا يحنث واحد منهما » .

ويجمع أئمة[16] الصوفية على امكان تعدد صور الولي من الأبدال وحاصل رأيهم يتركز في أمور ثلاث ، أحدهما أنه من باب خرق العادات ، كطي المكان وزوي الأرض من غير تعدد فيراه الرائيان كل في بيته وهي بقعة واحدة إلا أن الله طوى الأرض ورفع الحجب المانعة من الاستطراق فظن أنه في مكانين وإنما هو في مكان واحد ، والثالث أنه من باب عظم جثة الولي بحيث ملأ الكون ، فشوهد في كل مكان ، كما قرر ذلك بشأن ملك الموت ومنكر ونكير حيث يقبض من مات في الشرق والغرب في ساعة واحدة .

(14) السيوطي ـ تأييد الحقيقة العلية ـ ص 89 .
(15) الشيخ أحمد حجاب ـ العظة والاعتبار ـ ص 41 وما بعدها . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
(16) العارف بالله إبراهيم حلمي القادري ـ مدارج الحقيقة ص 48 ـ 49

والمعروف أن من خصائص هذه الفئة من الأولياء أن الصورة التي يتمثلون بها لا تحكم عليهم بها ، بمعنى انك لو أحدثت في الصورة الممثلة مثلاً أو ضرباً أو حبساً أو أي ضرر آخر لم يظهر لذلك أثر في الصورة الأصلية ، ومثل ذلك التمثيل الحسي الذي يرى بالبصر ، التمثيل المعنوي الذي يكون في النائم فإنه لو تم تصور ذلك في المنام بذاته وصفاته وضربته بسكين فسال منه دمه فإن هذا لا يؤثر في عدوك الحقيقي أي تأثير - ويرى إنه لما كانت روح سيدنا عيسى علوية ملائكية مشرقة بالأنوار الإلهية ، كانت أقدر على التمثيل من أرواح الأولياء .

وينقل لنا صاحب مدارج السلوك عن ابن عربي في كتابه رحلة الأبدال انه قال[17] :

يا من أراد مغازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن بها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتدال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالي

الأبدال وقلوب الأنبياء[18] :

البدل الأول : يحكم الأقليم الأول للسماء السابعة على قلب الخليل عليه السلام .

البدل الثاني : يحكم الأقليم الثاني للسماء السادسة على قلب موسى عليه السلام .

البدل الثالث : يحكم الأقليم الثالث للسماء الخامسة على قلب هارون ويحيى عليهما السلام .

البدل الرابع : يحكم الأقليم الرابع للسماء الرابعة على قلب أدريس عليه السلام .

البدل الخامس : يحكم الأقليم الخامس للسماء الثالثة على قلب يوسف عليه السلام .

البدل السادس : يحكم الأقليم السادس للسماء الثانية على قلب عيسى عليه السلام .

---

(17) مدارج السلوك - ص 21 .

(18) ابن عربي - الفتوحات المكية ص 370 - 376 السطر الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب 1970 .

البدل السابع : يحكم الأقليم السابع للسماء الأولى على قلب آدم عليه السلام .

ويقول الشعراني[19] . « انه تنزل عليهم العلوم (أي الأبدال) لكل يوم علم ، من رقائق على قلب من هؤلاء ـ ويلي هؤلاء في المقام ، النجباء ، والرجباء ، والنقباء ، وأهل الغيب ، وأهل النجدة ، وغيرهم وكل منهم ينظم عملاً في الحكومة الباطنية ويستهدف رسالة فيها . ويروي لنا صاحب روض الرياحين[20] عن الخضر عليه السلام أنه قال : « ثلاثمائة من الأولياء ، وسبعون هم النجباء ، وأربعون هم أوتاد الأرض وعشرة هم النقباء ، وسبعة هم العرفاء ، وثلاثة هم المختارون وواحد منهم هو القطب الغوث الفرد .

ويقول العارف بالله إبراهيم حلمي القادري : « أقام الله لجبريل عليه السلام شبحاً آخر غير جسمه الأول الذي يسد الأفق وهو في شخص دحية لما تراءى للرسول ﷺ وكذلك خص الله الأنبياء بالمعجزات كإحياء الموتى ، وقلب العصا ثعباناً فلا يمتنع أن يخص الله الأولياء بالتصرف في بدنين وأكثر من ذلك .

ويحكى عن الجنيد قوله[21] : « حضرت أملاك بعض الأبدال من الرجباء ببعض الأبدال من النساء ، فما كان في جماعة من حضر أحد إلا وضرب بيده إلى الهواء ، وأخذ شيئاً فطرحه من درر وياقوت وما أشبهه ذلك » فقال الجنيد : « فضربت بيدي فأخذت زعفراناً فطرحته » فقال لي الخضر عليه السلام : « ليس في الجماعة من أهدى ومن يصلح للعرش غيرك » . وهذا رمز لمقامه العالي وقربته من الله عز وجل ، ولذلك يعتبر الصوفية أن الإمام الجنيد هو شيخ الطائفة بلا منازع .

الأبدال والتجسد الروحي :

يحاول بعض العلماء أن يعبر العالم المادي ، ليستجل خفايا عالم الروح ونعرض هنا لبعض هذه المحاولات ، فقد قام بعض علماء الروح في العصر الحديث[22] بعمل تجارب عديدة لتجسيد الأرواح ـ ونضرب لذلك مثلاً بالتجربة التالية : ـ

« طلب بعض الباحثين الروحيين أن يقوم أحد القادرين على عملية الطرح

(19) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ جـ 2 ص 82 .

(20) اليافعي ـ روض الرياحين في حكايات الصالحين ص 172 وما بعدها . مكتبة البابي .

(21) المرجع السابق ص 46 .

(22) أحمد فهمي أبو الخير ـ الحياة بعد الموت ـ ص 124 وما بعدها .

الاختياري الواعي بطرح روحه ليحضر بها احدى جلسات التجسد ، وفعلاً عمل على أن تتجسد روحه هناك فيكون له جسد مادي ، .مؤقت غير الجسد العادي الذي يظهر به ، ويكون لهذا الجسد الثاني الجديد المؤقت نفس مميزات الجسد القديم من حيث الشكل والتكوين ، وفعلاً طرحت سيدة روحها طرحاً اختيارياً واعياً ثم جسدت روحها ، وبعد اتفاق سابق في جلسة لتحضير الأرواح إنعقد إجتماع في مكان يبعد عدة مئات الأميال عن مقر هذه السيدة .

وهناك طلب إلى هذه السيدة أن تظهر في دائرة إحدى السيدات الروحانيات التي تقوم بتجارب الصوت المباشر ، ثم طلب إليها أيضاً أن تظهر في دائرة سيدة أخرى كانت تجري تجارب على التجسد في مساء نفس اليوم .

والغريب أنها قامت بهذه التجربة بنجاح ولم تتخذ أي استعداد إلا تناول طعام سهل الهضم ، ثم طحرت نفسها في الميعاد المحدد من بدنها واتجهت صوب مقر دائرة السيدة الأولى للصوت المباشر فلما وصلت إلى هناك رأت السيدة المذكورة وزوجها ، ورجلاً لا تعرفه ووصفتهما وصفاً دقيقاً ، وكذلك تجسدت في الدائرة الثانية كما تجسدت في الأولى .

وقد لمس ذلك كل الذين قاموا بالتجربة والذين حضروا هذه الجلسات يؤكدون صدقها وهم من كبار الأطباء والعلماء من أمريكا وانجلترا .

والذي يهمنا[23] في هذه التجربة وغيرها أنها تتم بمساعدة بعض الأرواح ، وأن أصحاب هذه التجارب ينظمون غرفة عمليات كاملة ، فمنهم صاحب البوق ، ومنهم الكيمائي ، ومنهم المتحدث من العالم الأثيري ، وسنتكلم عن ذلك تفصيلاً فيما بعد .

لكن المهم أن هناك ارتباطاً شكلياً بين العلم الصوفي ، والعلم الروحي ، وهذه العلاقة تظهر في أن هناك عالماً غير عالنا هذا كما أن اثباته تدعمه التجارب وأن الأقطاب والأبدال وغيرهم يتمتعون بخوارق العادات ، وقلب الأعيان ويأخذون علمهم من الكتاب والسنة ، وإذا كان أصحاب العلم الروحي الذين يقيمون هذه التجارب بقصد الوصول إلى منافع مادية قد صدفت تجاربهم بعض النجاحات ، فإن الأولياء أولى بالتصديق منهم جميعاً لأنهم لا يقصدون غير وجه الله .

---

(23) جيمس فندلاي ـ على حافة العالم الأثيري 71 ـ 89 .

ولا يخفى أن من العلماء أناس صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأنهم يحملون قلوباً طاهرة ونفوساً خيرة وعقولاً نيِّرة ، وفوق ذلك مؤمنون طاهرون ، فلا غرو أن يتمتعوا ببعض المبشرات كما يمكن أن يكون لديهم جلاء سمعي وبصري ، وقدرة على استخدام الأرواح في العالم الأثيري والتكلم بألسنتهم وحناجرهم وعقولهم ، ولكننا لا نتصور أن يهبطوا إلى مستوى التجارب المعملية للوصول إلى مظاهر نفعية لإثبات شيء فوق مادي بل وفوق عقلاني ، وأغلب الظن أن الذين يقومون بهذه التجارب أناس يسيرون مع الهوى وغلبه حظوظ النفس بل وشهواتها عليهم .

وإذا كانت بعض هذه التجارب التي صورت بعض الأرواح الأثيرية وتم كثير منها وفق أدق الظروف الموضوعية لإستبعاد الشك وتقرير الوقائع كما سبق الإشارة ـ فإننا لا نستطيع إلا أن نسلم بإمكانية الانتقال بالطريق غير المتبع عرفاً وعادة من مكان إلى مكان متى تم ذلك عن طريق إنسان مؤمن صادق له بعض الميزات الأخلاقية بل والشفافية المطلوبة وطهارة القلب والاخلاص والطاعة لله ، إلا أننا لا نشك في أن الطريق والهدف والغاية ليس واحداً بين الصوفية وعلماء الروح ، كما أن الوسائل جد مختلفة ، وفي تصورنا أن ما يظهر لعلماء الروح إنما يكون من باب المخادعات وليس من الكرامات ولذلك يقول الكلاباذي في التعرف : أن للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات .

الرقباء والنجباء :

ذكر سيدنا علي كرم الله وجهه حديثاً عن الرسول ﷺ قال : « ان كل نبي أعطي سبعة نجباء رفقاء ، أو قال رقباء ، وأعطيت أنا أربعة عشر ، فقلت : من هم ؟ قال أنا وابناي ، وجعفر ، وحمزة ، وأبو بكر ، وعمر ، ومصعب بن عمير ، وبلال ، وسلمان ، وعمار ، وعبد اللهبن مسعود » . وقال ﷺ لم يكن قبلي نبي إلا أعطي سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، واني أعطيت أربعة عشر : « حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلي والحسن والحسين (سبعة من قريش) وابن مسعود وعمار وحذيفة وأبو ذر المقداد وبلال » . ولم يستكمل الترمذي الأربعة عشرة في حديثه[24] .

ويرى الشيخ محيي الدين بن عربي في كتاب اصطلاح الصوفية أن النجباء هم

---

(24) الطبري : الرياض النصرة في مناقب العشرة ـ ولم نجد هذا الحديث الا عند اليافعي والسيوطي ص 34 حـ 1 .

أربعون نجيباً مشغولون جميعاً بحمل أثقال الخلق فلا يتصرفون إلا في حق الغير .

النقباء :

وهم اثنا عشر نقيباً في كل[25] زمان ولا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الأثني عشر ، وكل نقيب عالم بخاصية كل برج بما أودع الله فيه من الأسرار ، ويرى الشيخ محيي الدين بن عربي أن النقباء قد استخرجوا خبايا النفوس .

الرجباء :

الرجباء هم ثمانية في كل[26] زمان ومكان لا يزيدون ولا ينقصون ، وهم الذين تبدو عليهم علامات القبول وأحواله ، وهم وإن كانوا كذلك فليس لهم اختيار في الحال الذي يكونون عليه ولا يعرف حالهم من كان فوقهم ولا من دونهم وهم أصل الصفات السبع المشهورة والإدراك هو الثامن .

ويروى صاحب روض الرياحين عن سيدنا علي بن أبي طالب أنه قال :

« البدلاء بالشام والنجباء بمصر ، والعصائب بالعراق ، والنقباء بخراسان والأوتاد بسائر الأرض ، والخضر عليه السلام بسائر الأرض » .

وقد قال بعض العارفين : « الصالحون كثير ، يخالطون العوام لصلاح الناس دينهم ودنياهم ، والنجباء في العدد أقل منهم ، والنقباء أقل منهم ، وهم يخالطون للخواص ، والأبدال وفي العدد أقل منهم لا يكون منهم في مصر إلا الواحد بعد الواحد . . وقال : بعض العارفين : أن عدد النجباء ثلاثمائة والنقباء أربعون والبدلاء ثلاثون وقيل أربعة عشر وقيل سبعة وقيل أن الأوتاد أربعة » .

ويروي ابن تيمية أن الأسماء الدائرة على السنة كثيرمن النساك والعامة مثل الغوث الذي بمكة ، والأوتاد الأربعة ، والأقطاب السبعة ، والأبدال الأربعون والنجباء الثلاثمائة، ليست موجودة بكتاب الله ولا مأثورة عن النبي ﷺ لا بإسناد سليم صحيح أو ضعيف كألفاظ الأبدال . فقد روى عنهم ابن تيمية حديثاً شامياً منقطع الإسناد عن علي كرم الله وجهه مرفوع عن النبي ﷺ ، ومن هنا لا يعتقد ابن تيمية في وجود الأبدال .

ولكن صاحب روض الرياحين يورد نصوصاً من الآيات القرآنية والآحاديث

(25) د الشيبي مصطفى ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص 457/465 دار المعارف .

(26) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ص 3 .

المنسوبة إلى النبي ﷺ . منها : -

من[27] عادى ولياً فقد أمرته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، وإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وان سألني أعطيته ، ولئن أعاذني لأعزته . ومنها الآية الكريمة : ﴿ **أولئك مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ (النساء : 69) .

وقال تعالى : **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم وهم يحزنون** ﴾ (يونس : 62) .

وقال تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (يونس : 64) .

وقال سبحانه : ﴿ **ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلاً** ﴾ (الاسراء : 65) .

وقال تعالى ؛ ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله اناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ (آل عمران : 113) .

وهذا إثبات لوجود الولاية الروحية ، وإنما الاختلاف في تفصيل المقامات ، والأحوال ، وفي عدد الأولياء ، في كل مقام من مقامات الولاية الروحية ، ولقد اتفق جميع مشايخ الطرق الصوفية على أن الأولياء في الزمن الواحد ثلاثمائة لا ينقصون ولا يزيدون ، وإن على رأسهم الغوث ، ولقد أيدت الأحاديث عن النبي ﷺ وعن سيدنا علي بن أبي طالب وجود البدلاء وإن اختلفت الأحاديث والروايات في عددهم .

ويقول : الجنيد رحمه الله « فألهمت أن مرتبة سرى السقطى أعلى من مرتبتي ، لأنه كان على علم بأسرار نفسي ، فذهبت إليه ، وطلبت العفو ، وسألته كيف عرف إنني رأيت النبي في المنام » فقال : « آنني رأيت الله في المنام فأخبرني أنه أرسل إليك رسول الله ليأمرك بالخروج إلى الوعظ » ، ويعلق الهجوري على هذه القصة بقوله :

« إن فيها شاهداً على أن المشايخ على علم دائم بالأحوال الباطنية عند مريديهم[28] .

---

(27) روض الرياحين ص 9 إلى 17 وهذا الحديث ذكره الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في مشكاة الأنوار والسيوطي في الجامع الصغير .

(28) نيكلسون ـ في التصوف الإسلامي وتاريخه ـ ص 163 ـ 164 تعليق الدكتور محمد أبو العلا عميفي

الباب الثالث

مفهوم القانون في الحكومة الباطنية

يشتمل هذا الباب على فصول خمسة هي : -

الفصل الأول : مصادر التشريع في الحكومة الباطنية .

الفصل الثاني : دستور الحكومة الباطنية .

الفصل الثالث : صدور الأوامر والأحكام .

الفصل الرابع : مجالس الحكومة الباطنية .

الفصل الخامس : محاكم الأولياء .

الفصل الأول

مصادر التشريع في الحكومة الباطنية

المعروف أن القانون بالمفهوم العام هو مجموع القواعد الملزمة التي تحكم سلوك الأفراد في المجتمع ، والقانون يقيم نظام المجتمع ويحكم علاقات الأفراد فيه وذلك عن طريق فرض تكاليف وواجبات وتقرير حقوق لهم من ناحية ثانية .

ويرى بعض الباحثين أن قواعد القانون تختلف عن قواعد الأخلاق[1] في الهدف والغاية ، فالأخلاق إنما يقتصر دورها على مجرد بيان الواجبات ، أما القانون فإنه يحدد قواعد النظام العام والآداب ، وهي قواعد آمرة لا يجوز مخالفتها أو الوقوف في سبيل عدم سريانها احتجاجاً بحق مكتسب أو خلافه .

كذلك[2] الحال في الدولة الباطنية فإن مخالفة أو عدم احترام قواعد الطريق يعد من السالك خروجاً عن النظام العام وآداب الطريق، ويترتب عليه توقيع الجزاء على المخالف وهو غالباً ما يكون انتكاساً ، أو تنزيلاً ، في المقام أو المرتبة أو طرداً من الولاية أو نفياً أو سلباً أو جذباً ، ويكون الجزاء فورياً في صورة إبتلاء من الله ، أو حجاب يحجب به الولي عن الأسرار والحقائق والمغيبات والمنن والعطايا والهبات .

ومعنى ذلك أن الطريق الصوفي ليس نظاماً أخلاقياً فحسب بل هو تقنيناً دقيقاً لخط سير السالك وقواعد عامة لا يمكن مخالفتها وإلا وقع المخالف تحت طائلة الجزاء ، وإذا

(1) د. حسن كيره ـ المدخل في القانون ص 230 ، 241 سنة 1954 دار نشر الثقافة

(2) عبد الوهاب الشعراني ـ الكبريت الأحمر ص 148 جـ 1

كانت قواعد القانون تحكم فقط على الوقائع الظاهرة « فإن القانون في الحكومة الباطنية يهتم بالظاهر والباطن معاً .

ولا يخفى أن تشريع دولة الباطن لم يضعه فقهاء الصوفية أو أقطابهم ، وإنما وضعه الشارع الأعظم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وأوضحه تعالى في سنة نبيه ورسوله ﷺ . الموحى إليه بالرسالة ، لذلك فإن هذا التشريع غير قابل للاجتهاد وليس عرضة للتغير وأن مخالفة ما أمر به الله معناه الخروج عن الدين والانتكاس والتلف .

ويؤيد ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي(3) في قوله : « أنه ما بقي للأولياء إلا وحي الإلهام على لسان ملك الإلهام فيعلمهم بصحة حديث نبوي قيل أنه ضعيف أو عكس ذلك وذلك عن طريق الإلهام أو الرؤية أما خلاف ذلك فهو الحق المتبع ولا يجوز تبديل كلمات الله .

وخلاصة القول أنه لا تشريع من الأولياء إلا وحي الإلهام الذي يتم إما بطريق الصوت أو الصورة فقط ، فإذا رأى ملك الإلهام فإن الولي لا يسمع له صوتاً ، وإذا سمع الولي صوتاً لا يرى صاحبه ، ووحي الإلهام هو دليل الصالحين ، إذ هو تجل وكشف إلهي لشرح حقيقة أو لفهم دقيقة أو الاعلام برقيقة أو تلطف من الله بلطيفة على قلب عبده الشاكر .

ويختلف التشريع إذن في دولة الباطن عنه في القوانين والتشريعات المدنية في أي مجتمع ، إذ أن الأخيرة صادرة عن عقائد وتقاليد دينية وأخلاقية اتفقت عليها الجماعة أو نتيجة تيارات أخلاقية جارية في المجتمع وبذلك لا يمكن أن تكون ثابتة فهي قابلة أبداً للتغيير والتبديل في الزمان والمكان وفي الآثار المترتبة على تطبيقها بل عرضة للإضافات والتعديلات وإنه يمكن القول أن بعض هذه القوانين المطبقة حالياً يمكن أن تكون مستحدثة وبعضها ممكن أن تكون قديمة ، فما هو قديم منها ممكن أن يكون حديثاً ، كما أن ما هو حديث ممكن أن يكون قديماً .

أما تشريع دولة الباطن فبعيد عن الحس(4) الظاهري الذي دائماً يخطىء ويتغير لذلك فإننا نرى أن مصدر تشريع أهل الباطن مأخوذ من صاحب الشرع المنزل ، والشريعة الإسلامية عندهم هي الأساس ، وهي أولى الدرجات للوصول إلى الحقيقة

(3) الكبريت الأحمر ص 83 ، 87 الجزء الثاني .

(4) الكبريت الأحمر ـ ص 12 ، 18 جـ 1 هامش الطبقات الكبرى .

فـأي إعتراض أو مخـالفة معنـاه الخروج عن الشريعـة الغراء ومن ثم الـوقوع فيـما يسمى بالالتباس والانتكاس والتلف .

والمعروف أن جميع فقهاء الباطن قد درسوا أحكام الشريعة ثم انطلقوا إلى الاجتهاد في الطريقة وذلك ، عن طريق الالهام والكشف . والطريقة هي السلوك العملي في تطبيق الشريعة ولذلك فإن البدايات بـين أعضاء الحكـومة من الأوليـاء فيما يتعلق بـالمجاهـدات والرياضات مختلفة أما الطريق فواحد .

ولقـد كان سيـدي عبد القـادر[5] الجيلاني دارساً للشريعة عـلى المذهب الحنبـلي ، وآخذاً الطريق عن أبي حامد الغزالي ، وجاهد حتى وصل إلى مرتبة الغوثية ، ومعنى ذلك أنه اختار فقه الجوارح أو فقه الظاهر عن المذهب الحنبلي ، أما فقه القلوب أو فقه الأعـمال فأخذه عن الإمام الغزالي .

وقد كان الإمام أبو حنبل[6] نفسه يسـأل أبا حمـزة البغدادي الصـوفي عندمـا يأتيـه سؤالاً يتعلق بالصوفية ويقول له : « ماذا تقول في هذا يا صوفي ؟ » . ذلك لأن العالم غير العـارف فـالعـالم يخـطيء ويصيب عن طـريق الحس ولكن العـارف جـاوز منـطق الحس وأصبحت علومه وهبية إلهامية لا تحتمل الخطأ .

وينقل الدكتور[7] مصطفى حلمي عن سيـدي إبراهيم الـدسوقي قـوله : « من لم يكن متشرعاً متحققاً نظيفاً عفيفـاً شريفاً فليس من أولادي ولـو كان ابني لصلبي » ذلـك لأن هوى النفس وحظوظها وشهواتها تبعد المريد عن طـريق الحقيقة وتضـع حجابـاً كثيفاً أمامه يعوق الفتح والكشف والتجلي الإلهي .

فـالقانـون عندهم تـتركز دعـائمه عـلى أحكام الشريعـة الإسلاميـة ثم أنهم يبنون دولتهم الباطنية على هذه الأحكام ومن أخل بها فيعتبر خارجاً عن دولتهم ذلـك لأن العبرة في الإخلاص والطاعة والإيمان والتوبة بعد التوحيد .

فالخروج عـلى قانـون دولة البـاطن يعد خـروجاً عن التشريـع الإلهي وبالتـالي عن قواعد الحكومة الباطنية ، وعن تعاليمها وعن آدابها ، بل يعـد خروجـاً عن الأخلاقيـات التي لها المقام الأول في نـظام دولتهم . . . ويترتب عـلى ذلك انتكـاس المريـد المبتدىء أو

---

(5) الطبقات الكبرى ص 109 جـ 1 .

(6) د . مصطفى حلمي : ابن الفارض ص 103 (أعلام العرب 16) وزارة الثقافة والارشاد .

(7) د . مصطفى حلمي ـ ابن الفارض ص 103 وما بعدها .

تنزيلاً في مقامه أو طرداً من الحكومة الباطنية ، وذلك حسب نوع الخطأ ومدى تأثيره على بناء ونظام الحكومة ومخالفته لأحكامها والأضرار التي نتجت عن تلك المخالفة .

إلا أن أهم شيء عند الحكومة الباطنية هو حساب النية ، وذلك عكس دولة الظاهر التي تعتمد على الوقائع المادية الملموسة .

فالطاعة مثلاً ظاهرة وباطنة ، لكن طاعة القانون ظاهرياً لا توجب عقاباً في الحكومة المدنية حتى لو لم يكن الشخص مؤمناً بما يفعله .

أما في الحكومة الباطنية فالطاعة الظاهرة ليست بالضرورة هي أساس الحكم على الأعمال والتصرفات ، ذلك لأن هناك بعض الناس يؤدون الفرائض والتكاليف والواجبات وكل أنواع الطاعات حباً في التملق أو الرياء للناس ، أو لكسب مودتهم وثنائهم ومدحهم لهم ، أما قلوبهم فخاوية من الصدق ونفوسهم عاصية ليس فيها إخلاص ولا طاعة ، وتظهر أخلاقهم السيئة عند امتحانهم ، فإذا لم يشكروا على دعوى صلاحهم هددوا وتوعدوا الناس بالبلاء المنتظر أو صبوا لعناتهم وأخافوهم بدعوى أنهم أولياء لله ، وأن دعواهم عند الله مقبولة وهؤلاء هم أصحاب الشرك الخفي الذين يبطنون غير ما يظهرون ، لذلك فإن حسابهم عسير وأنهم لا يمكن بل يستحيل أن يكونوا من الأولياء أو ينتمون إلى أهل الحق أعضاء الحكومة الباطنية .

الفصل الثاني

دستور الحكومة الباطنية

إن قـواعد دولـة الباطن تقـوم أساسـاً على كـونها آمـرة ، بمعنى أنها قـواعد لا يمكن الاخلال بها مهما كانت الظروف دون اعتداد بـالأشخاص التي تـطبق عليهم ومهما كـانت درجاتهم أو مقاماتهم أو مراتبهم في الـولاية ، لأن هـذه القواعـد إنما صـادرة عن التشريع الإلهي ومن ثم لا يمكن مخالفتها بـدعوى ظـاهريـة ، إذ أن الأساس فيهـا طهارة البـاطن والاخلاص والطاعة لله مع كونها لا تخالف الشريعة الظاهرة

لذلك فإن الخروج على هذه القواعد يـترتب عليه الجـزاء المقرر للمخـالف ، وهذا الجزاء يكون عادلاً في كل الظروف لأنه مأخوذ من أحكام القرآن والسنة على أسـاس قول رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى »[1] .

والمقرر في القوانين الوضعية أنها تفرق بين القواعد الآمرة والقواعد المفسرة ، عـلى أساس أن القاعدة الآمرة تتضمن تصريحاً بصفتها آمـرة بالنص عـلى كل اتفـاق مخالـف أو بفـرض عقوبـة على مخـالفتها ، في حـين أن القاعـدة المفسرة أو المكملة تنص على إجـازة الاتفاق على عكسها .

ويؤيـد وجود قـواعد آمـرة ، وقواعـد مفسرة ، في دولـة الصـوفيـة مـا ذهـب إليـه نيكلسـون ويقصد إليه في قوله : « وفي الطريقة ويقصد بها الطريق الصـوفي لم يكن يوجـد مكـان للتفكير العقـلي المدرسي أمـا الاجتهاد فكـان مسموحـاً به ولكن في حـدود أحكـام القـرآن والسنة » .

---

(1) حديث عن الفاروق عمر ذكره الدارقطني وورد في الحلية لأبي نعيم، كما أخرجه العطار عن أبي هريـرة، وذكره أيضاً السيوطي في الجامع الصغير .

وهذا يوضح لنا أن أحكام القرآن والسنة هي قواعد آمرة ، وأن الاجتهاد المؤسس عليها هو المقبول لدى أصحاب الطرق وشيوخها ويشارك Joseph Schacht[2] في هذا الرأي عندما صرح بأن غاية القانون الإسلامي منح مفاهيم لكنه لا يضع قواعد قانونية في ملهى المصالح كما هو الحال بالنسبة لأهداف القوانين المدرسية ، ولذلك فإنه يرى أن القانون الإسلامي يقود إلى نوع من النتائج مختلفة عن القوانين الوضعية ويضرب لذلك مثلاً بالاعتقاد الصادق Good faith فالصدق والعدالة والحقيقة تلعب جميعها دوراً مستقلاً في النظام الإسلامي ، فدستور الحكومة الباطنية أساسه المعرفة أو يمكن القول العرفان الصوفي ، فالعارف هو من سلك الطريقة فيطبق علمه على مسلكه ، وليس هو الذي يتعلم للمراء والقيل والقال دون تحقيق الحال لأن العلم حياة والجهل ممات[3] .

ونجد تأييداً لذلك الرأي ما ذهب إليه نيكلسون في أن التصوف أصبح رويداً رويداً حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء ، لها قواعدها وأنظمتها من حيث سيرة المريدين وأخلاقهم وعبادتهم ، وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق على أستاذه ، ويخضع لارشاد هذا الأستاذ خضوعاً أعمى ، وإذا كان دستور الحكومة الظاهرة يخضع له كل مواطن يتمتع بالأهلية الكاملة فحسب ، فإن دستور الحكومة الباطنية يشترط في المريد التوبة[4] الظاهرة والباطنة قبل انخراطه في الطريق .

ويؤيد نيكلسون[5] رأيه بما روى عن أبي يزيد البسطامي « من لم يكن له أستاذ فالشيطان أستاذه » . وقول ذا النون المصري الذي قرر بأن طاعة المريد لأستاذه أولى من طاعته لربه ، ذلك لأن الشيخ المربى قد حظى بالحقائق الذوقية وتغلب على غواية الشيطان ، وهوى النفس فهو عارف بالخواطر الشيطانية والملائكية ، ومن ثم قادر على قيادة قلب مريده ، وتسليكه من براثن النفس الامارة وحظوظها .

ولقد قسم الصوفية في القرن الثالث قواعد الطريق الصوفي إلى سلسلة من المراحل ، سيأتي ذكرها في مكان آخر .

ويبين لنا الحكيم الترمذي التلاحم بين العلم والعمل ، وأن كلا منهما مرتبط بالآخر ، وأن كل خطوة يخطوها العبد في طريق الولاية هي في نفس الوقت خطوة يخطوها

---

(2) **Joseph Schacht. An Introduction to Aslaniclaw okoord press. 1964.**

(3) الشيخ أبو المواهب ـ قوانين حكم الاشراق ص 51 ـ 57

(4) راجع التوبة في كتاب المؤلف ـ ألفاظ الصوفية ومعانيها

(5) د. أبو العلا عفيفي التصوف الإسلامي

في درجات المعرفة ، لأن هناك فرق بين العلم الكسبي الذي يقوم على التحصيل والتلقين وبين المعرفة التي هي مجاوزة العلم النظري إلى السلوك العملي . والمعرفة علاوة على أنها فوق موقف الصدق والكذب[6] فإن العارف يخاف سوء التقدير رغم علمه الذي لا يشوبه الاغترار ، وإنما إذا شكر الله اعترف بعجزه وقلة حيلته .

ويعطى الحكيم علامات[7] وموازين يقيس بها المرة قدر عمله ومن ثم قدر معرفته ، فينظر إلى ما يرجع إلى قلبه من الزيادة ، فيرى المرء إذا قام بأعمال البر ، ظهور حرارة من نور القلب ناتجة من نور التوحيد ، وعلامتها أن يزيده الله علماً كلما إزداد القلب نوراً ، أما إذا صدرت تلك الحرارة من الجوف أو من قبل النفس فتلك تربية للهوى ، وعلامتها إزدياد النشاط لذلك العمل ، عندئذ يعلم المرء أنه ترك الطريق ، وأن عليه أن يحذر من آفات نفسه الخفية التي تحيط أعماله وتطفىء أنواره .

فالعمل الصالح يعرف ، والعمل الطالح يعرف ، والإنسان نفسه هو الحكم على أعماله ، فيعرف نفسه إذا كانت في طريق الله تسير ، أو في طريق الشهوات تمضي ، أو مع الشيطان تنقاد ، فاكتساب المعرفة تجربة ذوقية يعيشها الإنسان ونجاحها معناه أن الإنسان يمضي في طريق أهل الحق ويصعد إلى درجات أعلى ومقامات أسمى .

فعلاوة على وجود تعاليم موضوعية للسالك في الطريق ، فهناك أخلاقيات السالك وفي هذا المعنى يقول أبو الحسن النوري[8] .

« ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ، ولكنه أخلاق » .

ويبين أبو حفص النيسابوري تعاليم وأخلاق الصوفية فيقول : « التصوف كله آداب ، ولكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات ، بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول » .

لذلك نجد ذا النون المصري[9] يحث المريدين على الاخلاص والطاعة فينصح مريديه ويقول لهم :

---

(6) حكم الاشراق ص 50 ـ 57

(7) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي جـ 2 ص 305 ـ 306 .

(8) الامام المناوي ـ طبقات الصوفية ص 28، 38 .

(9) راجع كتاب المؤلف «التوبة» ألفاظ الصوفية

« يـا معشر المريـدين ، من أراد منكم الـطريق ، فليلق العلماء بـالجهـل والـزهـاد بالرهبة ، وأهل المعرفة بالصمت » .

دستـور الحكومـة الباطنيـة إذن لا يكتفي بقواعـد وأخلاقيـات وآداب ظاهـرة وإنما أسـاسه التـوبة[15] ، وهي أول مقـام السالكـين ، والتـوبـة ليست في النـدم عـلى الأثم والمعصية فحسب ، وإنما التوبة عند الصوفية تصل إلى أعـلى درجاتهـا في التوبـة من التوبة أي الاتجاه إلى الله بالكلية ، وإسقاط التدبير مع الله ، وبذلك ينسى التائب إثمـه وذنبه ، بل ومجرد التفكير في التوبة ، لأنه وصل إلى مرتبة فناء الفناء في الله ، وبذلك يكون عبـداً ربانياً عارفاً ووليّاً لله .

إذن فدستور هذه الحكومة خاص وليس بعام ، فلا ينطبق إلا على أفراد مخصوصين يمثلون حكومة أرستقـراطية لأن رعـايا هـذه الحكومـة قلة فاضلة ، وهم أربـاب الأحوال والمقـامات أو بمعنى آخـر أهل التلوين والتمكـين الذين وصلوا بصـدقهم وإخلاصهم إلى مراتب الولايـة والقربـة والمقامـات الرفيعـة فهم أهل الله ، وعبـاد الرحمن ، رحال الليل العارفون بالله .

وخلاصة القول أن دستور الحكومة الباطنية عماده الأول المعرفة والمعرفة توبـة وزهد في الحياة ، وتوكل على الله ، والعـارف يجاهـد في خفاء ، ويعمـل في إيثار ، ويسعى بـلا رياء ، ويخدم الفقراء قبل الأغنياء ، يعبد الله على طريق الإخلاص والطاعـة ، وعلمه لا يطلع عليه غير أصحابه ، وينمو حاله في حياته ، ويشتهر عند النـاس بعد وفـاته ، يكتم الأسرار ويحب الاستتار ولا يعرفـه إلا الأحرار وهـذا هو الصـوفي التائب القانع المخلص المطيع الصادق .

(15) المرجع السابق للتلوين والتمكين

الفصل الثالث

صدور الأوامر والأحكام

يتبع نظام الحكومة الباطنية النظام الهرمي وتتسلسل المقامات من القطب الغوث كرئيس للدولة إلى التائبين أو الامامين إلى الأوتاد الأربعة ، ثم الأبدال السبعة ، والنجباء فالرجباء ، إلى النقباء ، فرجال الغيب ، إلى أهل النجدة وغيرهم من الأولياء .

ويستمد رئيس الحكومة الباطنية أوامره من القطب الأوحد المعد لجميع الأولياء وهو الرسول محمد ﷺ ، وهو قطب الأقطاب في الزمان والمكان ، ويقال أن قطب الوقت على قدم الرسول أي على شريعته وسنته وطريقه وأخلاقه .

وترد الأوامر والنواهي إلى أعضاء الحكومة الباطنية إما بأمر إلهي ، أو بواسطة الرسول ﷺ في صورة رؤيا أو كما تسمى عندهم مبشرات أو بطريق الإلهام أو مناماً أو عن طريق[1] الفتح أو الكشف أو التجلي أو المشاهدة أو المحادثة أو المسامرة أو الدعاء أو المناجاة أو عن طريق الخواطر والواردات واللطائف والحقائق والرقائق والدقائق .

وتختلف أوامر وأحكام الأولياء عن أوامر وأحكام الأنبياء فإن وحي الأنبياء يأتيهم يقظة ومشافهة على لسان سيدنا جبريل عليه السلام الذي هو الروح الأمين .

اما الأولياء فيأتيهم على لسان ملك الإلهام وهو على أشكال مختلفة[2]:

1 ـ إما أن يكون في ذي حس .

2 ـ إما يكون معنى يجده الموحي إليه في نفسه من غير تعلق حس أو خيال ، وقد

---

(1) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها «للمؤلف»

(2) د عبد الحليم محمود ـ المدرسة الشاذلية وامامها (مقدمة الكتاب) .

يكون ذلك مشافهة أو كتابة .

ويقول الإمام الشعراني[3] : إذا وجدت هذه الورقة المكتوبة فإنها تقرأ عن كل ناحية على السواء ، وانها لا تتغير كلما قلبت من جهة إلى أخرى ، ويبقى معناها ثابت . ولا يعمل بهذه الورقة إلا إذا وافقت الشريعة .

والصوفية يركزون على الشريعة فيقولون : لا شريعة بلا حقيقة ولا حقيقة بلا شريعة ، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .

ويروى الإمام الشعراني بعض الأوامر الباطنية الموجهة إلى الأولياء ومنها ما أصدره القطب الروحاني سيدي أحمد البدوي إلى الشيخ قمر الدولة بتحديد إقامته في « نفيا » لاختلافه مع الشيخ عبد المتعال (عبد العال) بل أن هناك أمراً صدر إلى سيدي أحمد البدوى[4] نفسه ليسافر إلى الحجاز ، وبقي بها مدة طويلة قبل أن يستقر في مدينة طنطا ، والتي تعتبر بحق بفضل انتقال البدوي مركز اشعاع روحي للطرق الصوفية في الوقت الحاضر ، ومعنى ذلك أن الأقطاب يصدرون أوامرهم إلى الأولياء إما عن طريق الإشارة أو بطريق التوجه أو إلهاماً أو بطريق الرؤيا .

وكذلك فإن سيدي أبو العباس المرسي وقبله سيدي أبو الحسن الشاذلي قد صدر إليهما الأمر بالسفر والتوجه إلى الاسكندرية والبقاء فيها ولشر الطريقة الشاذلية التي تعتبر من أكثر الطرق الصوفية في الوقت الحاضر شيوعاً والمعروف أن الشاذلي رضي الله عنه كان قطباً في زمانه وأن الأوامر الصادرة له كانت من الرسول ﷺ بطريقة التوجه أو إلهاماً أو عن طريق الرؤيا[5] .

ولقد صدرت وتصدر أوامر إلى الأولياء في كل دهر وحين ، فمثلاً سيدي عبد الرحيم القنائي الذي دعاه ابن أخته سيدي أحمد البدوي للبقاء في طنطا فقال له : « لقد جاءني أمر بالسفر إلى قنا والإقامة بها » وكذا فإن سيدي « أبو الحجاج الأقصري » جاء من العراق إلى الأقصر وأقام بها تلبية لأمر جاءه إلهاماً ، وكانت توجد بالأقصر كاهنة تدعى درزة تبشر بدعوتها بالصعيد وما أن شاهدته حتى أسلمت ، وأسلم معها قوم كثير ، وكذلك سيدي حسنين الحصافي بدمنهور ، فقد طاف بشتى البلاد واستقر مقامه

---

(3) الشعراني ـ الطبقات الكبرى ص 161

(4) الشلنجي ـ نور الابصار ص 238 الطائر 1380 هـ .

(5) راجع أبو الحسن الشاذلي ـ د عبد الحليم محمود .

بدمنهور ، بعد أن جاءه أمر علوي بالاستقرار بمنطقة الجبانة البعيدة عن العمران فجعلها مقراً له ومقاماً ، وأصبحت الآن بفضل تواجده بها سوقاً صناعياً وتجارياً وبها جامعه وضريحه .

والأوامر تصدر للأولياء نافذة لا اعتراض عليها ، ولا رجوع فيها ، ويقول صاحب الكبريت الأحمر[6] أن القاضي في حكم الظاهر يستخدم الحس ولذلك يخطىء ويصيب ، أما الصوفية فيقولون : « لقد حفظنا الله من الغلط فلم يجعل الحس عندنا جملة واحدة » ، ومعنى ذلك أن أجهزة الاستقبال والارسال بين أصحاب الحق ليست بالعبارات فحسب وإنما المدار على القلب « ما كذب الفؤاد ما رأى » ووسيلة القلب اللطائف .

والأحكام والأوامر التي تصدر إلى القطب بأمر إلهي أو بواسطة القطب الواحد سيدنا محمد رسول الله ﷺ وذلك بالإلهام أو عن طريق المبشرات وهي الرؤيا الصادقة تنشر على الأولياء حسب التسلسل في المقامات في الحكومة الباطنية[7] .

ويروي لنا اليافعي أن شاباً صالحاً حضر إلى مكة فالتقى بأبي يعقوب السنوسي رضي الله عنه وقال له : « يا أستاذ . « ها هنا أموت وقت الظهر . . » فخذ الدينار فأحضر لي بنصفه غذاء ، وكفني بنصفه فلما كان الظهر طاف بالكعبة ثم تباعد ومات » وقال السنوسي : « فغسلته ووضعته في اللحد ، ففتح عينيه . » . فقلت له « أحياة بعد الموت ؟ » فقال : « أنا حي ، وكل محب لله حي .

ويرى الشعراني مع الشيخ محيي الدين بن عربي : « أن وحي الإلهام ليس مثل وحي الكلام والعبارة ، فهناك فرق جوهري بين وحي الكلام ووحي الإلهام ، فالصوفية إنما تحكم لا بظاهر الشرع وحده ، وإنما بالإلهام الذي يقذفه الله في قلب عبده المؤمن ، فيلقن العلم اللدني وهذا العلم لا يخالف أحكام القرآن ، والسنة المحمدية .

ويرى صاحب البكريت الأحمر « أن كلام أهل الطريق إذا نظر فيه مجتهد في الشريعة الظاهرة ازداد علماً إلى علمه ، واطلع على أسرار في وجوه الاستنباط ، وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، ومعنى ذلك أن المنكر للصوفية ، هو إما منافق أو بقلبه مرض ناتج عن الاستعلاء والتكبر والغرور ، فإذا صح قلبه وسلم ذوقه اتبع أهل الطريق

---

(6) الشعراني ـ الكبريت الأحمر ص 12 هامش اليواقيت والجواهر مطبعة عبد الحميد حنفي سنة 1369 هـ .

(7) الطبقات الكبرى ص 157 جزء أول .

وكشف ما كوشفوا به ، وفتح عليه من العلوم ما لا يقدر أن يحصل عليه في أزمنة متباعدة عن طريق النظر .

ويذكر صاحب الطبقات الكبرى[8] عن سيدي إبراهيم الدسوقي الأمر الإلهي الذي صدر إليه : « لقد أمرني الله أن أخلع على جميع الأولياء بيدي وقال له رسول الله ﷺ : « أنت نقيب عليهم ، فكنت وأخي عبد القادر (يقصد عبد القادر الجيلاني) وابن الرفاعي (أحمد الرفاعي) خلف عبد القادر . . . الخ .

وفي هذه القصة تحديد المراتب الأولياء كما يراها الدسوقي[9] رضي الله عنه على أساس أنه كان قطب وقته ، ومن المعروف أنه عاش في زمن سيدي أحمد البدوي وينسب إليه قوله :

أنا القطب شيخ الوقت في كل حالة ... أنا العبد شيخ الطريقة
سقاني محبوبي بكأس المحبة ... فتهت عن العشاق سكراً بخلوتي
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضراً ... أطوف عليهم كرة بعد كرة
ونادمي سراً بسر وحكمة ... وأن رسول الله شيخي وقدوتي
وعاهدني عهداً حفظت لعهده ... وعشت وثيقاً صادقاً بمحبتي
وحكمني في سائر الأرض كلها ... وفي الجن والأشباح والمردية
وفي أرض صيني والشرق كلها ... لأقصى بلاد الله صحت ولايتي
أنا الحر لا أقرأ لكل مناظر ... وكل الورى من أمر ربي رغبتي
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر ... فصار بفضل الله من أهل خرقتي
وما قلت هذا القول فخراً وإنما ... أتى الاذن كي لا يجهلون طريقتي

والدسوقي يرى أنه هو قطب زمانه بما فتح الله عليه من فتوح ، وما كوشف به من حقائق ، فقد صارت سائر الأرض تحت حكمه وجميع الأولياء يتبعونه ومعنى ذلك أنه صاحب الأوامر والنواهي بحكم غوثيته ، وإنه حصل على هذا المقام الرفيع بأمر إلهي ، وأعلمه الله تعالى أن شيخه وقدوته هو رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على أن مقامه هو أعلى مقام ، لا يدانيه إلا إمام سيد المرسلين الممد بالأنوار جميع الأقطاب ، وأنه صاحب الأمر والنهي في وقته

(8) الكبريت الأحمر ص 10 (حـ 1 هامش للطبقات الكبرى)
(9) راجع ـ القسم الثاني ـ الفصل الأول الكتاب

وإذا تساءلنا عن سبب فتشه لهذا السر الرباني فإن الإجابة كما يراها الصوفية على هذا التساؤل هو أن الدسوقي قد أمر بالكلام أو أن هذا الكلام صدر عن طريق التوجه والإلهام أو لأحد مريديه ولا يمكن أن يكون المقصود به الافتخار لأن ذلك ليس من أخلاق الصوفية .

ويرى الصوفية أن طاعة الأولياء واجبة وأوامر كبار العارفين الذين هم أولوا الأمر المذكورين في الآية الكريمة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾(النساء : 59) فهم أصحاب الأمر الواجب العمل به وتنفيذه .

ويشير إلى ذلك الحكيم الترمذي[10] عندما يبين أن العلم الباطني ، حاكم على العلم الظاهر ، محكوم له بالصدق والصواب ، لأن علماء الظاهر يسيرون وفق نور العقل ، في ميدان العلم الظاهر ، أما أهل الباطن فهم يسيرون بنور الله فيدركون الظاهر والباطن ، وهم بالنسبة للفقهاء أهل القياس حقاً وصدقاً .

لذلك فقد قسم الصوفية الناس إلى ثلاث منازل[11] .

الأولياء : وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم .
العلماء : الذين سرهم وعلانيتهم سواء .
الجهال : الذين علانيتهم تخالف أسرارهم لا ينتصفون من أنفسهم ويطلبون الإنصاف من غيرهم .

وهؤلاء الصوفية أبداً غير راضين عن أنفسهم ، أو عن ظاهرهم وباطنهم ، وفي هذه الرحلة الإشرافية السرمدية ، التي يعبرون فيها تلالاً ، ووديانا ، وبحاراً ، ويصارعون فيها أمواجاً ، ويدافعون أشراراً ، إلى أن يصلوا إلى شط الأمان ، فهذه الرحلة في واقع الأمر رحلة الصراع بين الخير والشر ، رحلة تأديب النفس وتربيتها ومخالفة حظوظها ، لذلك فهم أبداً في جهاد وسعي للوصول إلى مراتب أسمى ، ودرجات أعلى ، ويعبر أبو الحسن النوري رضي الله عنه عن هذه الرحلة عندما ينصح أصحابه فيقول :

« أنت في سجن ما تبعت مرادك ، وشهواتك ، فإذا فوضت وسلمت . . . استرحت » .

---

(10) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ـ جـ 2 ص 282/296

(11) السلمي ـ طبقات الصوفية ص 112 (مطابع الشعب 1380 هـ) .

فالصارع بين الخير والشر ، بين طاعة الله ، وبين طاعة النفس موجود ، وعلى الصوفي أن يخالف نفسه ، ويجاهدها للوصول إلى مرتبة أعلى وذلك بعدم الرضا عنها وعدم الاكتفاء بحاله الذي هو فيه . فالترقي إنما نتيجة جهاد والجهاد صراع والطريق وعر ، وغير مأمون ، والرضا عن الحال هلاك الصوفي ، ويقول رويم البغدادي[12] في هذا الصراع :

« لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا هلكوا » .

ومعنى هذا أن الرضا عن الحال هو الهلاك المحقق . وقد ورد حديث عن الرسول ﷺ[13] : « اختلاف أمتي رحمة ، وحديث نبوي آخر - روي عن أبي نعيم في المعرفة[14] : « اختضبوا وافرقوا وخالفوا اليهود »[15] .

لذلك فإن أوامر الرسول ﷺ وأقواله في حياته وبعد إنتقاله والتي ترد الهاماً ورؤية أو بطريق الكشف والفتح والتجلي عن الله سبحانه وتعالى إنما هي مطاعة لا تقبل جدالاً ولا اعتراضاً ، ولكن لا بد أن تكون مرافقة للشريعة ، فلا يعقل أن يصدر الله أمراً أو حكماً لولي من الأولياء يخالف شريعته الظاهرة التي وردت بلسان رسوله محمد ﷺ ، كما لا يعقل أن يأتي الرسول لولي من الأولياء مناماً ويأمره بما يخالف شريعته الظاهرة ، ويقال ان المخالفات والمخادعات إنما هي من تلبيس الشيطان ، إذ تحدث أحياناً لأرباب التلوين ، أو أصحاب الولايات الصغيرة أو للمريدين في أول الطريق بقصد إيقاع الشيطان لهم في حبائل الغواية ، أما أهل التمكين وأصحاب المقامات الرفيعة فإنهم أهل المعرفة والراسخون في العلم فلا يطلع على أسرارهم شيطان فيفسدها ولا ملاك فيكتبها وإنما حقائقهم وأسرارهم من الله ولله وبالله وفي الله .

---

(12) السلمي ـ طبقات الصوفية ص 41

(13) ذكره السيوطي فى الجامع الصغير وذكر أيضاً في الحجة للمقدسي والبهيقي في الرسالة بغير سند وامام الحرمين والقاضي حسين وأورده الحكيم الترمذي .

(14) المرجع السابق

(15) ذكره ابن عدي في الكامل عن ابن عمر والسيوطي في الجامع الصغير

الفصل الرابع

مجالس الحكومة الباطنية

يروي بعض الصوفية ان الأولياء يجتمعون في ليلة الجمعة التي تكون فيها الأرواح مشرفة وتنتظر هذا اللقاء دون إهتمام بعنصر الوقت أو الزمن بالمعنى الظاهري ، فلا حاجة عندهم للزمن ، لأن له معنى آخر غير الزمن الحسي يسمونه الوقت .

والوقت عند أهل الطريق حادث متوهم معلق حصوله على حدث متحقق ، بمعنى أن حال الصوفي هو وقته فإذا كان مسروراً فوقته السرور ، وإذا كان حزيناً فوقته الحزن ، ويرى صاحب الرسالة القشيرية أن الصوفي ابن وقته[1] .

ويقول علي الدقاق رحمه الله[2] : الوقت ما أنت فيه ، ان كنت بالدنيا ، فوقتك بالدنيا وإن كنت بالعقبى ، ولذلك يجب على السالك أن ينخلع عن الزمن التحكمي فلا نفهم الوقت عن طريق تقسيم الزمن إلى أيام وشهور ودقائق ولحظات وإنما وقت الصوفي لا معنى فيه للماضي والحاضر والمستقبل .

ونحن إذ نربط بين اجتماع الأولياء في مجالسهم وبين الوقت ندرك من الوهلة الأولى أن فكرة الزمن وفكرة المكان الحسيين ، كما نفهمهما بالمعنى الظاهري غير موجودتين عند أهل الباطن ، ذلك لأن الزمن وجودي لا نهائي من ناحية كما أنه زمن شعوري وجداني من ناحية أخرى .

فالوقت عندهم هو الماضي والمستقبل والحاضر ومن ثم فإن اجتماعهم إنما يتم دون

---

(1) الامام أبو القاسم القشيري - الرسالة القشيرية ص 118 - تحقيق د. عبد الحليم محمود الجزء الأول .

(2) المرجع السابق 188

التفات إلى الزمن المادي التحكمي ، لأن أجسامهم الأثيرية هي التي تجتمع وليس أجسامهم الحسية الظاهرية ـ لذلك فإن الاجتماع يجمع بين الأولياء الأحياء والأموات .

ويرأس هذا المجلس(3) قطب وقته الزماني ، وغالباً ما يحضر الرسول ﷺ هذا الاجتماع ، يستثيره القطب الغوث فيما يعن له من مسائل الدين(4) .

ويتم الاجتماع في دقة ونظام تامين ويتبع التسلسل الرئاسي في عرض المسائل ومناقشتها .

وهذه الاجتماعات تتآلف فيها الأرواح ، وتتعارف ، بل وتتخاصم أحياناً ، تحمساً للدين ومحافظة على الشريعة وذلك عندما تفسر أحكام الشريعة بل ويختلف التطبيق عند ولي عن ولي آخر وهنا يحدث الخلاف الظاهري ، والواقع أن لا خلاف بينهم على الحقيقة ذلك لأن كلا منهم يفسر ويطبق حسب المقام الذي هو فيه وجميع المقامات موصلة للحق .

ويروي لنا صاحب(5) روض الرياحين عن اجتماعات الأولياء بالكعبة الشريفة وطوافهم بالبيت الشريف على صور شتى وقائع كثيرة ـ ويقول أنه لو قال شيئاً عن هذه الاجتماعات لصغرت عقول شتى عن فهمها ، ذلك لأنهم غير مؤمنين ومن ثم لا يعرفون غير الوسائل الحسية والمادية التي تبصر بالعين ، وتذاق باللسان ، وتسمع بالأذن ، وأما غيرها فلا تعد في تصورهم موجودة على الاطلاق

ويرى أنه ما من ولى لله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحضر هذه البلدة (مكة) في كل ليلة جمعة لا يتأخر عنها ، ومعنى ذلك أن الأولياء يجتمعون بعضهم مع بعض وتتآلف أرواحهم وتتجاذب وتتحادث لأنهم جميعاً يسيرون على طريق الله ، فالرابطة هنا من الله وبالله ، ولله ، وفي الله .

ويحدثنا اليافعي(6) رحمه الله عن رجل يقال له مالك بن القاسم الجيلي وقد رآه بالبيت وبيده آثار أكل ، فقال له ، أكنت تأكل ؟ فقال : « استغفر الله فإني منذ أسبوع لم آكل ، ولكني أطعمت والدتي . . . وأسرعت الحق صلاة الفجر » وكان بينه وبين المكان

---

(3) الشعراني ـ الطبقات الكبرى ـ ص : 78 إلى 93 .

(4) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف ـ الابدال

(5) اليافعي اليمني ـ روض الرياحين ص 114 .

(6) المرجع السابق ـ ص 114 وما بعدها

الذي حضر منه تسعمائة فرسخ ، يقطعها الإنسان في ثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً .

ويقول أن كثيراً من الصالحين يشاهدون حول الكعبة الأنبياء والملائكة ، والأولياء عليهم السلام وأكثر ما يرون يوم الجمعة ، وكذلك ليلة الاثنين ، والخميس .

ولكل واحد من الأنبياء والأولياء مكان معين يجلس فيه حول الكعبة ، ويجلس معه اتباعه من أهله ، وصحابته ، ويجتمع حول سيدنا محمد ﷺ ، خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى . ولا يجتمع على سائر الأنبياء مثل هذا العدد من الخلق .

ويبين لنا اليافعي إجتماع الأولياء بالأنبياء عليهم السلام فيقول : ـ « ويتخذ رسول الله ﷺ مكانه عند الركن اليماني ، بالبيت الشريف مع أهل بيته وأصحابه وأولياء أمته ، كما يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام وأولاده قد إجتمعوا عند باب الكعبة ، وموسى عليه السلام وجماعته من الأنبياء بين الركنين اليمانيين ، وعيسى عليه السلام وجماعته في جهة الحجر » ، وكما سبق الإشارة فإن كل بدل[7] من الأولياء يحكم على قلب أحد الأنبياء السبعة ، ومعنى ذلك إجتماع كل بدل من الأولياء ، مع النبي الذي هو على قلبه[8] .

وإذا دلت هذه الاجتماعات على شيء فإنما تدل على أن الولي الصادق يعيش في دنياه حياتين حياة الظاهر وهي الواجبة تكليفاً وشرعاً وحياة الباطن الالهامية والتي يتصرف فيها بالقول والفعل حسب الحقائق المبلغة من رسول الله ﷺ ، مباشرة أو عن طريق قطب وقته والرسول ﷺ إذ يجتمع بهم صحواً أو مناماً بالكعبة الشريفة ، فذلك لمناقشة أمور المسلمين وتعليمه وتلقي الأسرار والاستزادة من المعارف كما أن هذه الاجتماعات بمثابة الاجابة على أسئلة الأولياء وإستفساراتهم في الدنيا والآخرة وهذا ما يلاحظ من أقوال الأولياء .

وعلينا أن نقف هنا وقفة قصيرة لنرى هذا الإجتماع الروحاني الذي يجتمع فيه الأنبياء والأولياء بأجسامهم اللطيفة دون إعتداد بالزمان السابق واللاحق لحياتهم الدنيوية ، فنجد أن كثيراً من الأولياء قد عبروا عن ذلك في أقوالهم وقد وقف أحد أئمة الصوفية[9] مدافعاً عن الإجتماع بالرسول ﷺ قائلاً (ومما أنكر عليهم ذكرهم أنهم

---

(7) روض الرياحين ص 114 وما بعدها .
(8) السيوطي ـ تأييد الحقيقة العلية ص 88
(9) المرجع السابق ص 88

يـرون ﷺ يقظة وهـذا لا إنكار فيـه وقد نص عـلى مكان وقـوعه ، من أئمـة الشرع مثل الغزالي واليافعي وفي كلام القرطبي إشارة إليه) .

ويدافع الدكتور عبد الحليم محمود عن إجتماع الصوفية بالملائكة بقـوله ، « وان حيـاة جهاد في الله كهـذه ، لا بد لهـا من ثمارهـا من الكرامـات ومن شفافيـة النفس ومن القرب من الله ، ومن أنه سبحانه يفيض عليه من رحمته ويمثل لذلك بأبي الحسن الشـاذلي الذي روى عنه الشيخ الجيبي ـ من أن الملائكـة كانت تحف بـأبي الحسن ، بعضها يسـأله فيجيبه ، وبعضها يسير معه متبركاً » .

وليس بغـريب أن تـأتي أرواح الأوليـاء زرافـات ووحـدانـاً كـما يقـول الـدكتـور عبد الحليم محمود[10] تحف بأبي الحسن وتتبرك به .

ويقول أن الملائكة تتنزل على كل إنسان في هذه الحياة الدنيا بشرطين : ـ

1) الإيمان .　　　　2) الإستقامة .

ويروي لنا الإمام الغزالي في الأحياء عن خبرة وتجربة عما يشاهده المريد الصادق في أول طريقه إلى الله فيقول :

« وفي أول الـطريق تبتـدىء المكـاشفـات والمشـاهـدات ، حتى إنهم في يقـظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد » .

ويـروي لنا الشعـراني عن سيدي عبـد الرحيم القنـائي إنه أثنـاء الحلقة التي كـان يعقدها نزل شبح من الجـو لا يدري الحـاضرون ما هـو فأطـرق الشيخ سـاعة ثم إرتفـع الشبح إلى السماء فسألوه عنه فقال : « هذا ملك وقعت منه هفوه فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع ، وكـان رضي الله عنه إذا سـأله إنسـان في مسألـة يقول لـه أمهلني حتى أستأذن فيه جبريل وهو من الملائكـة ثم يرد عـلى سؤاله بـأن يفعل كـذا أو لا يفعل كذا ، وفي تصورنا أن جبريل هذا غير جبريل عليه السلام وهوالروح الأمـين الذي يتنزل على الأنبيـاء عليهم السلام بـالوحي والـرسالـة ، وشتان بـين وحي الأنبياء ووحي الأولياء الذي هو وحي الإلهام ، ومن الروايات الكثيرة عن هذه المجالس[11] هذه القصة التي تروي عن أحمد البدوي رضي الله عنه في الطبقات الكبرى للشعراني رحمه الله : ـ

---

(10) د عبد الحليم محمود ـ أبو الحسن الشاذلي ص 30 (اعلام العرب 72)

(11) د عبد الحليم محمود ـ أحمد البدوي .

« أنـه أراد السيد الكبـير أحمد البـدوي (المتوفي 675 هـ : لقـاء الجيـلاني المتـوفي (590 هـ) والـرفاعي (المتـوفي 570 هـ) وذلك في رؤيـا صادقـة وكـأنها أمـر إلهي . . فيطلب من أخيه الأكبر الشريف الحسن الذي رفض سفره وأراد أن يمنعه وقال له : أعلم يأخي أحمد أن كل بلاد لها رجال ولهؤلاء الـرجال قـطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعـالى ، وإذا دخل بلادهم أحـد من الرجـال أرباب الأحـوال[12] أمرهم قـطبهم بالـذهاب إليـه والاجتماع عليه فـإن كانـوا أقوى منـه أرجعوه ، وإن لم يتـأدب معهم قتلوه وسلبوه ، وإن كان أقوى منهم بددهم وفرق شملهم يميناً وشمالاً . . وإني أخاف عليك من بـلاد العراق فإنها برزخ الأولياء الصالحين » . ومعنى ذلك أن البدوي كان في مقام لا يسمح له في رأي أخيه بمنازلة أهل التمكين لأنه ما زال مريداً مبتدئاً لا يقوى عـلى فحول الأوليـاء أصحاب المقامات العليا ولا يستطيع منازلتهم .

ويروي لنا الشعراني[13] أن الشيخ محمد السروي رضي الله عنه تخلف عن حضور مولد سيدي أحمد البدوي ، فعاتبه سيدي أحمد البدوي إلهاماً قائلاً : ـ

« موضع يحضر فيه رسول الله ﷺ والأنبياء عليهم السلام والأوليـاء رضي الله عنهم ولا تحضره » . فخرج الشيخ محمد إلى المولد فوجد الناس راجعين وفاتـه الاجتماع فكـان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه .

والـذي يعنينا في هـذه القصة أن هنـاك اختصامـاً بين الأوليـاء وأن أرواح الأوليـاء تحضر هذه الجلسات وتدلى فيها برأيها وحكمها تأييداً لقولـه تعالى : ﴿ **مـا كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾(ص : 69) .

وهناك أدلة كثيرة على الاختصام بين الأولياء وهي الجلسات التي تمت بـين الملائكـة في شأن إستخلاف سيدنا آدم وذريته في الأرض ، ومن محاولة ابليس غوايـة آدم وبنيه من قوله تعـالى : ﴿ **بلى إن تصـبروا وتتقوا ويـأتوكم من فـورهم هذا يمـددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾(آل عمران : 125) .

فالشاهد أنه يقـع بين الأوليـاء الأحياء والأمـوات إختلاف وتخـاصم بل ومحـاكمات أيضاً يعقد لها جلسات . . . والأرواح اللطيفـة يقع بينهـا وبين غـيرها من الأحيـاء تعاون

(12) أرباب الأحوال هم أصحاب الولايات الناقصة أما أرباب الأعمال فهم أصحاب المقامات العليا ويقـال عنهم أصحاب التمكين في مقابل أصحاب التلوين . راجع كتاب المؤلف ألفاظ الصوفية ومعانيها .

(13) الطبقات الكبرى ـ الجزء الأول ص 161 ـ 169 .

وتناصر ولا سيما الأرواح الخيرة ، وقد قيل أن روح أبي بكر الصديق رضي الله عنه تهزم جيشاً بمفردها .

ويروي لنا الشعراني[14] كثيراً عن الأحكام الصادرة ضد الأولياء فمثلاً سيدي الإنبابي المدفون بإمبابه نزعت ولايته لتطاوله على سيدي أحمد البدوي .

وقصة سيدي أحمد البدوي[15] مع الشيخ دقيق العيد الذي كان من كبار العلماء في عصره ، إذا أنكر على البدوي أن يكون من الأولياء فوجد نفسه في جزيرة مهجورة ولم يرجع إلا بعد أن طلب العفو من البدوي فعفا عنه ورجع لبيته .

وقصة صاحب الإيوان[16] العظيم بطنطا المسمى بوجه القمر ، وكان والياً عظيماً فثار عنده الاغترار بنفسه وتطاول على مقام سيدي أحمد البدوي ولم يسلم الأمر لقدرة الله تعالى فسلبت ولايته وموضعه الآن بطنطا وكما يقول الشعراني « أصبح ضريحه مأوى للكلاب ليس فيه رائحة صلاح أو مدد » . ويقول الشعراني وكان الخلفاء قد انتصروا له وبنوا لزاويته مئذنة عظيمة وأنفقوا عليها أموالاً . . . إلا أن سيدي عبد العال رفس المأذنة فغارت حتى وقتنا هذا[17] .

ويتضح لنا من كلام أئمة الصوفية أن اجتماع الأولياء واتصالهم أمر ضروري بل تتخلله أوامر ونواه فهو لقاء الأحباب بالأحباب يناقشون فيه أمور الدين ويتعاونون على الأمر بالمعروف والإستشارة والرأي في أمور الدنيا والدين والإستزادة من المعارف والأسرار ويتخذون قرارات لصالح الإسلام والمسلمين وفي ذلك يرى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي أنه لولا العادة والعرف ولولا حقائق العوالم ، وقيام هذا العالم لكان العارف في غير حاجة إلى المكاتبات والمخاطبات والمراسلات حيث أنه مطلع على الحقائق ، متمكن من الالتقاء جسماً بغيره من الأولياء ، قادر على الاجتماع ربما بالصالحين وإنما اجتماع الأولياء بالأجساد إنما مرده العادة والتقاليد والعرف فقط ، وإنه يمكن بغير الأجساد الاتصال ، إلا أن صاحب الحال من الأولياء قد اعتاد على الالتقاء بالأحباب والدعاء لهم تطبيقاً للشريعة .

---

(14) الطبقات الكبرى ص 160 جزء أول

(15) المرجع السابق ص 161

(16) الطبقات الكبرى ص 16 وما بعدها جزء 1

(17) في البحث الميداني الذي أجراه للمؤلف على منطقة طنطا وضواحيها اتضح أنه لا يوجد أثر لصاحب الايوان بالمنطقة .

ويروي اليافعي رضي الله عنه[18] عن أحد الأولياء أنه رأى عنـد قبر الـرسول ﷺ تسعـة من الأولياء فتبعهم ، فـالتفت إليه أحـدهم وقال لـه : إلى أين تمر ؟ فقـال : أسير معكم لحبي لكم ، فإني سمعت أن الـرسول ﷺ قـال : « المرء مـع من أحب » فقال لـه أحدهم : إنك لن تقدر على المسير إلى الموضع الذي نقصده فإنه لا يقدر عليه إلا من بلغ عمـره أربعين سنـة ، فقال آخـر : دعه لعـل الله يرزقـه ، قال : فسرت معهم والأرض تـطوى من تحتنا طياً ، إلى أن انتهينا إلى مـدينة مبنيـة بـالـذهب والفضـة ، وأشجـارهـا متعانقة ، وأنهارها رائقة ، وفواكهها كثيرة ، فدخلنا وأكلنا من ثمارها وأخذت معي ثلاث تفاحات ، فسألتهم عند الإنصراف عن هذه المدينة ؟ فقالوا : هذه مـدينة الأوليـاء ، إذا أرادوا التنزه ظهرت لهم أينما كانوا ، وما دخلها أحد قبل سن الأربعين غيرك .

ثم قـال : ولما رجعت أهـديت لأحد أصحـابي تفاحـة (يقصد لـولي من الأولياء) فقذفها . ولامني أصحابي وقالوا : « أعد ما أعطيت إلى مكانه ، وكنت كلما جعت أكلت من التفـاحة وهي لا تتغـير » ثم رجعت إلى أهـلي وبقيت معي تفـاحـة واحـدة وهي التي أدخرتها لنفسي . فعانقتني أختي وقالت : ما الذي جئت به لنا ؟ فقلت لها : « ومـا الذي آتيكم به وأنا بعيد عن الدنيا ؟ فقالت : أين التفاحة ؟ فقلت : أي تفاحـة ؟ قالت : يـا مسكين . . . والله لقد أدخلوني هذه المدينـة وأنا بنت عشرين ، وأمـا أنت فلم ترهـا بعد أن طردوك . فقلت : ولكن البدل الكبير منهم قال لي : « لم يدخـل هذه المـدينة من لم يبلغ الأربعين غيرك . فقالت : نعم . ولكن من المريدين أما المـرادون فيدخلونها ولا يـرضون بها . ومتى شئت أريكها ، فقلت : قد شئت . . . فقالت يا مدينـة : إحضري ، قال : فو الله لقد رأيت المدينة بعينهـا تتدلى وتـرف علينا ، فقلت: أين تفـاحك؟ قـال: فتساقط عليَّ من التفاح مـا علاني . فضحكت ثم قـالت : من عنده من الملك هـذا ما يحتـاج إلى تفـاحـك ؟ قـال : فـاستحقـرت والله نفسي عنـد ذلـك ، ومـا كنت أعلم أنَّ أختي منهم رضي الله تعالى عنها وعنهم[19] .

(18) روض الرياحين ـ ص 97

(19) روض الرياحين ص 94

الفصل الخامس

محاكم الأولياء

يحدث أحياناً تخاصم بين فريقين من الأولياء ، وتحضر أرواح الصالحين ليكونوا طرفاً ثالثاً في الخصومة بمثابة قضاة للفصل بين المتنازعين .

والأرواح تعرف بعضها بعضاً بل وتعرف درجة ومقام كل منها ، بدليل قوله ﷺ الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تنافر منها إختلف[1] .

لذلك فإن الأولياء الذين هم على قدم واحد يعرفون بعضهم بعضاً ، ويهرعون لمساندة إخوانهم ويعرفون أيضاً درجة ومقام خصومهم إذا ما تقابلوا معهم توجهاً أو إلهاماً أو بطريق الرؤيا ، كما نجد ذلك في قصة فاطمة بنت بري التي كانت من أصحاب الأحوال وكانت ذات فتنة وجمال ، تستخدم فتنتها في الإيقاع بالأولياء لإمتحان حالهم وبذلك تتمكن من سلب أحوالهم . كانت وقبيلتها تسكن بلدة أم عبيدة بالعراق فأرسل لها سيدي عبد القادر الجيلاني وسيدي الرفاعي وسيدي أحمد البدوي المعاصر لها توجهاً أو إلهاماً[2] وذلك لتأديبها وقام بالمهمة عندما تظاهر بأنه بدوي أخرس أطرش وإستطاع بذلك أن ينجو من حبالها ثم تصدت له عندما اكتشفت أنه من الأولياء ، ولكنه إستعان بأصحابه واستعانت بأصحابها . . ولما رأى أعوان بنت بري أن سيدي أحمد واقتنعوا بأن الحق في جانبهم لم يسعهم إلا التسليم لأعوان سيدي أحمد ويقول العارف بالله الشيخ أحمد حجاب[3] وأخذت فاطمة بنت بري تطلب العفو من سيدي أحمد وتذكره بقول

(1) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير ـ للسيوطي .
(2) الشعراني ـ الطبقات الكبرى ـ جـ 1 ص 158 ـ 191
(3) العظة والاعتبار ص 123 ـ 125

سيدنا علي بن أبي طالب : -

« عجبت لمن يشتري العبد بماله ولا يشتري الحرب بإحسانه وعفوه ، وبامتنانه أي بالإحسان إليه . . . وإذا بالأخرس الأطرش ينطق ويقول لها مملياً عليها شروط العفو : « بشرط ألاَّ تعودي للتعرض للرجال من أرباب الأحوال وأن تعيشي برأسمالك من الإيمان » .

وهناك عديد من الروايات عن اجتماع كبار الأولياء لنظر الخصومة التي تنشأ مع بعض الأولياء ، ومنها مقابلة سيدنا الخضر عليه السلام وحضوره لفض الخصومات .

كما أن السالك عندما يصعد من مقام إلى مقام ومن درجة إلى درجة في سلم الولاية الروحية ، عليه أن يحافظ على شروط المقام ويكتم الأسرار التي عاينها وشاهدها إلا إذا أمر بغير ذلك وفي هذا يقول ابن عربي - في التجليات - مخاطباً الولي « وإنك ستجول في ميدان الدعاوي ، وان كنت على حق فيها وقائماً على قدم وصدق ، فإن لطف بك حجب عنك أسرار الكتم ، فلم تعرفها فعشت سعيداً بما عرفت ومت كذلك ، وإن خذلت أعطيت أسرار الكتم ، ولم تعط مقامه فبحت فحرمت أثناء الأمانة وخلعت عليك خلع الخيانة فيقال ما أكفره ، وما أجهله وحقاً ما قيل ويقيناً ما نسب ، أتيت بالعيبين في موطني الإيمان فكفروك[4] .

ألا فاسقني خمراً وقل هي الخمر ∴ ولا تسقني سراً وإن أمكن الجهر

ومن هذا يتضح أن للأولياء محاكم خاصة بهم ، يختصموا إليها وغرامات ودعاوي وعقوبات وجزاءات وإن اختلفت عن صورها في الحكومة المدنية ، فالولي يمكن أن يرقى درجات باجتهاده ، كما يمكن أن ينتكس لإفشائه شراً ، أو للتصرف في أمانة كان عليه تأديتها .

وهذا ما حدث لأبي يزيد البسطامي عندما أباح ما عاينه ، وما كاشفه من المغيبات والأسرار ، فنسى في لحظة سكر ، ولم ير غير الله فقال : « أنا الله » ، واستحق بذلك الشهادة ، فلم يعد لوجوده بالحياة الدنيا معنى ، ويقول صاحب التصوف الاشراقي السهروردي المقتول في ذلك[5] :

---

(4) رسائل ابن العربي - التجليات - دار احياء التراث العربي .

(5) د. محمد علي أبو ريان - أصول الفلسفة الاشراقية ص 5 - 1969 - دار الطلية

بـــالسران بـــاحـــوا تـــبـــاح دمـــاؤهـــم ∴ وكـــذا دمـــاء الـــعـــاشـــقـــين تـــبـــاح

والغـريب أن السهـروردي استشهـد أيضـاً بسبب إبـاحتـه لسر إلهي ، وكثـير من الصوفية من غير أهل التمكـين أي من أصحاب الأحـوال وأرباب التلوين أفشـوا أسراراً كان عليهم كتمانها وصدرت عليهم أحكاماً بالإنتكـاس أو الشهادة أو النفي أو الحجب أو الجـذب « المجاذيب » ، وذلـك ناتـج عن عـدم التمكن في الـطريق إلى الله بسبب نقص العلم أو العرفان الصـوفي ، وليس معنى ذلك أنهم ضلوا سبيـل الله ، ولكنهم أخطأوا في لحظة شطح أو حال سكر فحسب[6] .

---

(6) راجع ألفاظ الصوفية (الشطح والسكر)

الباب الرابع

الولاية في الحكومة الباطنية

نعرض في هذا الباب الولاية في الحكومة الباطنية ، ونركز على المصادر التي تستمد منها وجودها وسلطاتها ، فلا شك أن الولي الصادق يحظى بمعارف وأسرار وحقائق ومغيبات لا يحظى بها الشخص العادي ، فالولي ينفرد ببعض المنن والعطايا والهبات وتصبح صفة لازمة له ما دام ولياً لله ، فهي استمدادات من الله تنير له الطريق في الدنيا وفي الآخرة ، فيعرف أنه يسير في طريق الله ، وأن أنوار الله تحف به من كل جانب ، وأنه قريب من الله يكشف له عن بعض أسراره ، ويلهمه بالعلم إلهاماً . ومن هذه الإستمدادات التي يحظى بها الولي من الحق تعالى اليقين ، والكرامة ، والإصطفاء ، والإلهام ، والعلم والكشف ، واسم الله الأعظم ، والفراسة والتوسم .

كما أن الرؤيا والطاعة والإخلاص تعد من سمات صاحب الولاية . لذلك نستعرض لبعض هذه الاستمدادات والسمات الغالبة في الفصول المقبلة من هذا الباب لنؤكد أن العارف بالله غير العالم ، وأن المريد الصادق يحظى ببعض المبشرات والفراسات ما دام طائعاً لله مخلصاً له على الدوام ، محتاجاً إليه على الاستمرار ، وهنا يجب التنويه ان الصادق من أصحاب العلم الكسبي يجد أمامه باب الفتح الإلهي ، والفيض الرباني ، مفتوحاً ، إذا ما توجه إلى الحق تعالى بقلبه وعقله ونفسه جميعاً ، فيرى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الفصل الأول

الرؤيا

أشرنا في الفصول السابقة إلى أن الأوامر والأحكام ترد على أعضاء الحكومة الباطنية بأمر علوي يصدره القطب الغوث ، أو يأتي القطب الزماني بأمر من سيد المرسلين وهو القطب الممد لجميع الأقطاب محمد ﷺ .

وهذه الأوامر والأحكام ترد على الأولياء في صورة مبشرات والمبشرات هي المذكورة في الآية الكريمة : ﴿ **ألا إن[1] أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ ، والرؤيا بهذا المعنى إما إلهاماً في إلهام في حالة اليقظة وإما رؤيا صادقة في حال النوم تتكرر للرائي ولا تخالف الشرع وتسمى المبشرات .

والبشرى هي الرؤيا الصالحة التي يراها العبد أو ترى له ، ففي النوم تزايل النفس الروح ، فلا تستطيع النفس أن تسيطر على الروح وتلقي إليها ما تريد كما في اليقظة ، ويستثنى من ذلك القليل من الناس الذين ماتت نفوسهم وهم في قبضة الحق لذلك فقد يبشرون يقظة .

ورؤيا المؤمن[2] هي إذن كلام يكلمه الحق تعالى لعبده ولذلك كانت جزءاً من ستة وأربعين من النبوة ، أما الكلام على القلوب في اليقظة فهو أكثر من ثلث النبوة ، وهو عند

---

(1) سورة يونس 62 ـ 64

(2) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ 2 ص 337، 338، 357 مجمع البحوث الإسلامية .

الصوفية يسمى « الالهامات » أو وحي الإلهام .

وقد قال أبـو بكر الصـديق رضي الله عنه « مـا رأيت شيئاً وإلا ورأيت الله قبله » ، وقـال الفاروق عمـر ـ رضي الله عنه : « مـا رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه» ، وروي عن عثمان رضي الله عنه قوله : « مـا رأيت شيئاً وإلا رأيت بعـده » ، ومنهم من قال مـا رأيت شيئاً إلا رأيت الله عنده ، ومنهم من قال ما رأيت شيئاً إلا . . . رأيت الله فيه » ومنهم من قـال : « ما رأيت شيئـاً حين رأيت » ، ومنهم من قـال : « ما رأيت شيئـاً » ، ومنهم من قـال : « من رآه ليس شيئاً » ، ومن قـال : « لا يـرى إلا في شيء » ، ومنهم من قـال : « أغلقت عيني ثم فتحتهـا فما رأيت إلا الله تعـالى » ، ومنهم من قـال : « من رأى نفسـه فقد رآه ومن عرف نفسه عرف ربه »[3] .

وتصدق الرؤيا عندما توافق أحكام الشرع وترد في ساعات آخر الليل وأول النهـار ويحكم على صدقها عندما تكون لحكمة .

وعلى هذا فإذا أمر القطب أو نائباه أو الأوتاد أحد أعضاء الحكومة الباطنية بـواسطة رؤيا صادقة أن ينتقل إلى مكان أو يفعل شيئاً ما أو يتجـه إلى سلوك معين هـذا الأمر ينفـذ على الفور دون أية مناقشة .

إن الأخبـار[4] في رؤى الأولياء والصـالحين مشهـورة ومتواتـرة ووجب القـول بهـا والإيمان والتسليم والتصديق لها .

ولقد أجمع الصوفية على أن الله لا يرى في الـدنيا بـالأبصار[5] ولا بـالقلوب إلا من جهة الإيقان ، لأن ذلك يعتبر غاية النعم ولو أعطوا في الـدنيا أفضـل النعم ما كـان هناك فرق بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية ، والدنيـا هي دار فناء ولا يجـوز أن يرى البـاقي في الداء الفانية ، فلو كان عز وجل يـرى في الدنيـا لكان الإيمـان به ضرورة . ولم نسمـع أو نقرأ أن أحداً من الأولياء والصـالحين ادعى رؤية الله في الدنيا .

ونؤيد ما نقول بالآية الكريمة : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ (الأعراف : 143) . وكان هذا مطلب موسى عليه السلام من ربه ، وقد علق الله تعالى الرؤية بقوله :

---

(3) الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ـ (رسائل ابن العربي) دار إحياء التراث العربي .

(4) اليافعي اليمني ـ روض الرياحين في حكايات الصالحين ص 172/ 173 ـ مكتبة البابي .

(5) الكلاباذي ـ التعرف على مذهب أهل التصوف ص 42 ـ تقديم د. عبد الحليم محمود ـ الحنفي سنة 1960

﴿ فـإن استقر مكـانه فسـوف تراني ﴾ (الأعـراف : 143) وهـذا معنـاه إمكـان الرؤية بالعقل والسمع ، وفي هذا يقول تعالى : **﴿ فلما تجلى ربه للجبـل جعله دكا وخـر موسى صعقاً فلما أفـاق قال : سبحـانك ، تبت إليـك وأنا أول المؤمنـين ﴾** (الأعراف : 143) .

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى الدولة الباطنية ، فإننا نرى أن نظامها ومجـال عملها هي الرؤيا ، فإن أوامر الشيوخ الذين هم في نفس الوقت أعضاء الحكومة البـاطنية تنفـذ على مريديهم ، فإذا أمر الشيخ مريده عن طريق رؤية ظاهرة أو باطنـة بأن يفعـل كذا أو يمنـع كذا ، فإن طاعة المريد لشيخه واجبة ، إلا إذا كان ما يـأمر بـه شيخه في غـير المباح ، أي أن جميع أوامر وأحكام الشيخ نافذة على مريـديه في الأفعـال المباحـة الشرعية ، ولا يمكن للمريد مخالفتها ذلك أنه كـما سبق الإشارة ، أن مجـال عمل الحكـومة البـاطنية في الـرؤيا وبدونها تنقطع الصلة بين المريد وأعضاء الحكومة من الأولياء .

كـما أن العلاقـات التي تحكم السلوك الظاهـري والبـاطني بـين أعضـاء الحكـومـة بعضهم ببعض وبين مريديهم مبنية أساساً على المقامات التي فيها كـل منهم أو عن طريق رؤيـا النبي ﷺ ويتصرفـون وفق مـا رأوه معتقـدين جـازمـين أن ذلـك هـو الحق أو عـين اليقين .

ومن نـاحية أخرى فإنّ الرؤيـا الصادقـة يؤيدهـا الـواقـع فقـد قـال أحـدهم لابن سـيرين[6] رضي الله عنـه : « رأيت كـأن بيـدي خـاتمـاً أختم أفـواه الـرجـال ، وفـروج النسـاء » ، فقال : « أنت مؤذن تؤذن قبـل الصبـح في رمضـان » قـال : « صـدقت » . وصاحب الختم هنا هو الذي يمنـع ، فاستخـدام المنع للطعـام والشراب رمز لـه بالختم ، ولقد تمثل الرائي الصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى .

فالرؤيا . . بهذا المعنى هي علم لأهل الباطن الذين ينظرون بنور[7] الله فيدركـون الظاهر والباطن ، وهذا يدل على أن العلم الباطني ، حاكم على العلم الظاهري ، محكوم له بالصدق والصواب .

ويـرى أغلب الصوفيـة أن الرؤيـا أدنى درجات الكشف أمـا أعـلى الـدرجـات في الكشف فهو الوحي .

---

(6) الامام أبو حامد الغزالي ـ إحياء علوم الدين ج 6 ص 293 وما بعدها كتاب الشعب

(7) الشبلنجي ـ نور الابصار ص 246 .

الرؤيا والأحلام :

الأحـلام ترتبط بـالميول الكـامنـة ، والـرغبـات الخفيـة والاحسـاسـات السـابقـة والانفعالات المكبوتة ، ويقول علماء النفس المحدثون بأنها تعبير عن العقل الباطن .

ولكن الـرؤيـا كـما نتنـاولهـا تختلف اختـلافـاً بينـاً عن الحلم ، فهي التي لا تتعلق باحساسات أو ميول أو حوادث سابقة أو مصاحبـة وإنما تتعلق في حقيقـة الأمر بجـزئيات لاحقة ، وأحداث متحققة .

ففي الرؤيا يبرز دور القلب[8] لأنه هـو الذي يـرد عليه أنـوار الكشف ، فينعكس ذلك في ساحة الصدر لتراه عين الفؤاد وعين العقل فيتم إدراكه بنفسه .

فالإنسان في النوم تخرج نفسه عندمـا تكون خـالية من أشغـال البدن منصرفـة عن دواعي الشهوات ، فيسمح لها إن كانت على طهارة أن تسجد تحت العرش ، فإذا عادت لطبيعتها أدت إلى الروح ما شـاهدت من رؤى شريفـة ، ومعنى ذلك أن إنصراف النفس عن شهواتها ، يهيء لها إستقبال الرؤى الصادقة وذلك لما لها من شفافية ولطافة .

ويدل ذلك على أن المبشرات أو الرؤى الصـادقة أو الصـالحة ، كـما يسميها بعض مشايخ الصوفية[9] أنها ناتج حتمي للمجاهدة الروحية ، وثمرة من ثمرات التصوف فهي أول درجة من درجات الكشف ، لأن عندهم وحي المؤمن منامه ، فالولي الصادق تسـيره مناماته ، فتحل له تساؤلاته ، وتفسر له ما حجب في ظاهـر حياتـه ، وتمده بـالعلم الذي إنغلق بابه ، وتكشف له بعض أسراره ومغيباته .

كيف تتم الرؤيا :

يرى بعض أئمة الصـوفية أنـه يدون بـاللوح المحفوظ[10] جميـع ما قـدره الله تعالى وقضـاه ، والقلب مرآة تنـطبـع فيهـا رسـوم العلم واللوح مـرآة جميـع العلوم ، والعلوم موجودة فيها ، فإذا اشتغل القلب بشهواتـه فإن حـواسه تكـون بمثابـة حجاب بينـه وبين مطالعة اللوح ، فإذا هبت ريح حركت هذا الحجاب ، ورفعته فيتلألأ في القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف يدوم أحياناً وفي الغالب لا يدوم .

---

(8) المرجع السابق .

(9) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي وبطريته في الولاية جـ 2 ص 135 ، 166 ، 174 ، 180 ، 340

(10) الامام أبو حامد الغزالي إحياء علوم الدين ـ ج 16 ص 2935 وما بعدها كتاب الشعب .

فإذا كان القلب متيقظاً مشغولاً بحواسه ؛ فهو محجوب عن عالم الملكوت أما في النوم فإذا كان القلب صافياً في جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع في القلب شيء مما في اللوح .

والنوم بهذا المعنى مانع للحواس عن العمل ، لكنه ليس مانعاً للخيال عن عمله وتحركه ، فما يقع في القلب فإن الخيال يحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الذاكرة ؛ فإذا إنتبه الإنسان لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج ذلك إلى المفسر أو المعبر ويحتاج المفسر إلى محاكاة أي معنى من المعاني ، وعليه أن يرجع إلى المعاني المناسبة ، التي تربط بين المتخيل أو الرائي وبين تلك المعاني[11] .

فالنفس إذن تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التي تكون من جنسها إذا تخلصت من العوائق والشواغل البدنية ، فإذا ضعفت أو ماتت شواغل الإنسان الحسية إما بسبب النوم أو كثرة المجاهدة والرياضة النفسية ، فإنه قد يصل إلى الاطلاع على أمور غيبية .

أما الأنبياء[12] فإن لهم في النفس قوة أصيلة تمكنهم من الاتصال في يسر وسهولة بالعالم العلوي مع اشتغالهم في نفس الوقت بالبدن ، ذلك لأنهم يستطيعون اكتشاف العلم الغيبي في حالة اليقظة ، لأنهم مكلفون باصلاح النوع فتحصل لهم العلوم من غير تعليم بشري ، ويلي مرتبة الأنبياء ، مرتبة الأولياء ، لما لهم من قوى مكتسبة لنفوسهم يطلعون بها على المغيبات ، وليس هناك شواغل إلا شواغل الحس الظاهر والباطن .

والحكم على صدق الرؤيا يظهر بوضوح عندما تكون الصور الجزئية المشاهدة تناسب الخيال فتنطبع فيه وتنتقل هذه الصور من الخيال إلى الحس المشترك ، فتصبح وكأنها ماثلة للحس الخارجي ، فتدرك كما لو كانت موضوعاً للإدراك الحسي الخارجي ، وفي هذه الحالة تكون الرؤيا قوية غنية عن التعبير .

أما حالة كذب الرؤيا كما في الأحلام فلا تكون هناك مناسبة بين المعاني الكلية وبين الصور الخيالية الجزئية فتكون هذه الرؤيا من قبيل أضغاث الأحلام .

والرؤيا أو المبشرات عند حكومة الباطن لا يمكن حصرها لأنها دليل العمل اليومي ، وهي لذلك أقوى عندهم من اليقظة وأفضل منها .

---

(11) الروح لابن القيم ص 50 وما بعدها .

(12) المرجع السابق .

ومن الرؤى ما تفسر نفسها دون تأويل أو رمز وغالباً ما تكون سؤالاً من الرائي وجواباً من الرسول ﷺ مثل رؤيا أبي الحسن الشاذلي للرسول ﷺ[13] فقال له : « ادع الله أن يجعلني رحمة للعالمين » فقال له : « أنا هو ذاك يا علي ، والولي رحمة في العالمين » .

ونرى أن الرؤيا الصادقة ليست عامة بين الناس ، لأنها تحتاج إلى صدق المجاهدة ، وزهد في متاع الدنيا ، وإقبال على الله وإدبار عن الخلق أجمعين ، وأن أعلم العلماء عندما يكشف عنه الغطاء ، وتزال له الحجب ، فإنه يرى ويسمع ويشاهد ما لم يخطر بباله ، ولا اختلج به ضميره ولا أحس به فؤاده ، وما لا يستطيع له بغير الرؤيا معرفته ، فيعرف أن علمه الكسبي لا ينفعه في الدنيا والآخرة إذا لم يكن سلوكاً وأخلاقاً وقربة إلى الله .

الرؤيا وعلم الروح الحديث :

إذا عقدنا مقارنة بين ما ذكره أهل الباطن عن الرؤيا وما يراه علماء الروح في العصر الحديث عن الصور المرئية في حالة النوم لوجدنا أن هناك إتفاقاً عاماً في الرأي إذا قربنا بين المصطلحات التي يستخدمها كل فريق ، والتي لها نفس دلالات المعاني ، ولقد تعمدنا هذه المقارنة لإقناع أصحاب العقل بعدم إمكانهم الوصول إلى شيء بدون إستخدام طريق الله وهو الطريق المستقيم الذي به يحظى السالك باليقين والحقيقة .

فمثلاً نجد علماء الروح يقررون[14] أن العقل عندما يكون في حالة اللاشعور أي خلال عملية النوم الطبيعي ، فإن الشعور الباطني أو الشعور الروحي يصعد فوق عتبة الإدراك ، ونظراً لأن العقل غير مقيد في هذه الحالة فإنه يمكن للنائم ، في الرؤيا أو الحلم أو الوهم أو الجولان النومي Somnambulism ، أن يصل إلى حلول للمشكلات أو المعضلات التي يعجز عنها في حالته الطبيعية .

ويعبر علماء الروح المحدثون عن ظاهرتي الجلاء السمعي Clairaudience والجلاء البصري Clairvoyonce على أنها القدرة على الرؤيا بشكل يخالف العرف وبدون إستعمال الحواس العادية ، فيخترق البصر الحجب المعتمة ويرى ما وراءها متعدياً حدود الفضاء والزمن ، والجلاء السمعي خاص بالتأثرات الصوتية وهو كزميله الجلاء البصري

(13) د. عبد الحليم محمود ـ أبو الحسن الشاذلي ـ ص 15 أعلام العرب 12

(14) أحمد فهمي أبو الخير ـ الحياة بعد الموت ص 10 وما بعدها ص 80/21

ولا يتقيد بأبعاد الزمان والمكان .

وكذلك يرى علماء الروح[15] أيضاً أن من يستطيع أن يناجي الموت ساعة من الزمان ، لا بد وأن يكون طاهر القلب ، سليم العقل ، ذا عواطف قدسية فياضة ، ويعتقد جيمس فندلاي[16] أنه يوجد بالأرض قوم تؤهلهم طبيعتهم لأن يكونوا وسطاء صالحين بين عالمنا هذا والعالم الآخر ، ويرى أن الروحانيين هم أقدر الناس على الهيمنة على الوسطاء عن غيرهم .

فعندما تغشى الوسيط حالة الغيبوبة فمعنى ذلك أن روحه قد تزحزحت إلى خارج الجسم مؤقتاً ، وأنها تقف خارجه وانها عند ذلك تستطيع أن تستخدم حنجرته وأحباله الصوتية ولسانه ، وعضلات حلقه .

وإذا انتقلنا إلى عالم المثال عند الصوفية أو العالم الأثيري عند علماء الروح فاننا نجد كثيراً من التشابه في الرأي والتجاريب المختلفة رغم إختلاف الطريق والغاية والقصد ، فعلماء الصوفية يقولون أنه إذا خلصت نية المريد ، وصح قلبه ، وجسده تجلى الله له ، وأفاض عليه من نعمه ، فينطلق من حضيض ظلمات البعد والغفلات ، إلى روض جنات القرب والمشاهدات ، فإذا اتصل بالله استولت الغيرية على الحشا والأوصال ، وتجسد المثال أمام المثال ، ولا يزال السالك يرقى في المشاهدات حتى تصفو روحه ، فيرى النبي ﷺ يقظة بلا ريب ويفوز بالمخاطبة الشريفة[17] .

فعالم المثال هو العالم الأثيري ، أو عالم الأجسام اللطيفة ، وهو البرزخ الجامع لعالمي الأرواح ، والأجسام الكثيفة ، وهنا يأتي التأثير والتأثر بلغة الروحانيين ، والامداد والاستمداد بلغة الصوفية ، والأجسام الكثيفة عندهم مركبة ، أما الأرواح فبسيطة ، فلا رابطة بينهما إلا بعالم المثال أو العالم الأثيري ، ذلك أن عالم المثال هو الذي يحصل به التأثير والامداد والتأثر والإستمداد .

فما هو العالم الأثيري أو عالم المثال إذن : ـ

الجسم اللطيف في عالم المثال له وجهان ـ روحي وأرضي .

---

(15) سيرجيمس فندلاي ـ على حافة العالم الأثيري ص 87 وما بعدها ـ ترجمة فهمي أبو الخير

(16) المرجع السابق ص 62 ـ 88 .

(17) الشيخ ابراهيم حلمي القادري ـ مدارج الحقيقة ص 10 ـ 30 .

الروحي : مائل إلى الملكية وبه يسمو الإنسان ويصفو .
الأرضي : بهيمي شهوي يسفل وينزل به الإنسان ويخبو .
فالإنسان مركب من عوالم ثلاثة : -
1 - الأجسام الكثيفة (الجسم المادي أو الطبيعي) .
2 - الأجسام اللطيفة (الجسم الأثيري أو المثال) .
3 - الأرواح - (الروح - الروح الشريف) .

فإذا قام الجسم فإن الراقد على الفراش هو الجسم الكثيف والذي يسير في النوم هو الجسم اللطيف أو الأثيري أما الروح فهي الرابطة بينهما .

مفارقة الجسم الأثيري اللطيف :

الجسم اللطيف أو الأثيري أو المثال ، غير مرئي في اليقظة بالعادة ، ما لم يتلطف بالبصر فيراه ، وهو غير مقيد بالجسم المادي أو الطبيعي أو الكثيف ، ولا بعاداته ولوازمه فتراه إذاً فارق الجسم الكثيف أو المادي في حال النوم ، فإنه يطير في الهواء ، بل ويمشي على الماء ، ويجتمع بالأنبياء ، ويقطع المسافة بين الشرق والغرب في لحظات وغير ذلك من خوارق العادات وهذا ما يسمى عند علماء الروح بالجولان النومي والجلاء السمعي والبصري .

وكما يقول الصوفية إن الأنبياء والأولياء والصالحين هم الذين يستطيعون ذلك بما من الله عليهم من قدرات خرق العادات ، أما علماء الروح فيقولون أن أصحاب العواطف القدسية ، والقلوب الطاهرة ، يستطيعون أن يلطفوا أجسامهم الكثيفة فتصير مضاهية لأجسامهم اللطيفة ، وبذلك تظهر لهم الرؤى ويتمكنوا من الانتقال والجولان والجلاء البصري والسمعي ، بما يخالف العرف بدون إستعمال الحواس العادية .

فالواضح أن الاتفاق تام بين الصوفية وعلماء الروح اللهم في درجة المعرفة ، وطريقة الوصول ، وأسباب الكشف ، بل وفي الهدف والغاية .

فعلماء الروح يعتبرون عالم المثال أو العالم الأثيري ، عالماً غريباً لا يمكن تفهمه إلا عن طريق بعض التجارب العملية ، التي قد تنجح أو لا تنجح في استحضار بعض أرواح الأموات ، ورؤية غير المألوف وهم يبذلون جهدهم للاتصال بالعالم الأثيري بواسطة وسطاء ، يتمتعون بشفافية عالية ، وعواطف قدسية وقلوب طاهرة[18] .

---

(18) راجع كتاب د. رؤوف عبيد - الإنسان روح لا جسد .

إلا أن أهل الباطن يختلفون عنهم في الوسيلة والغاية ، ذلك أن كشفهم ووصولهم للعالم الآخر هو ثمرة رياضيات ، ومجاهدات ، وطاعات ، وقربات . . . فصارت نفوسهم مضاهية لأجسامهم اللطيفة ، وخرجوا من قيود المادة إلى عالم الحق ، وهم في جهادهم إلى الله لا يتفكرون إلا في القرب من الله ولا غاية لهم إلا الوصول إليه تعالى .

وإذا كانت غاية علماء الروح كشف أغوار العالم الأثيري ، ومعرفة كنهه ومحتواه ، فإن غاية الصوفية هي التقرب إلى الله كما سبق الإشارة وهي غاية أسمى وأنبل ، وأن ما يتكشف للصوفي من مشاهدات وفتوحات كثمرة لمجاهداته لا يهتم بها ، بل كثيراً ما يخفيها عن الخلق وذلك لأن هدفه أنبل ، وغايته أسمى ، وهو الوصول إلى الفناء في الله ثم البقاء مع الله ، وهذه غاية السالكين في الطريق .

كما أن الوسائل والغايات مختلفة بين الصوفية وعلماء الروح فغايات علماء الروح كشف العالم المجهول أو العالم الأثيري الذي لا يعرفون عنه شيئاً ووسيلتهم في ذلك إستخدام بعض الأناس الطيبين والهيمنة عليهم كوسطاء بين العالم المادي والعالم الأثيري . بل واستخدام بعض الأدوات المادية للوصول إلى ما هو فوق عقلي ومادي .

أما الصوفية فإنهم يسيرون حسب الشريعة الغراء متخذين القرآن دستورهم والسنة قانونهم ، والرسول ﷺ قدوتهم وإمامهم ، فهم في طاعة الله أبداً سائرين ، وسيلتهم مجاهدة وتقوى ، وأخلاقهم إيثار وتضحية وإنكار اللذات وعلمهم سماوي قرآني ، يؤدون ذلك في صبر وخشوع ، ورضا وتواضع باخلاص وتوكل وشكر ، ويتوجون عبادتهم لله بالفقر والزهد والتخلية من الأوصاف المذمومة والتحلية بالأوصاف المحمودة للوصول إلى الكمال الأخلاقي .

وخلاصة القول أنه إذا صدقت بعض تجارب علماء الروح كذبت أكثرها ، وإذا نجح بعضهم بمصادقة بعض معالم عالم المثال أو الأثير ، فشل أكثرهم في اجلائه ومعرفته ، ذلك أن الهدف ليس رضا الله وإنما إرضاء غرور الإنسان وشيطانه وما دام الأمر كذلك فإن تجاربهم لهو وعبث لأن طلبهم كمن أراد أن يحيك « سترته على يدي سروجي الخيول ! » .

أما طريق أهل الحق فواضح صريح فمن يتقرب إلى الله شبراً تقرب إليه ذراعاً . وهكذا إلى أن يكشف له ، ومن يتقي الله يعلمه الله ، وعلم الله يحوي السمٰوات والأرض وما بينهما .

فلا غرو إذن أن تكون الرؤيا عند الولي سمة من سماته ، وطريق يبصره بالمثالب والمحامد ، ويقيه من غوائل الشيطان ، وينقذه من براثن الطاغوت ، ويعلمه الحق المبين ويرشده إلى طريق الله الأمين .

الفصل الثاني

الطاعة

الطاعة هي سمة من سمات الولاية الكبرى ، وأساس الصدق في الطريق ، والطاعة هي إحدى دعائم الحكم في الحكومة الباطنية ، فهي تسير جنباً إلى جنب من الرؤيا والاخلاص والتقصير في احداها تقصير في غيرها ، فما قرره الله تعالى مع الشرائع هو لنفع الناس فلا مخالفة له ، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه ، فإذا لم يعمل به[1] إختل النظام وفسدت الأرض .

فالطاعة مسابقة بين العباد في الظاهر والباطن ، فكما أن بين الناس اختلافاً واضحاً في الطاعات الظاهرة ، فإن بينهم أيضاً إختلافاً واضحاً في الطاعات الباطنية ، فإذا طلب الإنسان أعلى الدرجات فعليه أن يجتهد حتى لا يسبقه أحد بطاعة الله ، وقد أمر الله تعالى بالمنافسة والمسابقة في الطاعات ، إذ قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ (الحديد : 21) ﴿ **وفي ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ (المطففين : 26) .

فالطاعة في الحكومة الباطنية منافسة شريفة صادقة للتقرب إلى الله إلى أن يصل العبد إلى الثبات في المرتبة ، فتتلاشى مشيئته في مشيئة الله ، وعند ذلك تصبح نفسه سلسلة ، سلمت واستسلمت وأصبحت في طاعة القلب وسلطانه ، وأصبح القلب خاشعاً لله ، صادقاً فيما يرد عليه من أنوار المنة الإلهية[2]

فالطاعة هي عدم الغفلة عن ذكر الله ، وهي في نفس الوقت عدم المخالفة

---

(1) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ ج 2 ص 42/45 مكتبة البابي .

(2) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ج 2 ص 103/104 مجمع البحوث الإسلامية سنة 1971 .

والاعـتراض فهي إيجـابيـة وسلبيـة في آن واحـد ، بمعنى وجـوب طـاعـة الله ، وسلب الاعتراض من النفس على أحكام الله وسنة رسوله ، فإذا اعترض مسلم على أمور أباحها الشـارع سيدنـا محمد ﷺ ويقـول مثلاً : «لو[3] كـان الحكم لي مـا أبحتهـا بـل حـرمتهـا وحجرتها » .

مثل هذا الاعتراض هو ترجيح نظره على نـظر الشارع وهـو جهل منـه لأنه يغضب إذا فعل الناس المباح من الأفعال ، بل وضلال وسوء أدب مع الله .

فـالطاعـة واجبة للرسـول ﷺ وهو القـطب الصمد لجميع الأقطاب في الحكـومـة الباطنية ، فهـو لا ينطق عن الهـوى ، ولا ينسى شيئاً ممـا أمره الله بتبليغـه ان هو إلا وحي يوحى .

وإذا كانت الطاعة في الفرائض والتكـاليف واجبة عنـد أهل الـظاهر والبـاطن على السواء نظراً لأنه جاء بهـا الوحي فنـأخذ بهـا بلا ميـزان ، لأنها من أمر الـرسول ﷺ ومن القرآن الكريم ، إلا أن مـا جاء بـلا واسطة يجب أن نـأخذه بميـزان ، فالعلم الإلهـامي ـ كالرؤيا مثلاً ـ تختلف عن القرآن الكريم والسنة من جهة التسليم به والطاعة له ، ذلـك لأن هذا العلم يجوز أن يكون اختباراً من الله أو إمتحاناً لا يأمن العبد من المكر فيه ، أمـا ما جاء به الرسول ﷺ فهو مرسل ليبين للناس الطاعات والمحـرمات فنحن بـه آمنون من مكر الله .

لـذلك فـإن أهل البـاطن يرون أن طـاعة المـريدين لشيـوخهم واجبة ، لأنهم إنمـا يأخذون عن الشارع ، لذلك نرى المريدين يبالغون في احترام مشايخهم حتى أنه ليؤثر عن ذي النون المصري قوله : طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه[4] .

وتفسير قول ذا النـون أن طاعة المريد لشيخه ليس المقصود منه الـطمع في إجـلال الشيخ وإنما إحساس الشيخ بأنه مسؤولية ملقاة على عاتقه ، فالشيخ إنما هو بمثابـة المدرب الذي يعلم الصبي العوم ، لذلك تلزم طـاعة الصبي لـه وإلا غرق وفـات وقت إنقاذه ، اما توكل الصبي على الله وهو لا يعرف العوم فهو تواكل بل وإهمال من جانبه يورده موارد التهلكة .

لذلك وجب على الصبي أن ينفذ تعاليم مدربه ولو وجدها على غير مـا يعرفـه ، أو

(3) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ ص 42 ـ 45

(4) نيكلسون ـ التصوف الإسلامي ـ ترجمة د أبو العلا عفيفي ـ ص 19

تخالف ما سبق له تعلمه ، فربما ما يرشد إليه أو يلقنه له ، لحكمة يعلمها وهو الخبير بفنون البحر ، المدرك لأغواره وأمواجه .

فإذا ركن الصبي أو السالك إلى تعليمات أو أوامر أعلى فإنه ربما يغرق أو لا يشق طريقه بنجاح ، لأنه لم يتعلم الطريقة المثلى لفن السباحة ، ذلك لأنه ربما تلقى تعليمات أو أوامر أعلى من مستوى إدراكه أو كان مقصوداً بها غيره ، أو لا تلائم حالته .

ومن[5] ناحية أخرى ينظر الصوفية إلى عمل الطاعات ، بعدم فهم أو بجهل على أنها من أكبر المعاصي ، ومن أعظم المخالفات ، في حين ينظرون إلى عمل المعاصي بجهل على أنها أخف في الضرر من عمل الطاعات بجهل ، لذلك كان من واجب الشيخ أن يحذر ويبين ويوضح الطاعات والمباحات والمحرمات ، حتى يجلو الطريق أمام المريدين فلا ينزلقوا إلى المحظورات وهم يؤدون الطاعات ، ولذلك يقول الشيخ شاه الكرماني « اعملوا الطاعات أنزه ما يكون ، وانظروا إليها أقذر ما يكون » .

فالخوف كل الخوف أن يقوم العبد بالطاعات ، ويرضى عن نفسه ويستشعر لذة انه قام بها على أكمل ما يكون ، فيمتلكه الغرور وتكبر نفسه عنده ، فيسرع إليها الفساد والعطب .

والطاعة في الحكومة الباطنية أساس من أسس البناء للسلوك والأخلاق الصوفية ، وهي مصدر من مصادر التشريع ، وترتبط بالرؤيا والكشف والفتح والمنن والعطايا الإلهية بل تربط باليقين والصدق والكرامة أو خرق العادة التي يحظى بها الأولياء دون سائر الخلق . فليس المهم إذن أن يؤدي المسلم التكاليف والفرائض الشرعية الظاهرة ثم يغتاب الناس ، ويظلم العباد ، وهذه طاعة ظاهرة ليس فيها إخلاص ولا نية ولا صدق ، وإنما على العكس من ذلك هي رياء أو كما يسميه الصوفية بالشرك الخفي ، ذلك لأن الطاعة ليست تظاهراً بالورع وإنما هي إخلاص نابع من القلب وجهاد في تجنب الرياء ، فالصوفي الذي يجد في نفسه حباً في هوى أو شهوة أو في حظ من الحظوظ ، فإنه يعمل على مخالفة نفسه لأنه يعرف أن ذلك طريق الحجب والغرور .

أما إذا صفت نفسه ظاهراً وباطناً ، وكان مطيعاً لله مخلصاً له في السراء والضراء ، فإنه يكون من أصحاب الحق ، ومن أهل الله ، وبذلك يكون صاحب بصيرة وكشف ،

---

(5) السلمي ـ طبقات الصوفية ـ ص 44

يبصر بنور الله ، ويرى بعين الله ، لأنه سائر في طريقه ، متعمد عليه ، ومسقط لتدبيره ، فيصبح مع الله كالميت في يد الغاسل ، هل يرى لنفسه شيئاً ، وكل لا ما يراه من الله ولله وفي الله ومع الله ، هذا هو الطائع الذي تخلى عن الأوصاف المذمومة ، وتحلى بالأوصاف المحمودة ، فكاشف وعاين وشاهد وراقب ، ففاض الله عليه بنعمه ومننه وفتوحاته وتجلياته وأسراره وأصبح بذلك عبداً ربانياً ، اصطنعه الله لنفسه فهو مراد الله . وهذه هي مرتبة من مراتب الولاية الكبرى .

الفصل الثالث

الإخلاص

من سمات الولاية في الحكومة الباطنية الاخلاص :

والإخلاص[1] عندهم أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه ، وسكونه وحركاته خالصة لله ، فلا يشوبه حظ نفس ولا هوى ولا خلق ولا طمع .

والإخلاص ضد الرياء ونقيضه ، فالمرائي يعمل ليرى ، والمخلص يعمل ليصل ، ويحدد الرفاعي طريقته على أساس الإخلاص والنية ، فيقول لمريديه :

طريقتي دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، ونفس بلا شهوة ، وقلب عامر بالمحبة .

فالنية هنا كمبدأ والإخلاص كسند ووسيلة ، وهذا هو أساس التشريع الإسلامي الذي جمع بين معاملات مع الله ومعاملات مع الناس .

والارتباط بين النية والإخلاص في الدولة الباطنية واضح بشكل ملحوظ ، فلا إخلاص بلا نية ، ولا نية بلا إخلاص ، فمقدار الإخلاص في النية يكون الثواب ويكون الترقي ولا بد في كل عمل يأتيه الإنسان بل وكل أمر يتركه من النية والإخلاص معاً وذلك لكي يترتب عليه الثواب والأجر من الله على هذا العمل .

فالنية والقصد والعزم والإرادة والمشيئة ، كل ذلك بمعنى واحد[2] ويمكن جمع هذا

(1) السلمي ـ طبقات الصوفية ـ ص· 106 ـ 110

(2) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ج 1 ص 132 مجمع البحوث الإسلامية .

المعنى في الحديث النبوي : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى . . . فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو أمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فالإخلاص مرتبط هنا بعزم وإرادة ومشيئة ونية العبد ، فإذا صحت جميعاً كان الإخلاص نوراً من نور الله استودعه ، قلب عبده المؤمن فقطعه به من غيره ، ذلك هو الإخلاص الذي لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله .

وكما أن في الرؤيا والطاعة درجات كذلك في الإخلاص درجات ، ويتفق الصوفية على أن الإخلاص على ضربين : إخلاص الصادقين ، وإخلاص الصديقين ، فالأول لطلب الأجر والثواب ، وهو يختص به ما دون الأولياء ، أما إخلاص الصديقين فهو إخلاص للحق مقصوداً به لذاته ، لا لشيء غيره ولا لشيء من غيره .

فإخلاص الصديقين عند الحكيم الترمذي(3) وأبي الحسن الشاذلي(4) مرتبة عالية جداً ، إذ يسلكون على طريق الإخلاص في الشريعة إلى منازل القربة ، فهم رجال جبلهم الله على حسن العبودية ، ومنحهم الله أسرار حضرته ، وأخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته .

فالإخلاص ظاهر وباطن ، فإذا كان الظاهر كالباطن اكتمل معنى الإخلاص وبذلك تنكشف للإنسان الأشياء على حقيقتها ـ وفي هذا المعنى يتمثل حجة الإسلام بأمر الرسول ﷺ بوجوب الطهارة عند النوم ، وذلك لينام الإنسان طاهراً ، وفي النوم يبقى الباطن وتنقطع العلاقة بالظاهر ، فذلك معناه أن الرسول يشير إلى طهارة الباطن أيضاً عند النوم ، بل يعتبرها ﷺ الأصل في الطهارة ، وهذا يدل على وجوب أن يكون الإنسان مخلصاً ظاهراً وباطناً ، أي أن يكون الإنسان مستعداً بقلبه لما يراه من رؤى في منامه ، أما عدم الإخلاص فينتج عنه ظلمة القلب وفساد الرؤيا .

فالحكومة الباطنية ترى في الإخلاص دليل العمل والعبادة ، فاستحضار الله في الركوع والسجود إخلاص ، وإستحضار الله في التسبيح والتقديس والتوحيد إخلاص له ، وإستحضار الله في التحيات والتعظيمات والحمد والشكر إخلاص له ، وإذا قلت أشهد أنْ لا إله إلا الله ، كأنك لا ترى شيئاً في السموات والأرض إلا ذاته النورانية ،

(3) د عبد الحليم محمود ـ أبو الحسن الشاذلي ص· 148 ـ 126 ، 129 أعلام العرب مجلد 72 .

(4) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ج 1 ص · 142 مجمع البحوث الإسلامية

إخلاص له ، فيكون الله دائماً معك بالمعونة والنصر أو المعاينة والمشاهدة على قدر هذا الإخلاص في عبادتك .

ويرى بعض الصوفية أن الإخلاص علم متضمن حقيقة الإسلام ، إذ لا يكون المسلم مسلماً حقاً إلا بإخلاص العمل ، لقول الرسول ﷺ « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله » فبدأ بالإخلاص وإشترطه للإسلام[5] .

ويرى الجنيد[6] أن الإخلاص ما أريد به الله في أي عمل كان ، وعن رويم : « الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل ، أي أن المرء يقبل ويطيع ويخلص في فعله وطاعته دون أن يرى إخلاصه وطاعته ، فهو بذلك يرتفع عن رؤية الفعل الخالص لله ، بل ومشاهدة طاعته وبذلك يكون الإيثار والحب بعيدين عن تدخل الذات والعقل وهذا منتهى الكمال الإنساني .

وفي هذا يرى أحد الصوفية أن الإخلاص في العمل هو ما لم يعلم به ملك فيكتبه ، وعدو فيفسده ، ولا النفس فتعجب به ، وبذلك يكون الإخلاص إفتقاراً من العبد إلى الله وحده والرجوع إليه في كل فعل وأمر . فالإخلاص إذن هو بعد عن الآفات ، وابتعاد عن اللذات ، وكان خالصاً مخلصاً لله ، وبذلك يستقيم عمل العبد ويصعد درجات علياً ، لأنه مخلص مطيع يحيا في رحاب الله ، فيكتمل بذلك ويصبح عضواً في حكومة الله ، ولياً من أوليائه فيصفو قلبه ، وتسكن نفسه ، فيكون ما يراه حقاً وصدقاً ، وما يبث إليه حقيقة وحقيقة ، فيلهم بالمكاشفات ، ويمن عليه بالمشاهدات وينعم بالتجليات ، وتهبط عليه الرحمات ، وهنا يتضح لنا كيف يستقى الولي عضو الحكومة الباطنية مصادر سلطاته الروحية ، وكما سبق الإشارة فهي الرؤيا والطاعة والإخلاص .

---

(5) أبو طالب المكي ـ قوت القلوب ـ الجزء الأول ص : 265 مطبعة الحلبي .

(6) الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص · 118 ـ راجعه محمود أمين النواوي ـ مكتبة الكليات الأزهرية عام 1969

الفصل الرابع

اليقين

إن اليقين بالله في كل شيء هو من استمدادات الولاية الواضحة ، وقد ورد لفظ اليقين في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتي اليقين ﴾ (الحجر : 99) .

ويشرح الشيخ[1] الأكبر هذا المعنى القرآني على أنه صعود الولي إلى المقامات العليا فيقول : « ويرتفع الشك والالتباس ، ويأتي اليقين ، كما قال تعالى بإجلاء هذه الأشياء وهذه هي القيامة الصغرى ضربها لك الحق مثلاً في هذا التجلي ، سعادة لك وعناية بك أو شقاوة آن ضللت بعدها » .

ويرى صاحب التعرف[2] أن اليقين هو ارتفاع الشك ويقسم اليقين إلى علم اليقين ، وعين اليقين وحق اليقين .

علم اليقين :

هو العلم اللدني أو العلم الإلهي الذي لا ريب فيه ، وهو منحة ربانية يحظى بها الأولياء والصالحون ، والمقربون ، والصديقون ، عن طريق الإلهامات ، والتجليات ، والفتوحات ، والكشوفات ، والمشاهدات ، والفيوضات ، والرؤى ، وهذا العلم سر الأسرار يودعه الله قلب عبده المخلص ، ولقد ذكر هذا العلم في القرآن الكريم في آيات عديدة : ﴿ عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ (الكهف : 65) .

---

(1) رسائل اس عربي ـ اصطلاح الصوفية ص 12 .
(2) التعرف ـ الكلاباذي ص : 122 .

وهـذا العلم وهبي ، وسيلته البصـيرة ، وهو غـير العلم الكسبي ، الذي وسيلته الإبصار ، والذي يحصل السالك عليه بالمجاهـدة والنظر ، بـطريق العلم والتلقين ، أمـا العلم الوهبي ، فهو علم يقيني ، وهو هبة ، أو منحة ، أو منة إلٰهية ، يهبها الله لمن يشـاء من عباده .

عين اليقين :

يرى أئمة الصوفية أن عين اليقين[3] هو العلم اللدني ذاته ، أو الهبة الربانية نفسها وعين اليقين واردة في القرآن الكريم بنفس المعنى ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين ، لـترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين** ﴾[4] .

حق اليقين :

هـو منتهى غايـة الواصلين للعلم الإلهي[5] ، فهـو الصدق اليقيني الـذي يشهـده السالكون في المقامات العليا ، ويراه الشيخ الأكبر هو ما حصله المريد الصـادق من العلم حسب مجاهداته ، وإخلاصه ، وطاعته ، وصدقـه ، بل حسب مـا قدر لـه الله أن يعاين من العلوم الإلهية[6] .

---

(3) رسائل ابن عربي ـ كتاب التجليات .

(4) التكاثر : 5 ، 6 ، 7 .

(5) رسائل ابن عربي ـ كتاب اصطلاح الصوفية

(6) رسائل ابن عربي ـ كتاب التجليات .

الفصل الخامس

الكرامة وخرق العادات

من استمدادات الأولياء الظاهرة خرق العادة أو الكرامة ، والكرامة هي خرق للعادة على غير المألوف والطبيعي ، فهي تدخل في باب المعجزات كطي المكان ـ أي الانتقال من مكان إلى آخر ـ يبعد عنه مئات الأميال في خطوة أو خطوات . والمشي على الماء ، وكلام البهائم ، وظهور الشيء في غير موضعه أو وقته ـ كالاتيان بفاكهة الصيف في الشتاء ـ وقلب الأعيان ـ كتحويل المعدن الخسيس إلى معدن ثمين ، كالرصاص إلى ذهب .

قال أبو يزيد[1] : « ليس الرجل من يسير مع القافلة ، إنما الرجل من ينام إلى الصباح ، فيصبح أمامها في المنزل » ، وعلامة العارف أن يكون طعامه ما وجد ، ومبيته حيث أدرك ، وشغله بربه .

والأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات ، كالمشي على الماء والهواء ، وطي الأرض ، وركوب السماء ، فإن أدعية الكفار تجاب ، والأرض تطوى للشياطين ، والهواء مسخر للطير ، والماء للحوت ، فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن المكر .

ويتمثل الصوفية بآيات القرآن الحكيم والقصص التي وردت عن الصالحين ، كقصة مريم حين قال لها زكريا : « أين لك هذا ؟ . . قالت : ﴿هو من عند الله﴾ (آل عمران : 37) . وقصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر في خرقه للسفينة

(1) المناوي ـ الكواكب الدرية جـ 1 ص 246 .

وهدمه للجدار ، وقتله للصبي ، وغير ذلك مما رواه لنا القرآن الكريم من خرق للعادة والمألوف .

والأخبار في هذا كثيرة ووافرة ، فنجد أنه من كرامات الصحابة العديدة ، قصة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين نادى قائد جيشه سارية وقال له وهو على المنبر ـ وكان سارية على بعد مئات الأميال يحارب جيش الأعداء ـ الجبل . . . الجبل « أي الزم الجبل ، وقد سمعه سارية على هذا البعد ، وأطاع أمره ، مما كان السبب المباشر في إنتصار جيش المسلمين[2] .

والكرامة للأولياء ، أما المعجزة فللأنبياء ، والولي الصادق لا يدَّعي النبوة أو يقول إنه صاحب معجزة ، وهو يدعو إلى الحق والصدق ، فإذا منّ الله عليه بكرامة أو خرق عادة ، فإنه لا يدَّعي لنفسه النبوة ، ولا يقدح في نبوة النبي أو الرسول أو يشك فيها ، لأنه يدعو إلى ما يدعو إليه النبي من الفضائل والآداب والمحافظة على السنن والأحكام الشرعية ، فإذا ظهرت على يده الكرامة ، قال : « ذلك تأييد لدعوة النبي وإظهار لصدق الرسالة .

وقد أجاز بعض أئمة الصوفية ظهور خرق العادة والمألوف لدى بعض أعداء الله ، وذلك بقصد الإستدراج لهم للوقوع في الهلاك والسقوط في براثن الشرك ، وخرق العادة بالنسبة لهم يولد عندهم الغرور والكبرياء والتعظيم والتعجب ، ويعتقدون كذباً أنهم منحوا هذه الكرامات لأنهم يستحقونها بأعمالهم ، ويرون أن لهم الفضل على الخلق بها ، مما يزيد في عذابهم في الدنيا والآخرة .

أما الأولياء فإذا ظهرت لهم كرامة من الكرامات ، إزدادوا لله تضرعاً وتذللاً وخشية وإستكانة ، بل وإزدراء لأنفسهم ، وتكون الكرامة بالنسبة لهم قوة تزيد من مجاهدتهم ، ونعمة تزيد من شكرهم ، وفضلاً من الله على ما أعطاهم من نعم .

وخلاصة القول أن للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات .

---

(2) المحب الطبري ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ـ جـ 1 .

الفصل السادس

الاصطفاء

معنى الاصطفاء هو الإجتباء ، فـالعبد المجتبي هـو منذالبدايـة ،أمـره رهن القبضة الإلهية[1] ، ويرى الحكيم الترمذي أن المجتبي هو المصطفى ، وهـو الذي في أول أمـره لم تزهد نفسه بعد بحيث تصلح لما أعد لها من مرتبة ، ولو لم يكن الأمـر كذلـك لحلت هذه النفس مقاماً عزيزاً مكرماً ، ولذلك فإنه يحال بين المجتبي وبين نفسه حلولاً كاملاً ، حتى لا تشـارك القلب في عطايـاه ، ويتولى الحق تعـالى هذه النفس بـالعنايـة ، ويفيض عليها قليلاً قليلاً على قدر ما تتحمله من أنوار العطاء الإلهي ، حتى يزال عنها الهوى ، وحـلاوة وشهوات الدنيا ، ثم يسكرها الله تعالى بحلاوة العطاء وحلاوة القربة ، وحينئذ تصل إلى مقام القربة العظمى ، فتحظى فيه بما يحظى بـه القلب ، فلا يصبـح هنا من حـائل بـين القلب وبينهـا لأنها أصبحت طائعـة ولا تقدر هـذه النفس أن تدنس القلب بشهـواتهـا ، حيث لا طلب ولا شهـوة لها ، لأن كـل شيء أصبح بمشيئـة الله وبقدرة الله ، وأصبحت هذه النفس سالمة مستسلمة لله ، وعندئذ تنتقل مع القلب من ملك إلى ملك ، ومن مرتبة إلى مرتبة حتى تصل إلى مقام الصديقية العظمى ، وهو المكان الذي رتب لهذه النفس بين يـديه تعـالى ، فتصل إلى هـذه المنزلـة ويفتح لهـا ، ثم ترجـع فتصير في قبضتـه سبحانـه وتعالى .

ويقـول الله في كتابـه العـزيـز : ﴿ **واجتبينـاهم وهـدينـاهم** ﴾ (الأنعـام : 87) فالاصطفاء اجتباء من الله وهداية منه تعالى ، ويقول الله تعالى أيضاً : ﴿ **الله يصـطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس** ﴾ (الحج : 75) .

---

(1) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ص : 118 .

الفصل السابع

الالهام

يقال دائماً أن الولي يلهم بالحق الهاماً ، ويرى الإمام أبو حامد الغزالي[1] أن معرفة الله ليست عن طريق ذكر الأسماء والصفات والحركات والسكنات وطرق التشبيه والتعليم ، والاستنباط والقياس ، فمهما كان هذا الطريق واضحاً فإنه قاصر عن معرفة الله ، بل أنه طريق وهمي ، وتشبيه لله بما ليس لله تعالى ، فالله حي وليس كالأحياء ، قادر ولكن ليس كالقادرين ، والسبيل الحق إلى معرفته باقرارك يعجزك عن معرفته ، كما عليك أن تعرف الحقائق التي يعرفها أهل الله وعباد الرحمن ، وهي أنهم لا يمكنهم معرفته على حقيقته عز وعلا ، فمعرفة الله بصفاته وذاته لا يعرفها إلا الله تعالى نفسه .

والعارفون من أهل الله يكشف لهم طريق الإلهامات ، أن الله تعالى فوق كل تصور وأكبر من كل تصوير ، وقد أشار إلى ذلك سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين قال : العجز عن درك الإدراك إدراك .

وقد يكشف لبعض الصادقين عن طريق الإلهامات بعض علم الله تعالى ، وعجائب قدراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة ، ولذلك يتفاوت الناس في العلم والمعرفة ، ولا تتوقف المنن الإلهية ولا العطايا الربانية ، فهي لا نهاية لها .

والعلم الإلهامي يختلف عن العلم الكسبي ، في أن الأخير يحتاج إلى درس وتحصيل وصبر حتى يحصل المريد فيه آلى بغيته ، أما العلم الإلهامي فهو نور يقذفه الله في

(1) الامام أبو حامد الغزالي ـ احياء علوم الدين جـ 8 ص ٠ 1342 ـ 1360

قلب المؤمن فيصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً ، والقلب الصادق مرآة مستعدة لأن يتجلى فيها حقيقة الحق بالأمور كلها ، وإنما لا يحصل القلب على العلم الإلهامي لأسباب عديدة هي[2] :

1 ـ إما لنقصان في القلب ذاته ، كقلب الطفل إذا لا تتجلى له العلوم لضعفه ونقصه .

2 ـ أو نتيجة لارتكاب الآثام ، وعمل المعاصي والخبث ، فيتراكم ذلك كله على وجه القلب ، فيمنع صفاء القلب ، ويمتنع بذلك ظهور الحق فيه لظلمته وظلامه .

3 ـ كما أنه لا تزول عن القلب هذه الظلمة ، إلا إذا أتبع الإنسان عمله بحسنة يمحو بها السيئة ، وبذا يشرق القلب ، وعلى العكس فإنه إذا تقدمت السيئة سقطت الحسنة .

فالإقبال على الطاعة والإعراض عن الشهوات ، هو الذي يجعل القلب صافياً ، مستعداً لأن يتقبل الحقائق .

4 ـ ألا يكون القلب محققاً للغايات الروحية ، أي لا يكون منصرفاً إلى التأمل في الحضرة الوجودية ، أو في الحقائق الإلهية ، فلا ينكشف له شيء من هذه الحقائق ، وذلك نتيجة لآفات في عمله وعيوب في نفسه ، أو مصلحة أو منفعة دنيوية يفكر فيها وينصرف ذهنه إليها ، ولو كانت ليست من المحرمات أو من قاذورات الشهوات ، إلا أنها مع ذلك تمنع الكشف الحقيقي .

5 ـ إذا كان الإنسان مقلداً ومحاكياً غيره نتيجة للتربية والإعتقاد ، ومن ثم تكون هذه الإعتقادات التقليدية والآراء المتوارثة قد جمدت في نفوس أصحابها ورسخت في قلوبهم ، فتصير حجاباً بينهم وبين إدراك الحقائق ، ويسمى ذلك بالحجب[3] ، وهذا ما نجده عند كثير من المتعلمين ؛ وأصحاب التعصب للمذهب ، وكذلك أكثر علماء الكلام .

6 ـ الجهل بالمطلوب ، فلا يمكن لطالب المعرفة أن يحصل على المعرفة إلا بالإعتماد على معارف أخرى ، فكل علم مراد لا يحصل إلا من علمين سابقين ويحصل من

(2) الامام العزالي ـ الإحياء ص 1342 وما بعدها جـ 8 .

(3) راجع بالكتاب الحجاب .

ازدواجهما علم ثالث[4] .

وعن العلم الإلهامي يتكلم الإمام أبو حامد الغزالي كلاماً يتبين منه أن العلوم الوهبية غير العلوم الكسبية ، وأن أهل الذوق غير أهل النظر والعقل ، ويقول في هذا : « لما أردت أن انخرط في سلكهم ، وآخذ مأخذهم ، وأغترف من البحر الذي اغترفوا منه ، خلوت بنفسي واعتزلت عن نظري ، وشغلت نفسي بالذكر ، فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي ، ففرحت بذلك وقلت أنه حصل لي ما حصل للقوم فتأملت فيه ، فإذا فيه قوة فقهية مما كنت عليه ، قبل ذلك فعلمت أنه بعض ما خلص لي ، فعدت إلى خلوتي واستعملت ما استعمله القوم فوجدت مثل ما وجده القوم فعاودت ذلك مراراً والحال الحال ، فتميزت عن سائر النظائر أصحاب الأفكار (العلماء) بهذا القدر ، ولم ألحق بدرجة القوم في ذلك ، وعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى .

وحجة الإسلام يفرق في الأحياء بين نوعين من العلوم ، علم اكتسابي وهو محل النظر والدرس والتحصيل ، وعلم إلهامي وهذا العلم ينقسم بدوره إلى قسمين إما أن يكون وحياً فهو للأنبياء والمرسلين ، وإما أن يكون إلهاماً فهو للأولياء والصالحين ، وهذا العلم الإلهامي منحة من لدنه تعالى ، ويعتبر من خوارق العادات ومن غير المألوف للطبائع البشرية ، ذلك ما نجده حقاً عند الأولياء والصالحين الذين يكتبون لنا كتباً ورسائل لا يمكن كتابتها ولا تدوينها في تلك الفترة القصيرة التي يعيشها الإنسان على الأرض ، وقد عاش الإمام الغزالي نيفاً وخمسين عاماً ، ألف فيها كتباً عديدة كالأحياء لعلوم الدين ، ومكاشفة القلوب ، والاقتصاد في الاعتقاد وغيرها كثير ، والأحياء وحده جمع بين علوم عديدة يعجز المرء عن معرفتها في مدة طالت أم قصرت ، ولا يمكن أن يقال إلا أن هذا الكتاب قد كتب بوحي إلهامي ، وكذلك الحال بالنسبة للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي الذي كتب لنا الفتوحات المكية ، وهي معارف وعلوم تحتاج عمراً لدراستها فكيف يتسنى لصاحبها أن يكتبها في حقبة يسيرة من الزمن إلا إذا كان إلهاماً .

ويقول الإمام الشعراني[5] : « انه لو كانت العلوم الإلهامية ـ ويسميها علوم الوهب في مقابل علوم الكسب ـ لو كانت هذه العلوم نتيجة للفكر أو النظر ، إذن

---

(4) الامام أبو حامد الغزالي ـ إحياء علوم الدين جـ 8 ص 1342 ـ 1360

(5) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ 1 ص : 3 ـ 11

لانحصرت في آقرب مدة ولكنها موارد تتوالى من الرب عـلى خاطـر العبد ، والحق تعـالى وهاب على الدوام ، فياض على الاستمرار ، والمحل قابل على الدوام ، فإما يقبل الجهـل واما يقبل العلم بحسب جلاء مرآة قلبه وصدئها ، فإذا صفـا القلب حصل لـه من العلم في اللحظة الواحدة ما لا يقدر على كتابته في أزمنة متطاولـة ، وذلك لاتسـاع ذلك الفلك المعقول وضيق هذا الفلك المحسوس ، ولذلك قال الله تعـالى لسيدنـا محمد ﷺ في كتـابه العزيز : ﴿ **وقل ربي زدني علماً** ﴾ (طه : 114) .

ويقصـد الإمـام الشعـراني بـه العلم الإلهـامي ، وليس العلم الكسبي ، ويفـرق الشعراني بين وحي الكلام ووحي العبارة والإشـارة ، فيقول : « يـا أخي هناك فـرق بين وحي الكلام ووحي الإلهام ، فإذا عرفت تكن من أهل ذي الجلال والاكرام » .

ويورد الشعراني نقلاً عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قوله : « إن جميع مـا أكتبـه في تـأليفي ليس هـو عن رؤيـة وفكـر وإنمـا هــو نفث في روعي ، عـلى يـد ملك الإلهام » .

وفي موضع آخر يقول : « إن جميع ما كتبته وأكتبه في هذا الكتاب إنما هو من إملاء إلهي ، وإلقـاء رباني ، ونفث روحـاني في روح كياني ، كـل ذلك بحكم الإرث لـلأنبياء والتبعية لهم ، لا بحكم الاستقلال »[6] .

ويقـول الشيـخ الأكـبر محيي الـدين بن العـربي في البـاب التـاسـع والثـمانـين من الفتوحات « واعلموا أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكري ، وإنما الحق تعالى يملي لنا على لسان ملك الإلهـام جميع مـا نسطره ، وقـد نذكـر كلامـاً بين كلامين لا تعلق له بما قبله ، ولابعده ، وذلك شبيه بقوله تعالى ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ (البقرة : 238) » .

ويقول في موضع آخر من الباب الثاني من الفتوحات : « أن العارفين إنما كانـوا لا يتقيـدون بكلام عـلى ما بـوبوا عليـه فقط لأن قلوبهم عاكفـة على بـاب الحضرة الإلهيـة ، مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أو بادرت لامتثالـه وألفته عـلى حسب ما حبب لهـا ، فقد تلقى الشيء إلى ما ليس من جنسه ، امتثالاً لأمر ربها » .

ويقول في الباب السابع والأربعـين : « اعلموا أن علومنـا وعلوم أصحابنـا ليست

---

(6) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ (الكبريت الأحمر هاشم الكتاب) ص : 2 ـ 11

عن طريق الفكر ، إنما هي من الفيض الإلهي ، والله أعلم » .

وفي هذا المعنى يفرق الشيخ محيي الدين بن عربي بين العلم النظري وبين العلم الإلهامي ، ويتجه إلى محاريب الله بروحه ومهابط إلهامه متفكراً في خلق السموات والأرض ، كما يتجه إلى طريق الذكر الدائم المطهر الملهم ، وفعلاً نفذ ابن عربي أفكاره عملياً ، قاصداً الوصول عن طريق السلوك والمجاهدة إلى العلم الإلهي وقد حدد لنفسه وللسالكين الطريق والغاية ، وأعلن أن هناك مسائل سبع يختص بعلمها أهل الحق قولاً وفعلاً ، والتي إذا عرفها السالك فإنه لا يقف أمامه شيء من علم الحقائق ، وهي معرفة التجليات ، ومعرفة كمال الوجود ، ومعرفة خطاب الحق ، بلسان الشرع ، ومعرفة الإنسان من جهة الحقائق ، ومعرفة كشف الكلام ، ومعرفة العلل والأدوية .

لقد سلك ابن عربي طريق المجاهدة والذوق عاملاً عابداً فلما وصل إلى نهاية المطاف ، كانت هناك مقابلة بينه وبين ابن رشد ، الذي ظل حياته يعتمد على البحث النظري في دائرة العقل العلمي ليصل به إلى الكشف والفتح . . . كانت مقابلة رائعة بين طريق النظر وطريق الذوق أو طريق العلم وطريق الإلهام .

سأله ابن رشد ليطمئن على طريقه في النظر : هل وجدت الأمر في الكشف والفيض نفس ما أعطاه النظر ؟ . . .

يرد ابن عربي في ثقة : نعم . . . ولا . . . وبين نعم . . . ولا . . مثل مابين المؤمن والكافر ، أوقال : بين نعم . . . ولا . . . تطير الأرواح .

ومعنى ذلك أن العقل قد يهدي إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون وعجائبه وآياته ، لكنه يعجز مع ذلك كعقل مجرد عن الوصول إلى القمة ، فينحدر وينزلق ويضل في المتشابهات والعبادات الربانية .

وإن ما قاله ابن عربي لابن رشد في هذا الرد يدل على أن المقدمات أو البدايات في طريق الذوق والنظر إنما هي واحدة ، فالتصوف والعلم النظري لا يوجد بينهما معارضة في الوصول إلى الله ، إلا أن النهايات ليست واحدة في كل الأحوال ، فالعقل عند ابن عربي قد يهدي إلى الله ولكن بعد الوصول إلى القمة ينحدر وينزلق ويضل في المتشابهات ، ولكن بالنسبة للعلوم الإلهامية فإن من يدخل الخلوة جاهلاً يخرج منها مرشداً ، ذلك لأن العلم الإلهامي إنما يقذف من الحق في قلب العبد ، فيصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً ، وشتان بين علم الله وبين علم غير الله .

الفصل الثامن

1 ـ العلم

يشترط في الولي الصادق العلم ويختلف العلم عند الصوفية ، عن العلم الحسي ، الذي هو حكماً بإثبات أو بنفي ، فيرى بعض الصوفية أن العلم علمان ، علم كسبي ، وهو يأتي عن طريق التحصيل ، والتلقين ، وعلم وهبي ، وهو ما يقذفه الله في قلب عبده فيصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً ، والأخير هو الذي يسمى عندهم بالمعرفة ، ويكون العلم الكسبي هو الطريق الموصل لمعرفة الشريعة الغراء ، عن طريق العقل ، وذلك للتمييز بين الحلال والحرام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما العلم الوهبي أو ما يسمى باللدني ، فإما أن يكون وحياً ويختص به الأنبياء وحدهم ، أو يكون إلهاماً ويختص به الأنبياء ، والأولياء ، وهذا العلم هو الوارد في قوله تعالى : ﴿ **نحن نعلمهم** ﴾ (التوبة : 101) وقوله تعالى ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ (العنكبوت : 43) وقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (فاطر : 28) ، وقوله تعالى : ﴿ **علم آدم الأسماء** ﴾ (البقرة : 31) ، وقول يوسف عليه السلام عن الله تعالى : ﴿ **علمني ربي** ﴾ (يوسف : 37) ، وقوله تعالى : ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ (يوسف : 6) ، وقوله عز وجل : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا** ﴾ (الأنعام : 91) .

2 ـ الكشف

صاحب الولاية يحظى بالكشف ويستعمل في المعنويات والحسيات ، فيقال كشف الشيء بمعنى أظهره ، ورفع عنه ما يواريه ، ويقال كشف عنه الهم أي أزاله[1] ، كما يقال

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ 2 ص · 216

عند الصوفية كشف عنه الحجاب ، أي حجاب الظلمة ، فرأى الحقائق فهي مكاشفة لا بعين البصر ، ولكن بعين البصيرة ، وقد وردت آيات قرآنية بهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله ﴾ (الأنعام : 41) وقوله تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ (النجم : 58) .

ويروى عن الإمام أبي الحسن الشاذلي أن بعض الناس زعم انه وصل إلى مقام المحبة لله ، وهو في درجة تغنيه عن اتباع التكاليف الشرعية ، ويرد عليه أبو الحسن رضي الله عنه فيقول[2] : سمعت هاتفاً يقول « إن أردت كرامتي فعليك بطاعتي ، وبالاعتراض عن معصيتي » .

فالكشف الحق هو الذي لا يعارض الكتاب والسنة ، والمريد الصادق هو الذي يدع الكشف ، ويتمسك بالكتاب والسنة ، والله سبحانه وتعالى ضمن للإنسان العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها عن طريق الكشف ولا الإلهام ، ولا الرؤى ، ولا المشاهدة ، وإذا لم يوافق الكشف الشريعة فلا ينبغي العمل به ، وهذا رأي الصوفية .

(2) د عبد الحليم محمود ـ أبو الحسن الشاذلي أعلام العرب عدد 72 .

الفصل التاسع

اسم الله الأعظم

يعتقد غالبية الأئمة والصوفية أن الأولياء والصالحين على علم بـاسم الله الأعظم يستخدمه كل منهم على قدر معرفته به ، وكما يفتح سبحانه وتعالى عليهم به .

والذي يتكشف له من أسماء الله شيء ويعلم شيئاً من حقائقها ، لا يجوز له الاخبار عنها لغير أهلها نظراً لأنه لا سبيل لتصورها على خلاف ما هي عليه وأنه لمن الجدير بالذكر أن العلماء والفقهاء عجزوا عن معرفة اسم الله الأعظم ، وذكر كثير منهم أن لفظ الجلالة هو (الله) وبعضهم قرر أنه موجود بين ثنايا فواتح السور ، فإذا أخـذ من حرف لا يشبـه صاحبه فجمعهن كان اسم الرحمٰن ، إذا عرف دعا به أحدهم كان الاسم الأعظم الـذي إذا دعا به أجاب .

وقـد حدد الحكيم الـترمذي[1] الـذين على علم بـاسم الله الأعـظم ، وهم عنـده طبقتان . . المقربون والصديقون . . . وأن علم الحروف المقطعة في فواتح السور القرآنية يقتصر معرفتها عليهما فمن فوقهما من الأنبياء والرسل ، أما غيرهم فعاجزون عن ذلك .

ولا شك أن فواتح السور تعد سراً مغلقاً حتى الآن على علماء الظاهر ، وقـد حاول كثير من المستشرقين سبر غورها ، وتفهم معانيها إلا أنهم عجزوا وضلوا سبيـل الرشـاد ، فـأصدروا آراء بعيـدة عن الحق ، فمن قائـل أنها ليست من القرآن في شيء ، وإنمـا هي رموز لمجموعات من المصاحف لأوائل المعلمين ، وهذا الرأي تبناه (نولديك) في كتـاب تـاريخ القـرآن وتبعه المستشرقـين (شفيلد ونول) في نفس الـرأي ، ورد عليهـما (لـوت

(1) عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ـ الجزء الثاني ص 66 ـ 184 مجمع البحوث الإسلامية

وفور) بأنه لا يعقل أن أولئك المسلمين الأتقياء ـ الذين نسخوا المصاحف ـ أن يضيفوا إلى كلام الله ما ليس منه أو أن يقرروا إضافة عليه ، وهناك آراء فجة أخرى لا تفيدنا في دراستنا[2] .

ولقد وردت هذه الفواتح في تسع وعشرين سورة من القرآن ، وقد رتب بعض الباحثين السور التي ابتدأت بها ووضع جدولاً لها ، وهذه الطوالع يستخدمها بعض السحرة في أوفاقهم وأحجبتهم ، وهي عبارة عن أربعة عشر حرفاً من الحروف الهجائية صيغت في أربعة عشر سورة من السور القرآنية المختلفة وهي :

ص ، ق ، ن ، طه ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حمعق .

ويبدو أن الصوفية على اختلاف طوائفهم يستخدمون لفظ الجلالة باعتباره اسم الله الأعظم ، فمن المعتقد انه اسم جامع لمعان أسماء الله الحسنى كلها ، سلطان الأسماء كلها عندهم ، فلو حذفت منه اللام أصبح (اله) وإذا خففت اللامين نطق « آه » وإذا حذفت منه اللام والهاء نطق باسم سرياني عظيم هو«آل» ،وإذا سقطت الألف واللامين نطق هو « هـ » وهو اسم ناطق من أسماء الذات العلية وجامع الأسماء ، وجميعها متعلق به .

ويرى بعض المتصوفة أن هذا الاسم صالح لشفاء جميع الأمراض ولا يجهر من تكشف له اسم الله الأعظم به ، إشفاقاً على من حجب عنه العلم ، فهو مأمور بكتمانه عن الآخرين ، وإن استخدمه لا بد أن يكون في عمل الطاعات وصالح الأعمال وإلا رفع عن صاحبه .

ويرى بعض الصوفية أن اسم الله الأعظم داخل الأشكال السبعة التي يستخدمونها كرقي للمرضى وأصحاب الحاجات من باب عمل الخير وعلاج الأمراض وقضاء الحاجات .

ويعتقد أهل الطريق الصوفي أنه عن طريق استخدام اسم الله الأعظم تحقق القوة الروحية في التصرف في الأشياء على نحو يماثل تغيير خواص المعادن من خسيسة إلى معادن ثمينة ، كتحويل الرصاص إلى ذهب ، ولذلك يسمون اسم الله اكسير الكمياء

---

(2) د محمد غلاب ـ هذا هو الإسلام ـ ص 107 ـ كتاب الشعب .

النفسية بما يحققه من معجزات مادية ومعنوية لا يصل إليها الاكسير المادي في تأثيره .

وواضح أن هذا النوع من الكمياء لا يمكن أن يستخدمه شخص عادي فلا بد أن يكون حاصلاً على مقومات العلم اللدني ، ذلك أن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى تختلف عنها تماماً إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة المعملية[3] .

(3) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية جـ 2 ص 66 ـ 85 .

الفصل العاشر

الفراسة والتوسم

التوسم بمعنى التفرس أي المعرفة النافذة ، أو البصيرة ، والمتوسمون هم المتفرسون في الدين والمتعرفون على حقائقه[1] ، والمتبصرون الذين يتثبتون في تفرسهم حتى يصلوا إلى الحقيقة . وقد ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ (الحجر : 75) ، كما روي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله عز وجل »[2] .

يقول أحد الصوفية عن نفسه خرجت إلى البادية على التجريد[3] ، فلما وصلت جلست على حافة بركة وحدثتني نفسي في شيء من العجب بما وصلت إليه ، وإذا بالشيخ الكتاني خلف البركة يناديني : يا فلان ، احفظ قلبك ، ولا تحدث نفسك بالأباطيل[4] .

ولما تقابل أويس القرني مع هرم بن حيان ـ رضي الله عنهما ـ قال أويس : « هرم بن حيان » ـ كيف أنت يا أخي ؟ ومن دلك على ؟ قال هرم . . . « الله » ، قال أويس : « لا إله إلا الله سبحان ربنا ، ان كان وعد ربنا لمفعولاً » . فقال هرم : من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ . . . وما رأيتك من قبل اليوم ، ولا رأيتني ؟ قال أويس : « نبأني العليم الخبير » عرفت روحي روحك ، حين كلمت نفسي نفسك ، إن المؤمنين

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ 2 ص 654 .
(2) رواه البخاري في الأدب والترمذي، والسيوطي في الجامع الصغير ص 9 .
(3) راجع التجريد والتفريد بالكتاب .
(4) الامام الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ـ ص 157 تحقيق د. عبد الحليم محمود

يعرف بعضهم بعضاً ، ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا[5] .

والفراسة ليست من عالم الغيب ، بل هي علم نوراني ، أودعه الله قلب عبده المؤمن القريب إليه ، والمشغول به ، والفراسة غير الظن لأن الظن يخطىء ويصيب ، حسب طهارة القلب وظلمته وكثيراً ما يخطىء وقليلاً ما يصيب ، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير من الظن ، وأخبر تعالى أن بعض الظن إثم ، أما أصحاب الفراسات فأثنى الله عليهم فقال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم** ﴾ (البقرة : 273) .

والمتفرس إذا جالس أحداً من الناس يطلع على سره ، فهو جاسوس القلوب ، فقد ألقى الله في روع سيدنا أبو بكر الصديق أن أحد الصحابة هو « بطن بن خارجة » فكان ذا حقاً وصدقاً ، فالذي ينظر بنور الله ينفذ في الأشياء والحجب فيرى ما هو مقدر ومكتوب[6] ، وكان أبو بكر رضي الله عنه في قمة المتفرسين حين استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما كانت صاحبة موسى عليه السلام صاحبة فراسة أيضاً ، حين قالت : « استأجره فهو القوي الأمين » ، وكذلك العزيز حين تفرس في سيدنا يوسف وقال لإمرأته « أكرمي مثواه » .

ويرى أئمة الصوفية أن الفراسة موهبة دائمة في جميع الأوقات ، يحظى بها الولي كمنَّة إلهية ، ونفحة ربانية ، ويستخدمها متى شاء ، فهي في أخلاق الصوفي وسلوكه وطبيعته ، لأنه ينظر بنور الله ، ولأن قلبه قد تطهر من الحظوظ والهوى فلم يعد ينظر ببصره ، وأنما ببصيرته ، ويلهم بالحق إلهاماً .

---

(5) روض الرياحين ص 182 .

(6) د. عبد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ـ جـ 2 ، ص 132 ـ 150



الباب الخامس

الدراسات الميدانية للحكومة الباطنية

مقدمة :

تبين من البحث المبدئي أن هناك رابطة وثيقة في الطريق الصوفي بين الشيخ ولي المنطقة وبين المريدين ؛ وهذه الرابطة تؤثر تأثيراً كاملاً في حياة المريدين الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والسلوكية ، وذلك من خلال مجموعة من العادات والتقاليد والقواعد السلوكية التي تنفرد بها جماعات الصوفية .

كما أنه اتضح من الدراسات الأولية أن مراسم الطريق الصوفي لا يمكن لباحث تفهمها إلا بالمعايشة الصادقة مع أفراد الطريق وذلك في ظل نظامهم ومن خلال معاملاتهم وتفهم قواعدهم ، وأتباع آدابهم والتعرف على مواجيدهم وأخلاقهم ، بدراسة ذلك حسب ما تقضي به الطريقة السيسومترية في البحث ، من دراسة العلاقات تجاه شيء ما ، والاستعانة أيضاً بالطريقة الانثربولوجية في الدراسات التحليلية المتكاملة والتي تدرس العوامل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وهذا اقتضى دراسة التقاليد والعادات والشعائر والطقوس الدينية لهذه الطوائف ، وذلك بقصد الوصول إلى نظرية متكاملة تفسر الحياة في ذلك المجتمع المدروس .

ولذلك كان من الضروري كمطلب أساسي وضع فرض مناسب يمكن اختبار مدى صحته فيما يمكن أن تكشف عنه الدراسة الحقلية والدراسات المقارنة من نتائج .

ولقد تجمعت لدينا من خلال دراستنا النظرية لحياة الصوفية طائفة من الشواهد تدفعنا إلى القول بوجود نوع من التنظيم السائد والذي تلتزم به الجماعات الصوفية في

حضراتها ومجالسها المغلقة أو المفتوحة أو في شؤونها الروحية أو في أمور معاشها الدنيوي .

لهذا فإنه يمكن أن تضع فرضاً إجرائياً أولياً ألا وهو افتراض وجود تنظيم من نوع معين في المنطقة المراد دراستها وأن هذا التنظيم لا يقوم بطريقة تلقائية أو عفوية بل يستند إلى تخطيط ووساطة مركزية من نوع ما .

وسنحاول في الدراسة الميدانية أن نترسم أسلوب جمع الوقائع الذي قد توصلنا لتحقيق هذا الفرض الأولي سواء بالطريقة الإيجابية أو السلبية عند الجماعات الصوفية ، أو عند غيرهم من المستجيبين لها أو المؤمنين بها ، وكذلك اعتبار رأي عامة الناس ومثقفيهم كما أنه بالإضافة إلى ذلك يهتم البحث بدراسة منابع أو مراكز السلطة الروحية في المنطقة ، وخفايا التفويض الجزئي أو الكلي لهذه الوساطة الروحية وشواهدها في المنطقة ثم التناسب بين السلطة الروحية ، وإنتشار التعليم والوعي الصحي فيها والازدهار الاقتصادي . والأوضاع الاجتماعية في المنطقة .

نبذة عن منطقة البحث

ثم اختيار منطقة وسط الدلتا لما تمتاز هذه المنطقة الواقعة بين دلتا النيل من ميزات عديدة منها أنها مركز إشعاع روحي ، وخاصة مدينة طنطا التي تعتبر بحق بؤرة هذا الاشعاع ، الذي يمتد تأثيره إلى المناطق الأخرى في دلتا النيل ، لذلك فقد اقتصر البحث على مدينة طنطا وضواحيها نظراً لما لوحظ أثناء الدراسة الأولية من أنها المصب الحقيقي لجميع الطرق في منطقة البحث ، والأكثر من ذلك أن جميع الطرق الصوفية بإختلاف تفرعاتها وطرائقها تتركز مراسمها واحتفالاتها بمولد النبي ﷺ في طنطا ، وتباشر شعائرها وطقوسها في هذه المدينة ، إلا أنه لا يمكن إغفال ما لمدينة دسوق من أهمية وإنتقال عدد كبير من المريدين للطرق الصوفية المختلفة للاحتفال بمولد الدسوقي[1] بعد إقامة شعائرهم واحتفالاتهم بمدينة طنطا ، وكذلك مدينة الزقازيق الذي بها ضريح سيدي أحمد أبو خليل[2] .

لذلك فإننا نأمل أن يكون البحث قد نجح في دراسة المنطقة دراسة متكاملة عندما تم فيه التركيز على منطقة طنطا وضواحيها مثيراً إلى مدينتي دسوق ودمنهور كمراكز إشعاع فرعية أخرى في المنطقة تصلح أن تكون دراسة مقارنة .

---

(1) سيدي إبراهيم الدسوقي : هو قطب مدينة دسوق وتنتسب إليه الطريقة البرهامية توفي في 676 هـ

والحقيقة أن أصحاب الولايات الموجودة أضرحتهم في مدينة طنطا وضواحيها يمثل تعداداً كبيراً لا نظير له في مدينة أخرى في حجم وكثافة سكان طنطا ، وهذه الملاحظة يمكن أن تبعث على التساؤل الذي يحتاج إلى تفسير ، إذ يربو عدد ضرائح الأولياء على مائة وعشرة ضريحاً بالإضافة إلى ما ذكره الشعراني[2] عن الأولياء الذين لم نجد لهم أثناء البحث ضرائح أو زوايا في منطقة البحث ، ويصح أن يكون سبب ذلك راجعا إلى اكتشاف أهل المنطقة أن هذا الولي أو ذاك ليس له مرتبة في الولاية الروحية ، أو لأن ولاية السيد البدوي وأتباعه في المنطقة قد محت هذه الولايات الصغيرة إذ أن المعروف أن المحك في شهرة الولي هو ما يتناقله الناس عنه من خوارق العادات ، ومن واسطته في استجابة الدعاء ، وحل المشاكل ، ونصرة المظلوم ، وشفاء المرضى ، وزواج العانس ، ورد المسروق والكشف عن الجناة ، وغير ذلك كثير ، فالولي بهذا المعنى رجل مبارك قريب من الله في حياته وبعد إنتقاله .

وفي الفصل التالي سنعرض لتاريخ مدينة طنطا في العصور القديمة ثم نتتبع تاريخها حتى وصول السيد البدوي إليها والإقامة بها ثم نعرض لما حدث فيها من تغيير في النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية .

---

(2) سيدي أحمد أبو خليل : تنتسب إليه الطريقة الخليلية

الفصل الأول

طنطا كمركز للاشعاع الروحي

كانت طنطا من المدن المصرية القديمة ، وكانت تدعى عند المصريين القدماء باسم تنتاسو ، وعند الروم باسم - تانيشاد - ، وقد وردت في الكتب العربية باسم طنشتا ، وطنتدا ، وطندتا ، ثم أسقطت الدال للتخفيف ثم فخمت التاء فصارت طنطا ، وهي اسمها الحالي .

وقد ذكر أيضاً أن طنطا كانت مدينة قديمة ذات أسقفية ، وكان اسمها القبطي طنيطاد ، وقد عرفت قبل الفتح الإسلامي باسم « طنثتا » ، ثم حرف الإسم بعد الفتح العربي فصار « طندتا » ، وفي القرن الخامس الهجري عني الفاطميون بها عناية كبيرة ، واتخذوها عاصمة لأحد أقاليم مصر السفلى ، الإثنين والعشرين التي قسمت إليها الدلتا في عهد - الخليفة المستنصر (427 - 487 هـ) وعرف أقليمها باسم « الطندناوية »[1] .

وقد عرفت طندتا في عهد المماليك البحرية باسم « طنت » وكانت إحدى قرى الغربية في أقاليم الدلتا الإحد عشرة .

وقد ظهرت الميزات الفريدة لموقع طنطا في العصور القديمة السابقة للإسلام إذ ورد في المراجع القديمة[2] انها كانت مركزاً لأسقفية كبيرة ، ومن ذلك يتضح أنها كانت ذات موقع استراتيجي ممتاز كمركز من مراكز الاشعاع الروحي .

---

(1) جمال الدين أبو المحاسن الأتاكي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة حـ 7 هامش ص 253 وزارة الثقافة .

(2) د. سعيد عبد الفتاح عاشور - أحمد البدوي شيخ وطريقة 1967 دار الكتاب العربي .

وعادت طنطا إلى اقليم الغربية في عهد محمد علي ، وصارت عاصمة لأحد أقسام الغربية ويؤيد ذلك ما ورد بالنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . كما سبق الإشارة .

وكانت مدينة المحلة الكبرى قاعدة لأقليم الغربية من أيام الفتح العربي لمصر فلما عين عباس حلمي الأول سنة 1246 هـ مديراً للغربية قبل ولايته على مصر ، سعى إلى جده لنقل قاعدة المديرية من المحلة الكبرى إلى طنطا ، فوافقه جده وأصبحت طنطا 1252 هـ ـ 1836 ميلادية قاعدة للمديرية وقد زادت شهرة المدينة بحلول ولي الله تعالى أحمد البدوي المتوفي سنة 675 هـ ، فإن وجود قبره بها كان سبباً في زيادة شهرتها ، حيث يحتفل فيها سنوياً باحياء ذكرى مولده العظيم ، ويقصدها خلق كثير للتبرك بهذا الولي والذي له في مصر ضريح تعلوه قبة عظيمة لا تخلو يوماً من الزائرين ، وله مسجد من أكبر المساجد[3] الحافلة بطلبة العلم والمصليين ، وإليه ينسب المعهد الديني الأحمدي ، وطنطا من أكبر مدن مصر وأشهرها ، ومما زاد في أهميتها التجارية وقوعها في وسط الوجه البحري ، ووجود محطة كبيرة بها شبكة السكك الحديدية المنتشرة في الوجه البحري .

ويرى الدكتور سعيد عاشور[4] أنه من سوء حظ سخا « أن السيد / أحمد البدوي لم يتجه إليها واتجه إلى طنطا بالذات » . ويقول أن « سخا في عصر السيد / أحمد البدوي أي في القرن السابع الهجري أو الثالث عشر الميلادي ، كانت من أكبر مدن الغربية وبها دار الوالي ، وكما ذكر ياقوت الحموي[5] في معجم البلدان أن سخا كانت عاصمة الغربية منذ العصور القديمة وكان اسمها في عهد البطالسة (اكزويس) .

وواضح أن إقامة سيدي أحمد البدوي بطنطا ـ كما أجمعت كل المراجع ـ جعل هذه القرية الصغيرة تتنفس ، وتنتعش ، بل وتنمو في سرعة مذهلة ، فكثر النازحون إليها ، والراغبون في الإقامة بها ، وقد ذكر السخاوي[6] بالحرف الواحد « جاء الحجاج هذه السنة لسيدي أحمد البدوي من الشام وحلب ومكة أكثر من حجاج الحرمين » . وهذه طبعاً مبالغة من السخاوي وربما ذلك راجع إلى أسباب أخرى كاجتياح الأمراض والأوبئة بمكة أو المدينة في هذه السنة بالذات .

---

(3) جمال الدين الاتاكي ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة هامش ص 352

(4) د سعيد عبد الفتاح عاشور ـ أحمد البدوي شيخ وطريقه ـ 1967 دار الكتاب العربي ص 241 وما بعدها

(5) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان جـ 3 ص 196 طبعة بيروت .

(6) السخاوي ـ السير المسبوك في ذيل السلوك ص 126 .

لمحة تاريخية عن التصوف في عصر البدوي :

يرجع تاريخ الجامع الأحمدي بطنطا إلى زاوية بناها السيد / عبد العال تلميذ البدوي وخليفته بأمر من السيد البدوي ثم كان عبد السلطان « الأشرف قايتباي » وقد ذكر ابن اياس في بدائع الزهور ، انه تم تجديد مقام سيدي أحمد البدوي وأعاد بناؤه وتوسيعه .

وفي عهد السلطنة العثمانية ـ والتي كان ولاتها شأنهم شأن حكام المماليك يتقربون من المتصوفة ـ عملوا على إنشاء المدارس في عهدهم لتدريس مختلف العلوم ، وبخاصة التصوف ، الذي كثر مريديه وقد مال الناس إلى الاعتكاف ، وذلك لأن حالة العالم الإسلامي تدهورت ، وتقلصت الحضارة الإسلامية في الأندلس ، علاوة على هجوم التتار واكتساحهم الشرق .

وما إن، تجمعت العوامل كلها من حروب ، وعسف ، واستبداد ، وقلق نفسي ، حتى ضاق المسلمون ، في العالم الإسلامي بالحياة الدنيا وانضموا إلى دولة الصوفية يعيشون في رحابها ، عسى أن تجلب لهم استقراراً وهناء ، وتبشرهم بجنات ونعيم .

ويقول الدكتور توفيق الطويل في ذلك[7] أنه كان من الطبيعي لهذه الدولة أو الحكومة الباطنية أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها ، ثم يخرج من ذلك إلى تصنيف هؤلاء الحكام في طبقات يتزعمها القطب ، وتليه فئات من الأوتاد ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ، ويسيّرون دفتها وينظمون أمورها ،ويعوضون الناس عما يلقونه من شر في دنياهم ، ونحن لا نوافق على أن أهل الحق قد قامت دولتهم بطريق تعويضي ، أو أنها اصطنعت لظروف سياسية أو اجتماعية ، وإنما يمكن القول أن الناس يتجهون إلى الله عندما يمتحنون بالابتلاء والاختبار والامتحان فيعرفون أن طريق الله هو الطريق الحق .

وفي عهد علي بك الكبير الذي كان رجلاً طموحاً[8] تحولت الزاوية الصغيرة إلى مسجد ضخم يضم قباباً ثلاث ـ القبة الكبرى للسيد / أحمد البدوي والقبة الغربية للسيد / عبد العال خليفته ـ والقبة الشرقية للشيخ مجاهد ـ شيخ المسجد في عصر علي بك الكبير ، وأنشأ في واجهة الجامع سبيلاً ، وفوقه مكتب للصبية وقيسارية عظيمة ،

---

(7) توفيق الطويل ـ التصوف في مصر ابان العصر العثماني .

(8) سعيد عبد الفتاح عاشور ـ السيد/ البدوي شيخ وطريقة دار الكتاب العربي ص 246 وما بعدها

أصبحت فيما بعد مركزاً تجارياً محلياً ، ثم أوقف وقفين كبيرين على المشروعات الخاصة بمقام السيد / أحمد البدوي بطنطا

وقد جعل علي بك الكبير كل ذلك وقفاً على الخلفاء لسيدي أحمد البدوي وخدم المقام ، والعلماء وللقائمين به ، والمجاورين بالمسجد المشار إليه والعواجز والأيتام ، وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية ونصت الوقفية أيضاً على أن يكون عدد المجاورين أربعمائة يقطنون بمسجد السيد / أحمد البدوي ويتعاطون جراية يومية قدرها ستة أرغفة خبز للمجاور الواحد وفول نابت بعد صلاة الصبح وشربة بر ـ وفتة السيد / البدوي المشهورة ـ ويدخل فيها الأرز واللحم والمسلى والبصل والحمص .

وقد بذر على بك الكبير البذرة الأولى لنشأة المعهد الأحمدي في طنطا ـ إذ انه قد رتب عدداً من الفقهاء والمدرسين المعيدين للتدريس بمسجد السيد / البدوي فأمه الطلاب والمجاورين والوافدين من كل ناحية ، وخصص لهم خبزاً وجرايات وحساء يصرف لهم يومياً .

وفي عهد الخديوي عباس حلمي الثاني 1328 ـ 1911 م أنشأ المعهد الأحمدي تحت إشراف الإدارة العامة للمعاهد الدينية بالأزهر بعد أن ضاق الجامع الأحمدي على طلابه .

الفصل الثاني

مفهوم الولاية بالمنطقة

اتضح من الدراسة الحقلية بالمنطقة أن للولاية مفهوماً في رأي غالبية المريدين وهو أن الولي عارف بالله من أهل الحق ، كما أن لها مفهوماً آخر في رأي عامة الناس ، وهو أن الولي شخص قريب من الله مستجاب الدعاء وهو إنسان غير عادي ، وهو واسطة أو شفيع يلجأ إليه الناس في الملمات والكوارث وهو على قدر كبير من العلم والمعرفة ، حتى ولو ظهر لهم عكس ذلك .

فالمجذوب الذي يهذي ، والدرويش الذي يسأل الناس ، هو ولي في رأي العامة لأنه شخص غير عادي يملك مقومات خرق العادة ولأنه من أحباب الله حتى ولو جاءت كراماته من قبيل المصادفات أو نطق بلا قصد أو اكتراث ومع ذلك يقرن اسمه بالولاية .

كما يطلق لفظ الولي على نصير المظلوم ، والغريب ، وصاحب الدعاء المستجاب ، ومعالج الأمراض والعقم ، وميسر زواج العانس ، وصاحب المقدرة على حل المشاكل ، وحل المربوط ، وقاضي الحوائج ، ومكتشف السرقات ، وطارد المحبة أو مقويها ، ومبطل السحر ، وميسر العسر ، وغير ذلك من الحاجات التي يمكن أن يحتاج إليها الناس ، ويلبيها لهم ولي المنطقة .

وفي رأي العامة أن كل ولي يختص بكرامة معينة ، يشتهر بها ، حسب ظروف المنطقة ، وحاجة الناس ، ونوعي البيئة التي يمكن أن تفيد من وجوده بها[1] .

ولا تقف كرامة الولي في حياته ، بل تمتد بعد مماته ، بل أن بعض الناس يزداد

(1) راجع علاقة البيئة بالولي ـ بالكتاب .

إيمانهم بكرامة الأولياء بعد موتهم ، عن إيمانهم بهم ، في حياتهم .

ولقد اتضح من الملاحظة بالمشاركة أن كثيراً من المعمرين يدلون بقصص عن خوارق العادات للأولياء الموتى الذين عاصروهم في حياتهم وجميعها تبدو كالأساطير ، وهذه الكرامات يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ، وترتبط بالولي صاحبها مما يزيد من إعتقادات الناس في ولايته .

ومن ناحية أخرى فإن المريدين في الطرق الصوفية بالمنطقة والذين قمنا بإستجلاء رأيهم في موضوع الولاية قد أجمعوا على أن الولي الصادق يمتاز بإثنتي عشرة علامة هي : -

العلامة الأولى : « أن يكون عارفاً بالله ، أي صاحب علوم كشفية ، وأسرار ربانية وفراسات وبصيرة صادقة ، وهو ما يمتاز به صاحب العرفان الصوفي .

العلامة الثانية : « أن يكون مراعياً لأوامر الله » يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحافظ على التكاليف والفرائض الشرعية .

العلامة الثالثة : « أن يكون متمسكاً بسنة النبي » لأن الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة وهو قطب الأقطاب .

العلامة الرابعة : « أن يكون دائم الطهارة » فلا يعقل أن يكون ولياً لله وهو غافل عن الحق تعالى ، غير مستعد لأنواره .

العلامة الخامسة : « أن يكون راضياً عنه الله تعالى » أي يكون مراداً لله أي مقرباً إليه تعالى وهي منزلة عظيمة .

العلامة السادسة : « أن يكون موافقاً لما وعد الله به » أي مسقطاً للتدبير مع الله ، متوكلاً بالكلي عليه تعالى في كل أمر وفعل .

العلامة السابعة : « أن ييأس بما في أيدي الناس » وهذا ما معناه الزهد في الخليقة ، والقرب من الحقيقه ، أي اقبال على الله وادبار عن الناس .

العلامة الثامنة : « أن يتحمل أذى الناس » وذلك بالإحسان إليهم ، ونسيان ظلمهم ، والإستغفار لهم .

العلامة التاسعة : « أن يكون مبادراً لأمر الله » فلا يتأخر في طاعة الله ، ولا يتغافل عن واجب من الواجبات .

العلامة العاشرة : « أن يكون شفوقاً على خلق الله » فيساعد المحتاج ، وينتصر للمظلوم ، ويدفع المكروه ، ويجري في مصالح الناس .

العلامة الحادية عشرة : « أن يكون متواضعاً للناس » فلا يتكبر ولا يغتر بعلمه ، وتقربه من الله .

العلامة الثانية عشرة : « أن يكون عالماً بأن الشيطان عدو كما أخبره به الله » خوفاً من الوقوع في براثن الشيطان فيحذر من الخواطر الشيطانية ويخالف هوى النفس وحظوظها .

ولذلك فإن الشيخ المربي في الطريق الصوفي يعتبر في رأي المريدين من الأولياء حتى ولو ظهر منه بعض تصرفات أو سلوك شخصي يراه عامة الناس عيباً أخلاقياً ، أو نقصاً في شخصيته أما المريدون فينظرون لشيخهم المربي على العكس من ذلك ، فيرون أنه لا يصح إنتقاده ظاهراً أو باطناً لأن معنى ذلك الخروج عن الأدب ، وتقصير عن معرفة مكانة الشيخ ، وضعف في أخلاق المريد .

وقد تم إجراء بحث على مائة من مريدي الطريق من الذكور والإناث لقياس المواقف بين الشيخ والمريد ، واتضح من نتائج البحث أن العلاقة التي تربط المريد بالشيخ (الولي) متعددة الجوانب فهي علاقة أبوية ، وروحية وشخصية .

ويعتقد المريدون أن الشيخ أو الولي قوة لا تقهر بل ان المريدين يشعرون انهم في مدرسة أستاذها الوحيد هذا الشيخ ، ويؤمن المريدون إيماناً جازماً ان شيخهم من رجال الغيب ، من الأقطاب أو الأبدال أو من أهل الباطن أو من الزاهدين وجميع هذه المسميات تدخل في باب الولاية العامة .

الفصل الثالث

قطب المنطقة

اتضح من البحث الميداني أن قطب المنطقة هو السيد / أحمد البـدوي ، وأن أولياء المنطقة جميعاً وزرائه وأتباعه وأنه منذ مجيئه إلى هذه المنـطقة أي إلى مـدينة طنـطا في القرن السابع الهجري خضع له جميع الأولياء الذين عاشوا قبله بـالمنطقـة وتتلمذ عليـه من بقي بها ، وخرج مهاجراً إلى منطقة أخرى من لم يجد له مكاناً فيها .

لذلك فإننا سنحاول أن نرجع إلى تاريخ السيد / أحمـد البدوي وسبب إنتقـاله إلى المنطقة ، ونتتبع صفاته ، وأخلاقه ، وكيانه وعاداته ، وما كتب عنـه في المصادر التـاريخية القديمة والحديثة علاوة على ما يقوله أهل المنطقة وكبار السن والعامة وما نقلوه عن آبـائهم وأجدادهم عن البدوي رضي الله عنه .

سيدي أحمد البدوي

أجمع الباحثون والصوفية أن سلسلة نسب السيد / البدوي تمتد إلى الإمـام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، كما قرر بعض الكتاب أن أسرته من أصل قريش وأنها انتقلت إلى مدينة فاس بالمغرب عام 73 هـ وقد أحبهم أهلها واعتقدوا فيهم إعتقاداً زائد[1] .

وقد ولد البدوي عام 596 هـ وقيل أن أمه قـد رأت في المنام عنـد ولادته من قـال

(1) هو الشيخ المعتقد الصالح أبو الفتيان أحمد بن إبراهيم بن محمد س بكر الفاسي الأصل المعروف نأبي اللثامين، السطوحي سبة إلى السطوح الذي أقام به 12 عاماً ـ ولـد سنة 596 وتـوفي عام 675 هـ عن 81 عـاماً ودفن بطنطا وضريحه مشهور، ويزار من العام والخاص ويقام له مولد

لها : « ابشري فقد ولدت غلاماً ليس كالغلمان »(2) .

وقد رحلت أسرة البدوي إلى مكة وهو ما يزال صبياً لم يجاوز السابعة من عمره ولكن هذه الرحلة تركت أثراً كبيراً في تكوين شخصية البدوي ، حيث أنهم قد مروا بمصر ومكثوا بها أكثر من خمس سنوات ، ويرى بعض الباحثين أن البدوي أحب مصر وأحب أهلها ، بدليل رجوعه إليها والإقامة بها بعد ذلك .

وفي مكة أشتهر السيد / البدوي ، وسمي العطاب ، والغضبان ، ثم حدث له حال ، وتغيرت أحواله ، واعتزل الناس ، ولزم الصمت ، وكان لا يتكلم إلا بالإشارة ، وقد أمر في منامه ، أن يرحل إلى طنطدتا أو طنطا كما تسمى في الوقت الحاضر . وبشر بحال سيكون له فيها شأن عظيم .

ويقول بعض الباحثين أنه سار وأخوه السيد / حسن من مكة في شهر بيع الأول إلى العراق ودخل بغداد ثم جالا في البلاد ، ثم عاد حسن إلى مكة وحده وتأخر السيد / أحمد البدوي في الرجوع معه .

ويقال أن هناك أسباباً حدت بأحمد البدوي ألا يرجع مع أخيه من العراق ويذكر الإمام الشعراني هذه الأسباب فيقول : وفي العراق تلقاه أشياخها منهم عبد القادر الجيلاني المتوفي 560 هـ . وأحمد الرفاعي المتوفي 570 هـ ـ وبطبيعة الحال المقصود باللقاء عن طريق الإلهام أو بالتوجه إذ الزمن مختلف ـ وعرضاً عليه مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب ، ليختار أي مفتاح يشاء ، فقال لهما : « أنا لا حاجة لي بمفاتيحكما . . ما أنا آخذ المفتاح إلا من الفتاح وفي العراق ذهب السيد / أحمد البدوى إلى « فاطمة بنت بري » في أم عبيدة ، وكانت إمرأة ذات حال عظيم ، وجمال بديع ، تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبها أحمد البدوي حالها وتابت على يديه(3) ويجوز أن يكون سبب تخلف السيد / البدوي عن أخيه قد جاء بأمر علوي وجه إليه ليؤدب هذه المرأة التي كانت تسلب الرجال الصالحين أحوالهم ، ثم يروي لنا بعض المؤرخين إنتقاله إلى طنطا فيقول : « ثم رأى الهاتف في منامه يقول له : « يا أحمد سر إلى طندتا ، فإنك تقيم بها » وتربي بها رجالاً وأبطالاً عبد العال ، وعبد الوهاب ، وعبد المجيد ، وعبد المحسن ، وعبد الرحمن »وهم تلامذة البدوي المدفونين حالياً بطنطا .

---

(2) الشيخ جمال الدين الأتاكي ـ النجوم الزاهرة ج 7 ص 352/ 253 .

(3) الشعرائي ـ طبقات الصوفية ـ أحمد البدوي ص 158 .

ومن العجيب أن البـدوي دخل طنـطا ولم يكن يعـرف أحـداً من أهلهـا ، ولم يشر أحد من الباحثين من أنه قد زارها في حضوره إلى مصر مع أسرته قبل التوجه إلى مكة .

ويرى صاحب نـور الأبصار أن البـدوي نزل في بيت ابن شحيط ولم يشر أحـد انه سبق أن عرفه وأقام البدوي على السطح ، وذلك لعدم احـراج أهل البيت ، وكان يمكث أربعين يوماً فأكثر لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ثم نزل مرة إلى قـربة فيشـا وتورمت عينـاه ، فوجـد صبياً وطلب منه بيضة ليضعهـا على عينيـه ، فقال لـه الصبي : ـ وكان عبد العال (تلميذه) ـ أحضر لك البيضة وتعطيني الجريدة الخضراء التي معك ، فقال له نعم . . . فلما طلب الصبي من أمه البيضة رفضت ، فـرجع فقـال لـه الشيـخ : « ائتني بواحدة من الصومعة ، فـذهب الطفـل وأحضرها لـه ، ومن يومهـا لم تنقطع الصلة بـين البدوي وعبدالعـال »[4] وهذا يدل عن أن السيد/ البدوي كان من أصحاب الفراسات .

صفات البدوي :

كـان رضي الله عنه[5] غليظ السـاقين ، طـويل الـذراعين ، كبـير الـوجـه أكحـل العينين ، طويل القامـة قمحي اللون ، وكان في وجهـه ثلاث نقط أثـر جدري قـديم في خده الأيسر ، وعلى أنفه شامتان من كل ناحية شامة سوداء أصغر من العـدسة وكـان بين عينيه جرح موسى وكان رضي الله عنه إذا لبس ثوباً لا يغيره إلا لغسل ، ولم يكن لديـه إلا ثوباً واحداً ، يغسله ثم يلبسه مـرة أخرى ، حتى يـذوب ، وهذا كـان من أخلاق سيـدنا عمر بن الخطاب ، ولم يقل أحد أن سيدي أحمد البدوي كان قذراً في ملبسه ومظهره ، إلا الحاقدين عليه والطاعنين في الصوفية .

وكان يعلو وجه سيـدي البدوي مسحـة من الهيبة والجـلال ، ولصوتـه غير الجهـير نبرات حادة حاسمة ، وكان مرحاً إذا شاء المرح ، لا يثنيه عن عـزمه إلا القضـاء المبرم ، ولا تأخذه في الحق لومة لائم ، ضنينا في اخباراته ، حريصاً في عباراته ، يعمل في الخفـاء وقل أن يعمل في الظهور ، يغلب في كلامه المـزاح ولا يقول إلا حقـاً ، ويتحدث بـاللغة العامية ، ويقول الشيخ أحمـد حجاب وهـو من المعاصرين ومن مـريدي سيـدي البدوي المشهود لهم بالزهد والصلاح .

---

(4) هذه القصة توضح الأسباب الظاهرية لرحلة البدوي إلى طنطا وتعاونه مع تلميذه عبد العال ـ كما توضح أيضـاً ولاية البدوي وكراماته .

(5) المعروف أن سيدي أحمد البدوي كان ملثماً ولم يكن يـظهر وجـه لأحد ويجـوز أن تكون صفـاته هـذه عن طريق التوجه أو الالهام أو عن طريق الرؤيا .

« قلت لسيدي البدوي مرة : أن « فلاناً » غاضب مني من أجل كذا وكـذا فأجبني بقوله : ينفلق[6] .

أسماء البدوي :

سمي بالسيد ، وهو أجل القوم شهرة لانتمائه إلى النبي ﷺ ولزعامتـه ورياسته كما سعى بالقطب النبوي لأن صفاته وحياته ومنزلته ومقامه تنبىء عن قطبـانية بـدون واسطة للنبي ﷺ ، كما سمى بالزاهد لـزهده إذا مـات ولم يترك شيئـاً وأبو فـراج لكشفه الغمـوم والأزمـات وهو عـطاء من الله ، وأبو العبـاس يعني الأسد ، والعـطاب لأنـه يعـطب من يؤذيه ، والقدوس أي ـ الـطاهر ، والصـامت لأن ذكره كـان صامتـاً ، وله أسـماء أخرى كثيرة .

صفات البدوي :

1 ـ كان ملازماً للصيام وكان يطوي أربعين يوماً لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً .

2 ـ وكان يقول : ركعتان بالليل خير من ألف ركعة بالنهار .

3 ـ كان يحب التوسل أي يسأله الناس وهذه سنة من سنن الله تعالى وكان متخلقـاً بأخلاق الله تعالى .

4 ـ كان يسعى لقضاء مصالح الناس وكان يسعى لخـدمة غـيره من الناس ، عن خلوص قلب وسلامة ضمير .

ومن الجدير بالذكر أن حبه لتأدية مصالح الناس ناتج من أخلاقـه العربيـة ، حيث كان من عرب البادية الذين يعتزون بشخصيتهم ، ويـرى الشيخ أحمـد حجاب أن سبب ذلك يرجع إلى « لذة روحية » عند الـذين اختارهم الله لاجراء الخير على أيديهم للعباد ، من قضاء خدمة إلى تيسير مصلحة للمسلمين أو خلاف ذلك .

كراماته :

يـروى عن السيد / البـدوي عديـد من الكرامـات ويتناقـل جمهـور النـاس هـذه الكرامات إلى وقتنا الحاضر وسنقتصر في سرد بعض منها مما له علاقـة ببحثنا ، ومن هـذه الكرامات : ـ

---

(6) تعبير « ينفلق » هو في تصورنا ما فهمه عن طريق الرمز أو التوجه ويصح أن تكون العبارة بمضـاها لا بلفـظها ، فمن غير المعقول أن يصدر عن سيدي البدوي لفظاً جارحاً وهو ولي من أولياء الله

1 - أراد عبد المجيد شقيق سيدي عبد العال خليفة البدوي الأول أن يرى وجه السيد / البدوي ، فقال له سيدي البدوي : (وكان ملثماً كما هو معروف عنه) « نظرة برجل » . فقال عبد المجيد : «أرني وجهك ولو أموت » فكشف سيدي أحمد البدوي وجهه ، فصعق ومات على الفور(7) .

2 - أراد الشيخ دقيق العيد وكان من العلماء في عصر البدوي أن يفضح البدوي ويكشفه أمام الناس وكان ينكر طريقته ويعتبرها مخالفة للشرع « فحضر مرة مجلسه فقال له البدوي : « اسكت وإلا أطير دقيقك » . ودفعه دفعة واحدة فوجد الشيخ دقيق نفسه على جزيرة مجهولة لا يعلم لها طولاً ، ولا عرضاً ، وأخذ يستغيث ويبتهل إلى الله فوجد رجلاً له هيبة وجلالاً فسأله عن حاجته ، فأفضى الشيخ دقيق ما كان بينه وبين البدوي فأشار عليه أن يذهب إلى قبة في الجزيرة حيث كان البدوي يصلي فيها العصر بجماعة من الرجال ، وقال له إذا صليت معهم ، فقبل يد البدوي ، واكشف رأسك وقل له أستغفر الله ، وأتوب إليه ولا أعود لما صدر مني ، فإذا رأى ذلك منك ، فإنه يردك لموضعك » وكانت الجزيرة كما يروى بعض الصوفية تبعد 60 سنة ، كما قال بعضهم أن الذي قابله فيها هو سيدنا الخضر عليه السلام(8) .

ولقد أطاع الشيخ دقيق العيد ما أشار له الرجل ، وفعلاً سامحه البدوي ودفعه دفعة لطيفة وقال له اذهب فإن عيالك في انتظارك ولم يشعر دقيق العيد إلا وهو واقف بدار بيته .

3 - يروى أن أحد علماء المحلة حضر لمصر ، ووجد الناس مهتمين بأمر البدوي ومولده والنزول في المركب فأنكر ذلك وقال : « هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء الناس بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بالبدوي ، فقال شيخ واقف « سيدي أحمد البدوي ولي عظيم » فقال الرجل · « في هذا المجلس من هو أعظم منه مقاماً » ويقصد بذلك شخصه ثم دعاه أحدهم ، فأكل سمكاً فدخلت في حلقه شوكة ، ولم ينفع معه علاج ، وأصبح حلقه كخلية النحل ، وفقد شهيته ، وأمسى لا يلتذ بطعام أو شراب ، وبعد تسعة شهور تذكر سبب بلائه فقال لأسرته : احملوني إلى قبة سيدي أحمد البدوي . . . وهنا قرأ سورة

---

(7) لأن الولي يرى بنور الله ولا يمكن أن يراه على حاله النوراني إلا من كان قدمه عال في الولاية الروحية أما العامة فانهم فيذهلوا من هذه الأنوار فأما يحدثوا وأما ينتقلوا .

(8) الشعراني ـ الطبقات الصوفية ـ جـ 1 ص 158 ـ 164

يس وعطس عطسة . . . فخرجت الشوكة مغمسة بالدم من حلقه ، وتاب بعدها عن الغيبة في سيدي البدوي[9] .

4 ـ أنكر الشيخ خليفة وهو من مواطني الغربية حضور أهل بلدته مولد البدوي ، فوعظه الشيخ الشناوي وكان من أتباع البدوي ، فلم يرجع فشكاه[10] للسيد / أحمد البدوي فقال له : ستطلع له حية (أي مرض جلدي) ترعى في فمه ولسانه ، فطلعت له من يومها وأتلفت وجهه ومات بها .

5 ـ « روى لنا الإمام السيوطي في حسن المحاضرة ، أن من كرامات السيد أحمد البدوي المعروفة عنه ، ما حدث مع المرأة التي لاذت به لاسترجاع ولدها ، الذي أسره الافرنج ، فأحضره السيد / البدوي إليها مكبلاً في قيوده » .

وتدل هذه القصة على قدرة البدوي رضي الله عنه على طي المكان ، وقلب الأعيان ، وهي من كرامات الأبدال في الحكومة الباطنية .

6 ـ قصة الرجل الذي مر به السيد / البدوي ، وهو يحمل قربة لبن ، فأومأ إليه بأصبعه فانكسرت القربة ، وانسكب اللبن منها ، وخرجت منها حية ، وقد انتفخت ، وهذا دلالة على أنه مكشوف عنه الحجاب . ومن أهل البصيرة النافذة .

7 ـ قصة الحجر الأسود الذي شاع أن عليه قدم النبي ﷺ ، وأرسل أحد السلاطين الجند لإحضاره فلم يقدروا على ذلك ، وخافوا ورجعوا . وهذا الحجر ما زال موجوداً بضريحه يشاهده الزوار ، وهذه القصة تدل على أنه من الأولياء الكمل ، أصحاب التمكين ، والمقامات الرفيعة .

8 ـ يتجمع الناس في مولد البدوي حول « صاري » خشبي عال ، وذلك في الليلة الختامية للمولد ويؤكد المجتمعون أن الصاري نفسه يهتز ويميل مع مئات المنشدين والذاكرين ، ولهذا تكتظ ساحة الصاري بما يزيد على ربع مليون شخص في انتظار زيارة الرسول ﷺ ، والسيد / البدوي لهذا المكان ، وهذا اعتقاد شائع عند طوائف الصوفية ، بل ولدي جمهرة الناس أيضاً .

وهناك كرامات أخرى للسيد / أحمد البدوي لا تحصى ولا تعد ، موجودة

(9) وهذا مؤيد بالآية الكريمة : ﴿إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

(10) الشكوى هنا بطريق غير حسي أي بالالهام أو الرؤيا أو التوجه .

بالمراجع ، وكتب الصوفية ، وأيضاً من أقوال المريدين ، الذين تمت مقابلتهم ، ويجتمع في السيد / أحمد البدوي كثير من الاعتقادات ، والكرامات ، مثل شفاء المرضى ، وتفريج الكروب ، ونصرة المظلوم ، وقضاء الحاجات ، ولا ينقطع عن زيارة ضريحه سيل الزوار ، طوال اليوم ، منذ الفجر حتى صلاة العشاء ، ويصلي الجمعة بمسجده ما يربو على 20 ألف من المسلمين من مختلف أنحاء الجمهورية ومن البلاد الشقيقة والإسلامية .

وبعد الصلاة تقام حلقات الذكر من طوائف الصوفية المختلفة - وتسمع من جمهور المصلين من يردد : « نظرة يا سيد » . . . « مدد يابو فراج» . . « سايق عليك النبي » يا عم يا سيد . . . « يا مجيب الأسارى من بلاد النصارى » . . « يا بدوي جاب اليسرى » (المقصود الأسرى) .

وينسب خلفاء السيد / البدوي له بعض الكرامات الغير موافقة للشرع ، كإحياء الموتى ، كما نسبوا إليه أيضاً ، أنه يدري ماذا يكسب فلان ، ويدري الأرض التي سيموت عليها فلان ، وهذه مبالغات تم استبعادها من البحث .

الفصل الرابع

الجامعة السطوحية

تعد الجامعة التي أنشأها السيد / البدوي والتي يمكن أن ندعوها الجامعة السطوحية ، من أكبر أعماله على الإطلاق ، فقد خرجت وما زالت تخرج حتى الآن علماء الفقه والدين الكثيرين ، والذين أناروا لنا طريق المعرفة والحق والدين وقد تتلمذ على السيد / البدوي أساطين الفكر والعلم في عصره ، وخرجت مدرسته مدارس جديدة افتتحت لها فروعاً في كثير من أنحاء المعمورة ، تهدي الناس إلى الرسالة المحمدية وتدعو إلى الدين الحنيف والفضيلة والحق والأخلاق .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن هذه الجامعة « لقد كان السطح جامعة الهداية ، وهي جامعة عالمية ، تقبل كل التلاميذ من جميع الأقطار وتصدرهم إلى جميع الأقطار أيضاً ، وقد تخرج منها الشيخ البعلبكي ، وقد حمل الدعوة إلى الشام ، وكذلك الشيخ عبد الله اليونيني ، والشيخ خليل الشامي ، والشيخ المتكروري المدفون بالشام ، والشيخ نعمة الصفدي ، والشيخ عز الدين الموصلي ، ومن اليمن الشيخ علي الكبراوي ، والشيخ علوان وممن أرسلهم السيد / البدوي إلى اليمن الشيخ هوسج المصري ، وإلى مكة الشيخ بشر وغيرهم كثير[1] .

أما تلامذته من غير أصحاب السطح فكثير أيضاً كالفرغلي بأبي تيج ، والتعلبي ، وإبراهيم المتبولي بالاسكندرية ، وعز الدين الشوفي ، ومحمد المنير بالقاهرة ، والصامت وعلي والمجذوب ، وعلي شعيب ، وبجامع الواسطي سيدي الوراق ، وعلي العريان ،

---

(1) د عبد الحليم محمود ـ السيد/ أحمد البدوي ص 61 وما بعدها دار الشعب سنة 1969

وعلي المجذوب ، وكذلك سيدي علي باب الله ، ومحمد التمار ، ومحمد الغربل ، وسيدي غوث بني عدي بالصعيد ، وبالشام الجيلاني ، والشيخ محمد الشناوي بضواحي طنطا .

ويرى كثير من الجمهور بمنطقة البحث أن الأولياء بالمنطقة هم أتباع السيد / البدوي الذي هو قطبهم ونصيرهم ورئيس حكومتهم وأنهم يستمدون منه تعاليمهم وعلمهم .

ومن البحث الميداني اتضح أن عدد الأولياء بمدينة طنطا نفسها ثلاثة وثلاثون ولياً ، بخلاف الضواحي والذين يزيد عددهم على سبعة وستين ولياً يختص كل منهم بكرامة معروفة عنه ويمتاز بها عن غيره من الأولياء .

ومن الملاحظ أنه بالرغم من وجود ضريح السيد / البدوي بالمنطقة ، فإن هذا لا يمنع الناس من الاعتقاد في إتباعه ووزرائه من الأولياء وعلى العكس من ذلك تماماً ، فإن مريدي البدوي في اعتقاد العامة أيسر في إستجابة الطلبات ، وفي حل المشاكل ، ونصرة المظلوم ، وفك المربوط ، لأن البدوي في اعتقادهم قطب عظيم (وان مدده عال) وانه للوصول إليه يتطلب شفاعة بعض أنصاره وأتباعه .

وأشهر تلامذة السيد / أحمد البدوي سيدي عبد المتعال الأنصاري ، وهو خليفته وواسطته والشفيع لديه ، وذلك فإن الناس الذين يزورون ضريح البدوي لا يفوتهم قراءة الفاتحة وزيارة ضريحه الموجود بجامع البدوي بل وطلب حاجتهم منه باعتباره خليفة البدوي وتلميذه ونائبه .

ويلجأ الناس إلى اتباع البدوي من الأولياء حسب ما يشتهر عن كل منهم من كرامة ، ويهرع إليهم الناس لحل مشاكلهم الاجتماعية والصحية والاقتصادية وغير ذلك .

فمثلاً نجد سيدي عز الرجال[2] مشهور عنه شفاء أمراض الأطفال ، أما سيدي مرزوق فإنه من أهل النجدة ، وأما سيدي محمد البهي فيقال أن مسجده الحالي ما زال يصلي فيه سيدي البدوي حتى الآن ، وأن سيدي علي الحامولي مشهور عنه زواج العانس وكذلك يردد الزوار قولهم : « سيدي يا حمولي » ، جوزني وأنا أجيب لك شمعة طولي » .

كما يشتهر عن سيدي أحمد البابلي الذي كان مقرئاً في حضرة البدوي ، بنصرة

(2) هذا ما يتناقله الجمهور في منطقة البحث .

المظلوم ويردد الزوار قولهم : « يا بابلي كن باب ـ لي » ، كما يشتهر عن سيدي يونس ماضيها بقضاء الحوائج ، ويظهر ذلك في التعبير الشائع بين الناس : « يا ماضيها اقضيها » .

وهناك علاقة واضحة بين الحرف الغالية في المنطقة موضوع البحث وبين كرامة الأولياء ، فالمجتمع المدروس يغلب عليه طابع المجتمع الزراعي التجاري ، والمعروف أن الحرفتين غير محدد دخول أصحابها فمثلاً يقال أن دخل صاحب الأرض الذي يزرعها غير معلوم مستقبلاً ، لأن ذلك يرجع إلى ـ (البركة) ـ فهناك أرض طيبة إذا جاء موسم الحصاد فإن صاحبها لا يغل منها دخلاً مناسباً بل على العكس ربما يجني خسارة ، وذلك نتيجة آفة تصيب المحصول ، في حين أن هناك أرضاً متوسطة الخصوبة بجوار الأرض الطيبة يغل صاحبها منها محصولاً وفيراً ويرجع صاحبها ذلك إلى الاعتقاد السائد في بركة ولي المنطقة .

ومن ناحية أخرى فإن التجار يحاولون كسب رضاء أولياء المنطقة وذلك بتوزيع الصدقات ، وإقامة الزينات ، في موالدهم ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وذلك للتقرب بشتى الوسائل إليهم ، اعتقاداً في بركتهم ، مما يزيد في الرزق ، وتحقيق الكسب الوفير فيما يعرضونه من سلع .

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاعتقاد ، يخدم طبقة التجار فينتشرون في الموالد الكبرى والصغرى ، حول ضرائح الأولياء يعرضون بضائعهم ، ويجنون من ذلك ربحاً وفيراً ، وذلك نتيجة لاعتقاد جمهور المشترين أن هذه السلع قد حظيت ببركة أولياء المنطقة .

والمعروف عن المجتمع الزراعي أنه عندما يتحقق للفلاحين ، عائداً طيباً من بيع محاصيلهم ، فإنهم يهرعون إلى ضراح الأولياء وخاصة البدوي للشكر على ما أفاض الله عليهم من نعم بواسطة شفاعته ، ثم يقبلون على شراء جميع احتياجاتهم من كساء وأدوات ومشروبات ، ولعب لأطفالهم ، وهم سعداء لأنها كما يقولون « من عند البدوي » أو من « عند أتباعه » ويرددون ذلك عندما يرجعون إلى قراهم ونجوعهم قائلين (أنا جبت لك . . . من البدوي كذا) . ولا يذكرون اسم التاجر أو الصانع .

ومن ناحية أخرى نجد أن التجار أنفسهم يتعاملون مع بعضهم البعض ، ليس بلغة البيع والشراء ، وإنما بعبارات كلها مستقاة من بركة الأولياء .

فـالتعامـل التجاري إذن بـركة من بـركات السيـد البـدوي ، وليس لأن الأسعـار رخيصة أو مناسبة ، فالتاجر يروج سلعته على أساس مخاطبته للمشتري بأنه يتوجب عليـه أن يحصل على بركة من البدوي ، سواء كان ذلك من الحمص أو الحلوى ، أو الملابس ، وفي نفس الوقت يقوم المشتري بشراء احتياجـاته عـلى أساس أنها من بـركات البـدوي ، وليس لأن سعرها مناسب أو رخيص .

فلغة **التعامل إذن قائمة** على أساس البركة التي بواسطتها تروج السلع ، وليس على أسـاس أنها **نوع ممتـاز ذا** أسعار منـاسبة ، ومن هـذا يتضح أن نـظرية العـرض والطلب ونظرية النافسة ونظرية السوق وغير ذلك من النظريات الاقتصادية لا تنطبق على المجتمـع الصوفي .

الفصل الخامس

الطرق الصوفية وتفرعاتها بمنطقة البحث

تنتشر كثير من الطرق الصوفية بمنطقة البحث في الموالد والأعياد الرسمية ، رافعة راياتها ، مرددة أناشيدها ، داعية بأورادها ، مرتلة أناشيدها ، ويبنى كل شيخ طريقة سرادقاً يستقبل فيه المريدين والأصدقاء والأحباء . . . وتقدم الطعوم والمشروبات ، ويستمع الحاضرون إلى آيات القرآن الكريم ثم يشتركون في الحضرات ومجالس الذكر .

وترجع أغلب هذه الطرق إلى الأقطاب الكبار الرفاعي ، والجيلاني ، والبدوي والدسوقي ، والشاذلي رضي الله عنهم جميعاً . . . ولكن يجدر الإشارة إلى أن بعض المشايخ قد انفصل عن الاصل ، واستقل بطريقة اقترن اسمه بها ، كما أن بعضهم قرن اسمه بالطريقة الأصلية كما سنبين في الجدول الموضح فيما بعد .

والذي يهمنا هنا أن هذه الطرق مع تباين راياتها ، واختلاف مسمياتها ، لا تتنافس في اظهار أفضليتها على الطرق الأخرى ، ولا تسخر طريقة من أصحاب طريقة أخرى كما يلاحظ لدى أصحاب الصناعة أو التجارة الواحدة ، وإنما يسود الوئام والود بين مريدي هذه الطرق ولا يطعن طريق في طريق آخر ، وهذه هي الطرق الذي قام الباحث بملاحظتها بمنطقة البحث[1] :

1 ـ الطريقة الأحمدية (لولي الله أحمد البدوي) ويتفرع عنها الطرق الآتية :

1 ـ المحمودية   2 ـ المرازقة

(1) المصدر الاتصال الشخصي (بمطقة البحث) .

3 ـ الكناسية
4 ـ المنايفة
5 ـ السلامية
6 ـ الحلبية
7 ـ التسقانية
8 ـ الشعبية
9 ـ الشناوية
10 ـ السطوحية
11 ـ الامبابية
12 ـ البيومية
13 ـ الزاهدية

2 ـ الطريقة الشاذلية (لولي الله أبي الحسن الشاذلي) ويتفرع عنها الـطرق الآتية :

1 ـ المرغنيه
2 ـ القاسمبة
3 ـ المدنية
4 ـ الخاندوسية
5 ـ السلامية
6 ـ الحامديه
7 ـ العزمية
8 ـ القاوجية
9 ـ الادريسية
10 ـ العفيفية
11 ـ الجوهرية

3 ـ الطريقة البرهامية (لولي الله إبراهيم الدسوقي) :

1 ـ الدسوقية
2 ـ الشهاوية
3 ـ الشرنوبية

4 ـ الطريقة الخلوتية (لولي الله محمد أبو خليل)

1 ـ الخيفية
2 ـ المغازية
3 ـ الحبيبة
4 ـ السلمية
5 ـ السمانية
6 ـ المصلحية
7 ـ الغنيمية
8 ـ الدمرداشية
9 ـ الخضرية

طرائق أخرى :

الرفاعية ـ الجيلانية ـ القادرية القاسمية ـ المراوية الحصافية ـ الشيبانيـة ـ التغلبية ـ القادرية الفرضية ـ العروسية ـ التيجانية الصالحية ، ويلاحظ التفرعات الآتية :

1 ـ الأحمدية تتفرع بالمنطقة إلى 13 فـرعاً غـير الأصل وتقـترن جميع هـذه الفروع بالأحمدية

2 ـ الشاذلية تتفرع إلى 11 فرعاً غير الأصل وتظهر فرقها في المولد الأحمدي وتقرن فروعها بالشاذلية .

3 ـ الخلوتية تتفرغ إلى 9 فروع غير الأصل وتقرن بالأصل .

4 ـ طوائف أخرى : أكثرها يرجع إلى سيدي الجيلاني كالقادرية ، والقاسمية وسيدي أحمد الرفاعي كالرفاعية .

ويتضح من هذا البيان أن غالبية الطرق الصوفية في منطقة البحث ترجع إلى الأقطاب الأربعة وهم : عبد القادر الجيلاني + 560 هـ أحمد الرفاعي + 590 هـ أحمد البدوي + 675 هـ إبراهيم الدسوقي + 676 هـ رضي الله عنهم ويمكن أن نضيف إليهم سيدي أبو الحسن الشاذلي + 656 هـ .

ويلاحظ أن هؤلاء الأقطاب قد عاشوا في أواخر القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجري ، أي بفارق زمني من 50 إلى 70 عاماً ، كما يلاحظ أنه لم يكن لأقطاب التصوف في الطرق الأخرى شهرة واسعة وتلاميذ منتشرون في بقاع الأرض كما لهؤلاء الأقطاب من الشهرة الواسعة التي انتشرت في بلاد الإسلام وغيرها ، كذلك لم يظهر من أئمة وأقطاب التصوف من لهم تلاميذ وأتباع بعد القرن السابع الهجري مثل ما لهؤلاء الأئمة مدارس وأتباع وطرق حتى الوقت الحاضر ، إلا أنه مما يجدر الإشارة إليه أنه قد تعددت الفروع بعدهم بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بطريق الرؤيا أو التوجه أو بالواسطة ونسب بعضها إلى الآخذين عنهم متفرعة عن الأصل أي إلى أحد السادة الأقطاب الخمسة[2] .

ونحن لا نريد أن نؤرخ تاريخ كل أحد منهم في هذه الصفحات ، إلا أنه من الضروري أن نشير إلى الطرق الصوفية هنا في منطقة البحث .

وكما سبق الإشارة فإن قطب المنطقة هو بلا شك سيدي أحمد البدوي بدون المقابلة بينه وبين غيره من الأقطاب من حيث المقام ، والمعروف كما سبق الإشارة أن مريدي الطريقة الأحمدية يختلفون إلى أربعة عشر طريقة .

أما الطريقة البرهانية فتتفرع إلى ثلاثة طرق ، وتتفرع الشاذلية إحدى عشر طريقة وهناك طرائق أخرى كالرفاعية والقادرية والقاسمية لها فروع أخرى والملاحظ أن القادرية

---

(2) علي (باشا) مبارك ـ الخطط التوفيقية جـ 3 ص 129 ـ 130 .

هي الطريقة الوحيدة التي ليست لها فروع أخرى .

وكثير من هذه الطرق يندمج بعضها في بعض كالشاذلية القاسمية ، والأحمدية البيومية ، والخلوتية التي ترجع إلى سيدي أحمد أبو خليل[3] والتي تنقسم إلى تسعة طرق غير الأصل .

وهذه الطرق رغم فروعها المتعددة فإنها كما سبق الإشارة ترجع إلى أصل واحد ينحصر في الأقطاب وهم الأئمة الكبار ، وجميع هذه الطرق تظهر مراسمها ـ كما أظهر البحث ـ في مولد السيد أحمد البدوي وتتميز كل طريقة منها بعلامات مميزة ، وأعلام ينقل عليها اسم صاحب الطريقة علاوة على عمامات المريدين الخضراء والحمراء والسوداء التي تشير إلى الطريقة التي ينتسبون إليها كما توضح من البيان السابق بأسماء الطرائق الصوفية في منطقة البحث وفروعها والتي بلغت حوالي 48 طريقة وليس معنى ذلك أن هذه الطرق الموجودة بجمهورية مصر العربية جميعاً وإنما هي الطرق التي تم ملاحظتها ميدانياً .

---

(3) د. توفيق الطويل ـ التصوف في مصر ابان العصر العثماني ص 72 طبعة مكتبة الحمامير

الفصل السادس

نبذة عن بعض أولياء المنطقة وما يشتهر عنهم

تكلمنا في الفصول السابقة عن سيدي أحمد البدوي ، وعن كراماته وشهرته الواسعة بالمنطقة ونود في هذه المجالة أن نذكر شيئاً عن بعض أولياء المنطقة وما يشتهر عنهم ، إذ أنه قد اتضح من البحث أن أتباع السيد البدوي من الأولياء ، ليسوا جميعاً يعاصرون فترة زمنية واحدة ، بل أننا نجد بعضهم قد توفي من قرون بعيدة في حين أن بعضهم ما زال حياً ، ومن أشياخ الطريقة الأحمدية ، وسنحاول هنا أن نعطي فكرة عامة عن بعض هؤلاء الأولياء وما اشتهر عنهم من كرامات .

سيدي عز الرجال :

المشهور عنه شفاء الأطفال ، ولذلك تأتي إليه النساء من كل حدب وصوب ، حاملات أطفالهن المرضى بغية الشفاء ، وهو معروف عنه شفاء الأطفال من المس الروحي ، وغيره من الأمراض العصبية وهو مغربي الأصل ، ويقام له مولد ويزار وتزداد شهرته سنة بعد أخرى .

سيدي مرزوق :

يقال أنه كان موجوداً بطنطا قبل حلول سيدي البدوي كما يقال عنه أنه من أهل النجدة ، ومن كراماته أنه لا يقصده مظلوم إلا وينصره ـ وكثيراً من النساء يذهبن بعد صلاة الجمعة إلى مقامه ، ويقمن بكنس الضريح على الظالم ، وهذا يعني كنسه من الدنيا .

سيدي محمد البهي :

مـات من عهد قـريب وإليه تنتسب عـائلة البهي ، وكـان عـارفـاً بعلم الحـرف ، ودعوته مستجابة ، وفي مولد البـدوي يبدأ ركب خلفيـة السيد / البـدوي من مسجده في الليلة الختامية . وقد جدد مسجده وكان يسمى فيما مضى باسم جامع البوصة الـذي كان يتعبد فيه السيد البدوي أثناء حياته .

الشيخ محمد رمضان :

يقول الجمهور عنه أنه ولد في أسرة غنية تملك أراضي واسعة ، وعقارات ، وخزانة مملوءة ذهباً ، حتى أنه ورث ـ لقب (أبو الذهب) كناية عن كثرة المال ، وقد واجه أسرته بشجاعة ، واتهمها بأنها ورثت هذا المال عن طريق حرام ، وطالب الأسرة بتوزيـع الثروة على الفقراء والمساكين ، فـاتهم بالجنـون وأرسلوا به إلى مستشفى المجـاذيب ، فلم يلبث غير قليل أن خرج منها هائماً على وجهه ، زاهداً في الدنيا ، واتخذ من طنطا مقراً لـه وأقام فيها حتى توفي سنة 1947 .

والعجيب ـ كما روى بعض الجمهور ـ أن تاريخ وفاته مجمـوع أعداده 78 إذ تـوفي في 74/4/27 م ، كـما أن تاريـخ الـوفـاة مجموعـة بـالتقنـين الهجـري 78 إذ تـوفي في 66/6/6 ومجموعها 78 أيضاً ، لذلك اعتبر تاريخ وفاته كرامة من كراماته .

أمـا عن كرامـاته في حيـاته والتي تـروى عن عديـد من الأفراد ، مما قام البـاحث باستخبارهم فكثيرة ، ومن هذه الكرامات أنه كان من الأبدال فيظهر في أكثر من مكان في وقت واحد ، وأنه كان يشفي الأمراض ، ومن كراماتـه إحضار الفـاكهة في غـير أوانها ، وكشف الحجاب ، وتفريج الكرب عن المكروبين ، ويروي هذه الكرامات أيضاً كثير من المثقفين .

الشيخ محمد أبو شوشة :

مكث حيـاته في العـراء بـدون مـأوى حتى تـوفي عـام 1943 وكـان لا يهمه الشتـاء ، أو حـرارة الصيف ، ويتلقى ذلـك بـرضـا ، وراحـة مستغـرقـاً في التـأمـل والتفكـر ، ويقضي ليله عابـداً متعبداً ، أمـا نهاره فيقضيه ساكناً ، وقـد يصيـح في بعض الأحيان منجذباً ، ويتحدث بإشارات يفهمها كل زائر له وصـاحب مشكلة ، وكان يـأتيه الطعام فيوزعه على الفقراء والمحتاجين .

وقد ولد في قرية الرحمانيـة مركـز دسوق وحضر إلى محلة مـرحوم 1928 ولقـد قام

البحث بـزيارة محلة مـرحوم أكـثر من مرة ، واتضـح له أن كثيـراً من شيوخ أهـل القريـة عاصروا الشيخ شوشة وشهدوا لهبـالولايـة ،وهم الآن يهرعون إلى ضريحه يتبركون به رغم وجود أكثر من عشرين ضريحاً لأولياء آخـرين في نفس القريـة ليست لهم منزلتـه ، وهذا معنى أن هناك درجات للولايات وفروق في المقامات ، وذلك حسب قربة الولي من الله ، وحب الناس واعتقادهم فيه .

ومما روى عنه أنـه كان مكشـوفاً عنـه الحجاب وعنـده القدرة عـلى شفـاء المـرضى وإدخـال الرضـا والـراحـة النفسيـة في قلوب المتصلين بـه ، وذلـك عنـد مجـالستـه ، أو ملازمته ، لهم وكذلك يشتهر عنه عطفه وبره على الفقراء والمحتاجين .

الشيخة صباح :

ينتهي نسبهـا إلى الحسين بن عـلي رضي الله عنه ، وقـد حضرت إلى طنطا بعـد أن عاشت فترة متنقلة بـين القاهـرة ودسوق ؛ وتـوفيت بطنـطا في 11 مايـو 1909 ، وبيتها الموجود حالياً بطنطا في شارع جانبي متفرع من شارع البحر وبجواره مسجدها الذي كان وما يزال ملجأ للفقراء والدراويش . والمعروف عنهـا أن كل من يـأتي إليها يعـرف فضلها وكرمها وجـودها ، لمـا توزعـه على المحتـاجين والفقـراء من عطايـا وهبات كـما أنها كانت تستضيف الغرباء .

أمـا كرامـاتها فكثيرة منها شفـاء المرضى ، وخـاصة النسـاء من العقم ؛ واحضـار الفاكهة في غير أوانها ، وتلقين المريدين الطريق إلى الله ، وإظهار خوارق العادات .

ويقول كثير من الجمهور أنها كانت ترى في الحج في مكـة والمدينـة وهي في طنطا لم تبارحها ، ومعنى ذلك أنها كانت من الأبدال[1] ، ولها مـولد يستمـر أسبوعـاً في كل عـام وقد ماتت عن 86 سنة .

الشيخ أحمد حجاب :

من المشهود لهم بالصـلاح والتقوى ، ويعتـبره أهل طنـطا من الزهـادالـواصلين وله مكانة عالية عند أهل الطرق الصوفية وبين عامة الناس ، ولقد اتضح من البحث الميداني أن كثيراً من الشخصيات المعروفة تزور السيد / أحمد البدوي ولا تنسى أن تـذهـب لتحية سيدي أحمد حجاب بجوار ضريح السيد / البدوي وتقبيل يده والتبرك به .

(1) راجع الأبدال في الكتاب

وكـان الشيخ أحمـد حجاب من علماء الشريعـة وهجر التـدريس وإلقـاء الـدروس وفضل أن يجلس بجوار البدوي متعبداً زاهداً راضياً . وكان يمتلك إثني عشر فداناً وهبهم لأخيه المدرس بالمعهد الديني بطنطا مقابل مؤنة يومه ، وهم دائم الصـوم ، وروى الشيخ علي عطية إمام المسجد الأحمدي الباحث أنه لا يكاد يراه يأكل شيئاً ، وأنه زاهد في الدنيـا بمعنى الكلمة ، وهو خـادم لمن استشاره ولم يسمـع أحداً عنـه أنه أغضب إنسـاناً أو ذم في أحد . أو أكل شيئـاً مشبوهـاً ويقول : أن من أخـلاقه أنـه لا يدع أحـداً يقدم لـه الماء أو الأكـل ، فإذا أراد شراء شيء فـإنه يـذه بنفسه خـوفاً من الشبهـة ، ذلك لأنـه إذا أرسـل أحدهم في طلب فيقول : « إن الشيخ حجاب يريد كذا وكذا » فيقدم له البائع مـا يريـد بلا مقابل أو يزيد في حجم المطلوب أو يبيع له بـالخسارة ، وهـذا ما يـرفضه حتى أنـه إذا أراد أن يشرب فإنه يذهب بنفسه ويملأ زجاجته بالماء ويضعها إلى جواره .

وللشيخ أحمد حجـاب كتاب يسمى « العـظة والاعتبار » وهـو ترجمـة عن السيد / البدوي ، وقد قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بطبعه على نفقته أكثر من مرة ونفـذ من السوق فوراً ، ويقول إمام المسجد الأحمدي : أنه سمع من الشيـخ أحمد حجـاب أنه قد جاءه أمر علوي أن يوقف بيع الكتاب وفعلاً لم أجد نسخة منه في طنـطا ، واضطررت للاستعانة بالشيخ علي عطيه شيخ الجامع الأحمدي لإعارتي نسخة منه .

ولقد حاولت أن أجد مجالاً للحديث مع الشيخ حجاب ولكن كـانت أجوبتـه على أسئلتي محـدودة ولا تعطي مـا هو مـأمـول من ردود ، وعنـدمـا فشلت في استـدراجـه في الحديث قلت له : إنني أكتب رسالة عن البدوي ، وأريد أن أشيد بولاية سيدي البـدوي الروحية .

فأجاب . . . وهل السيد البدوي يحتاج إلى تعريف أو دراسة . . ولقـد علمت من نائب الطريق الأحمدي أن الشيخ حجاب على اتصـال روحي بالبـدوي وأن من يحضر إلى ضريـح البدوي بـين صلاة المغـرب والعشاء يسمـع الشيخ أحمـد حجاب يتكلم ويسمـع ويشير بيديه ويحرك رأسه بالموافقة أو الرفض .

والشيخ حجاب مثار للاحترام من القريب والبعيـد ورأيه نـافذ في الاستشـارة وهو متواضع جداً ، وجميع الناس يلقبونه بشيخنا حتى إمام المسجد الأحمدي .

وقد روى أستاذي الـدكتور محمـد ثابت الفنـدي أنه رأى الشيـخ حجاب في رؤيـة فذهب لزيارته . . . وأرسل أحدهم إلى سطح الجامع الأحمدي حيث يقيم الشيخ حجاب ليستأذنه في مقابلته . . ورفض الشيخ حجاب فتح الباب له .

ثم صعد إليه الدكتور ثابت الفندي فإذا باب الشيخ يفتح وينـاديه بـاسمـه ويقـابله بالترحاب . ولما سألت الدكتور ثابت رأيه حقيقة في هذا الشيخ أكد لي أن هذا الرجل من الأولياء الصالحين .

ولا يـظهر الشيـخ حجاب كـراماتـه دائماً وإنمـا يتمسك بـأحكـام الشريعـة ويؤدي الفرائض وله من العمر ما يربو على المائة عام .

الفصل السابع

بعض أولياء ضواحي طنطا
قرية سبيرباي (كنموذج)

تبعد هذه القرية عن مدينة طنطا حوالي ثلاثة كيلومترات ، ويوجد بها عديد من ضرائح الأولياء الذين ينتسبون بالنسبة الروحية للسيد / البدوي رضي الله عنه .

وقد استخلص الباحث من أقوال أهل المنطقة ومن الملاحظة المباشرة وغير المباشرة أن أغلب أصحاب الضرائح الموجودة بالمنطقة قد عاصروا سيدي أحمدالبدوي وهم من مريديه وأتباعه ، كما أنهم عاشوا في هذه المنطقة التي ماتوا فيها بناء على أوامر البدوي رضي الله عنه بصفته قطب الأولياء[1] .

ويبلغ تعداد قرية سبيرباي حوالي 9 آلاف نسمة[2] ، ومن المعروف أن هذه القرية لم يدخلها الكهرباء والمياه إلى من عهد قريب جداً ، وقد استخدمت الإنارة في تشغيل بعض الصناعات البسيطة .

وتمتاز قرية سبيرباي بتعاون أهلها ومشاركتهم بعضم بعض في المناسبات المختلفة ، وقد تبين ذلك من البحث ، إذا تصادف أن شب حريق بالقرية في محصول القمح الذي كان مخزناً بالساحة العامة للقرية فقام جميع أهل هذه القرية من الشيوخ والنساء والأطفال والرجال في المشاركة كل على قدر طاقته في إطفاء الحريق رغم خطورة الموقف وقوة إندلاع النار في الهشيم ، إذ أحضر كل فرد من بيته إناء وساهم في اطفاء

---

(1) راجع القطب بالكتاب

(2) الاحصاء السكاني سنة 960

الحريق ، وكان هذا الحادث دليلاً ومثالاً في الأخوة والمحبة والتعاون الذي يستبعد أن نجده في مجتمع آخر .

ويتعلق هذا التعاون بالاعتقاد السائد في هذه المنطقة من أن الأولياء يحرسونها وأنه مهما كان الحريق كبيراً وخطيراً فإن الله سبحانه وتعالى سيحفظ أهل المنطقة من الضرر ، وذلك ببركة وجو ضرائح الأولياء بها .

ومن أشهر أولياء المنطقة سيدي محمد العمري الملقن عند العامة بالحدري ، وسيدي داوود العزب ، وسيدي محمد أبو الحجاج ويلقن بأبي حجاج ، وسيدي محمد مقلد ، والست عزبة ، وسيدي زين ، وسيدي العواض ، وسيدي إبراهيم ، ويشتهر كل من هؤلاء بكرامة معروفة يستفيد منها أهل هذه المنطقة والمناطق المجاورة وأحياناً يأتي بعض طالبي الحاجات من محافظات أخرى لزيارة بعض هؤلاء الأولياء والتبرك بهم ومساعدتهم في تلبية حاجاتهم من شفاء وحل لمشاكلهم الاجتماعية والمادية

وينظر أهل المنطقة لهؤلاء الأولياء نظرة اجلال واحترام ، كما أن وجود ضرائحهم بالقرية يشعر أهلها بالرضاء والسكينة والطمأنينة فهم في اعتقادهم بمثابة الحراس على أموالهم وحياتهم وأولادهم .

والعجيب أن هؤلاء الأولياء ، رغم وجود مقام السيد / البدوي كقطب للمنطقة ، لهم شهرة عند مريديهم واعتقاد بالإستجابة السريعة لحاجاتهم ودعائهم ، أما السيد / البدوي فيقال أن « باعه طويل » وأن على الطالب أن ينتظر حتى يحقق له حاجته ، وأن يصبر حتى ينال بغيته .

أما صغار الأولياء فهم يتقبلون من أهل المنطقة سواء كانوا صغاراً أو كباراً طلباتهم ويعملون على تحقيقها بطريق فوري ، وهذا الاعتقاد يشكل نوعاً من الديمقراطية بين حكومة الأولياء ، ذلك لأنه مع وجود رئيس الحكومة وهو القطب الغوث في المنطقة ، فلا يمنع ذلك من توزيع الاختصاصات إذ يشتهر بعضهم بعلاج الأمراض بل تخصيص دقيق كعلاج أمراض الروماتزم أو عقم النساء أو شلل الأطفال ، كما يختص البعض الآخر بعلاج شلل الأطفال ، أو نصرة المظلوم ، أو كشف الجناة ، أو استجابة الدعاء .

وسنعرض في السطور القادمة نبذة عن بعض أولياء منطقة سبيرباي كمثال لما نقول :

سيدي محمد العمري :

يلقب العمري أيضاً بالحدري نسبة إلى الانحدار وذلك للعلاقة بين كراماته وبين شفاء نوع من الأمراض وهو الرّوماتزم ، ذلك لأن الذين يلجأون إليه يتدحرجون أمام باب ضريحه الذي هو عبارة عن منحدر واضح من الأرض .

والغريب أن هذا الولي له ضريح آخر داخل مدينة طنطا نفسها ومن هنا يتبين أن الولي يمكن أن يكون له أكثر من مقام وهذا يتمشى مع الدراسة النظرية ومع أقوال الصوفية من أن الأولياء من أهل التلوين يتقلبون ويتغيرون من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام أي أنهم من الأبدال أو البدلاء الذين يظهرون في أكثر من مكان في وقت واحد(3) .

ويعتقد أهل سبيرباي أن قطب القرية ـ مع وجود غيره كما سنبين ـ هو سيدي محمد العمري « الحدري » الذي يحضر إليه أصحاب الأمراض من محافظات أخرى وذلك للعلاج خاصة من محافظتي الشرقية والمنوفية .

ويقول أهل المنطقة عن العمري أن « سره بائع » وأنه من « الأبدال » حيث يوجد له ضريح آخر بمنطقة طنطا(4) .

سيدي أبو حجاج

أفاد أهل المنطقة أنه قد وجدت جثته سليمة تماماً عند فتح مقبرته ، وأن من كراماته وجود دبابير (جمع دبور) على قبته ويقال أنها وسيلته في حرب أعداء الله .

ويروي أحد شيوخ القرية عنه أن أحد العسكر (خلال الاحتلال) نذر له نذراً عند خروجه من العسكرية ، ولما خرج لم يف بوعده فوجد الدبابير على باب بيته ولم يستطع خروجاً حتى وفى بنذره .

ويوجد بعض الأباريق القناوية داخل ضريحه والتي يوجد منها الكثير في منطقة الأقصر ، وهي مصنوعة من الفخار ، ويقال أن أبو حجاج كان حملياً أي يحمل الماء من مكان إلى آخر ، أي (سقا) ، ويشتهر أبو حجاج بعلاج العقم عند النساء ، فيحضرن إليه ويدورن حول قبته سبع دورات وهن يطلقن الزغاريد .

---

(3) راجع الأبدال بالكتاب وكذلك ألفاظ الصوفية ومعانيها ـ للمؤلف .

(4) اتضح من البحث الميداني أن لسيدي محمد العمري ضريح آخر في مدينة طنطا بشارع الصاغة

والغريب أن أبا الحجاج هذا يشترك في اللقب وفي نفس الفترة الزمنية التي عاش فيها سيدي أبو الحجاج الأقصري المدفون بالأقصر ، وأن الأباريق القناوية تدل على صلة وثيقة بينهما مما يعتقد معه الباحث أن أبا الحجاج هذا هو سيدي أبا الحجاج الأقصري المدفون في مدينة الأقصر وأنه يجوز أن يكون له ضريحان كما نجد ذلك في كثير من ضرائح الأولياء على أساس أنه من الأبدال[5] .

سيدي داود العزب

له ضريح بقرية سبرباي وهو يتمتع بحب كبير من أهالي المنطقة نظراً لشهرته في شفاء المرضى بصفة عامة ، ويحكى أنه عند تجديد بناء قبته منذ 50 سنة سقط أحد العمال ولم يصب بشيء . والمعروف أن سيدي داود له ضريح آخر بمنطقة (قطور) التي تبعد حوالي 15 كم من طنطا ولذلك فهو في رأي أهالي المنطقة من الأبدال .

الست عزبة :

من المعروف عنها تمسكها بالشريعة والأخلاق ويحكى أن رجلاً من أهل المنطقة كان دائم النظر في النساء ، وفي مرة ظهرت له سيدة جميلة في أبهى حلة وأجمل وجه فتبعها ، ثم إذا بها تدخل من باب ضريح الست « عزبة » وتختفي ، فوقع على الأرض مغشياً عليه ، وتاب بعد ذلك من النظر وتتبع عورات النساء .

سيدي زين :

يظهر لأهالي المنطقة في الرؤيا ويجيب طلباتهم ، وينفذ حاجاتهم ، علاوة على الاعتقاد أنه يشفي الأمراض وقد أدلى بعض أهل المنطقة الباحث بكثير من هذه المرائي التي كانت تحقق لهم .

سيدي العواض :

وهذا الولي يشتهر ـ كما هو اعتقاد أهل المنطقة ـ بالقدرة ـ ككرامة له ـ على اطفاء الحرائق فما من حريق يشب في القرية إلا وينادي أهلها : يا سيدي يا عواض . . . فتنطفىء بإذن الله ، والعواض من معنى أنه (يعوض) عن الخسائر والملاحظ أن جميع البيوت في القرية مصنوعة من الطين المغلف بقش القمح وتوضع فوقها القش ، وهذا يفسر لنا علاقة كرامة الولي بالبيئة واحتياج الناس إلى مساعدته وتعويضهم عن الخسائر

(5) راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها للمؤلف « الأبدال » وكذلك الأبدال بالكتاب .

التي فقدوها ، فهو يشكل الأمل والقدرة على التحمل وذلك ناتج من الاعتقاد في التعويض عن الضرر ويجوز أن يكون « العواض » هو الاسم الذي اختاره له الناس ، حيث لم نجد بالمراجع شيئاً عنه ولا في طبقات الصوفية .

سيدي إبراهيم :

وهو من الأولياء الصالحين ويقول أهل المنطقة أنه كان من أتباع سيدي أحمد البدوي ، ولقد أفاد أهل المنطقة الباحث أن سيدي أحمد البدوي هو مدد هؤلاء الأولياء وقطبهم الذي ينظر إلى زيارته عند العامة على أنها بمثابة حجة كاملة ، ويجوز أن يكون ذلك لعدم الاستطاعة للحج إلى بيت الله الحرام من انعقاد النية لذلك فتكون الزيارة للبدوي باعتباره من نسل الرسول تقرباً ورغبة ونية صادقة ، وهذا ما يجعل للولاية في المنطقة مركزاً مرموقاً ومكانة عالية .

ولقد اشتهر سبيرباي من قبل بكنيسة تسمى « الملاك » وذلك حتى القرن السابع الهجري ثم حضر إليها كثير من أتباع البدوي لنشر الدعوة الإسلامية وأقاموا بها بأمر علوي من البدوي وأفاد بعض أهالي القرية أنه لم يكن هناك أولياء بالمنطقة قبل حلول البدوي بطنطا والذي كان يعتبر زيتاً لمريديه ويذكر فعلاً الإمام الشعراني ذلك في طبقاته إذ نقل عن البدوي رضي الله عنه قوله : « أنا زيت لمن لا زيت له » وكان يوجه خطابه إلى مريديه .

وكان يوجد بهذه المنطقة قس يسمى عبد الملاك وكان على علم بالقرآن ويرتله وكان دائم الدعاء ليل نهار : يا رب . . يا رب . . يا رب الكل . . ويعتقد أهل المنطقة أن دينه الحقيقي كان الإسلام ، إذ دخل عليه أحدهم فوجده يصلي الظهر ويركع ويسجد فلما انتهى من صلاته أوصاه أن يكتم سره عن الناس ، حتى يمكنه أن يواصل رسالته في خدمة الفقراء والدين ، ويجوز أن يكون هذا الرأي اجتهاد من أهل المنطقة نظراً لصلاح هذا القس وعدم تعصبه أو لأنه كان على خلق كريم ، كما أنه يجوز أن يكون على دين الإسلام لأنه كان دائم السعي في خدمة المسلمين والعمل على مساعدتهم .

الفصل الثامن

دراسة لمدينة دسوق « كنموذج »

من الطرق الصوفية التي تعتبر بحق من مراكز الإشعاع الروحي بمنطقة البحث « الطريقة البرهامية » ومركزها مدينة دسوق إذ يوجد بها ضريح سيدي إبراهيم الدسوقي(1) ، شيخ الطريقة البرهامية ، ولقد عاش حياة غريبة في نوعها ، فلم يكن ممن يؤثرون الاحتراف والعمل فحسب بل كان ذا ميل شديد إلى المعرفة ، وقد حفظ القرآن وتفقه فيه وتعمق في الفقه ، وحفظ أحاديث الرسول ﷺ ، ولم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره .

ويقول عن نفسه : قد وليت القطبانية فرأيت المشرقين والمغربين وما تحت النجوم ، وصافحت جبريل عليه السلام(2) .

ولقد أكد كثير من الباحثين ومشايخ الطرق أن البدوي والدسوقي كانا على اتصال دائم ، وأن كلاهما كان يقتضي بالسلف الصالح ، ويتعمق في دراسة المجتمع الذي يعيش فيه ويحل ما يقابله من مشاكل الطالبين .

لذلك كان لا بد من أن تتم لقاءات بينهما وقد أخبر الباحث الشيخ محمد محمود السطوحي شيخ الطرق الصوفية(3) أن التاريخ يؤكد هذا اللقاء والضرورة تحتمه لأن

(1) هو إبراهيم الدسوقي القرشي الهاشمي توفي عام 676 هـ. من 43 سنة وهو شيخ الطريقة البرهامية وصاحب المحاضرات القدسية والعلوم الدينية وهو أحد الأئمة الدين أظهر الله لهم المغيبات وخرق العادات والولاية الراسخة وانتهت إليه الرياسة للكلام على خواطر الأنام (المرجع . سيدي الشبلنجي : نور الأبصار ص 242) ويصح أن يكون قد ورث القطبانية عن سيدي البدوي أي من عام 675/ 676 هـ . .

(2) الامام الشعراني ـ الطبقات الكبرى ـ جـ 1 ص 143 وما بعدها .

(3) الشيخ محمد السطوحي شيخ مشايخ الطرق الصوفية وقد قابله الباحث عام 1969 .

كلاهما كانت له نفس الدعوة ونفس الاتجاه ، وعاشا في نفس الوقت تقريباً ، وروى هـذا الحوار الذي دار بينهما تدعيماً للعلاقة المتبادلة والأخوّة الصادقة :

البدوي : أما تعلم أن الله يحرم من يفرق بيننا في الدعوة في الدنيا والآخرة ؟ .

الدسوقي : نعم .

البـدوي : أما تعلم أن الله تعـالى لعن من يقول هـذا مجلس ذكـر ، وهـذا مجلس ذكر .

الدسوقي : نعم .

وهذا معناه أن الدعوة الإسلامية واحدة وأن الطريق الصـوفي واحد ، وأن أسلوب العمل واحد وأنهما كانا يدعوان إلى توحيد صفوف المسلمين وأنهما سارا على نهج واحـد ، ويدلل الشيخ السطوحي على ذلك بأن مولدي البدوي والدسوقي يتلازمان عـبر التاريـخ رغم اختلاف تاريخ الوفاتين وميلاد كل منهما .

وممـا تناقله الجمهـور عن وجود اتصـال بين البـدوي والدسـوقي كما نجـده في هذه القصة : ـ

« أرسل السيد البدوي أحد مريديه بهدية إلى الدسـوقي ، وفي الطريق أراد المـريد حباً في الاستطلاع أن يعرف ماذا يمكن أن تكون هذه الهـدية ، ففتـح الغلاف الـذي فيه الهدية فوجد بها حذاء بالياً ، ولما وصل إلى الدسوقي بالهديـة رده بهديـة أخرى » وبـدافع من حب استطلاع المريد أيضاً فتحها فوجد فيها « عمامة » بالية .

ويعلق أحد مشايخ الطرق على هذا الـرواية بـأن البدوي أراد أن يقـول للدسوقي نحن حذاءك ، فرد عليه الدسوقي بأن حـذاءه فوق رأسـه ، وهذه شهـادة بأن القـطبانيـة كانت للبدوي في هذا العصر . (إن حذاء البـدوي فوق رأس « عـمامة » الـدسوقي) . ويدل ذلك أيضاً على الإيثار والتواضـع الذي هـو من خلق الأولياء . كـما يدل ذلـك على المصطلحات والألفاظ والتعبيرات التي يستخدمها الأولياء فيما بينهم والتي ينفردون بها دون الناس جميعاً .

كرامات الدسوقي :

يـروي أهل المنـطقة كثيـراً من كرامـات الدسـوقي ـ رضي الله عنـه ـ نـورد بعضـاً منها : ـ

1 ـ من كراماته أن بعض المنكرين لـه حضروا في مركب ليمتحنـونه ، فأرسـل إليهم نقيبه فدفعهم فـوجدوا أنفسهم في جبـل (قاف) وأقـاموا هنـاك سنة يـأكلون من حشيش الأرض حتى تغيرت أجسامهم ، وتـذكروا ومـا وقعـوا فيـه فتـابـوا فـأرسـل لهم الـدسوقي نقيبـه فدفعهم دفعـة فوجـدوا أنفسهم على سـاحل ثم أصبحـوا بعد ذلـك من مريدي الدسوقي وتلامذته .

2 ـ بلع تمساح صبياً ، فحضرت أمـه مذعـورة للدسـوقي ، فـأرسـل نقيبـه إلى التماسيح يسـألهم من ابتلع الصبي ، ليمشي به إلى الشيـخ ، فتبعه أحـد التماسيـح ، ولما وصل للشيخ أمره بأن يلفظ الصبي فلفظه ، ثم قال للتمساح (مت فمات بإذن الله) .

والمعروف أن دسوق كانت تشتهر فيما مضى بوجود تماسيح النيل بهـا ، وتدل هـذه القصة على اعتقاد الناس في كرامات الدسوقي وأنه قطب هذه المنطقة .

ومن الروايات التي تروى عن كرامات الدسوقي أنه أرسـل ذات يوم أحـد مريـديه إلى الإسكندرية لشراء بعض الاحتياجات فتشاجر هناك مع أحد الباعـة وحضر الشرطي وقاده إلى القاضي ، وكان القاضي جباراً يكره الصوفية فحبسه ، ولما علم الدسوقي أرسل للقاضي أبياتاً من الشعر ، فجمـع القاضي أصحـابه وسب الـدسوقي ، وقـال لأصحابـه انظروا ما كتب لي مدعي الولاية ، وقرأ عليهم القصيـدة وهو يسخـر ويضحك حتى تـلى تلك الأبيات :

سهام الليل صائبة مرامى ... إذا وقرت بأوتار الخشوع
يقومها إلى المرمى رجال ... يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم في دعاء ... بأجفان تفيض من الدموع
إذا وترن ثم رمين سهماً ... فما يغنى التحصن بالدروع

وعندما وصل في القراءة إلى « إذا وترن ورمين سهماً » خرجت من الورقة سهـماً إلى قلب القاضي الذي مات في الحال . ولقـد ازداد اعتقاد النـاس في سيدك الـدسوقي بعـد ذلك .

وهـذه الواقعـة تؤيدهـا الدراسـة النظريـة ، ذلك لأن ذلـك مـذكـور في الحـديث القدسي : « من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحـرب » ، وقولـه تعالى : ﴿ **ألا إن أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ (يونس : 62) ، وقـوله تعـالى أيضاً : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة** ﴾ (يونس : 64) ، وكذلـك ورد في الحديث القـدسي : « من تقرب إلى شبرا تقربت آليه ذراعاً . . . » .

والواقع أن شهرة الدسوقي ـ رضي الله عنه ـ تزداد مع الزمن انتشاراً ، وأنه يهرع إليه في الوقت الحاضر ، كثير من طالبي الحاجات ، ومن المتوسلين بشفاعته ، في سيل لا ينقطع ، صباحاً ومساءاً ، وتجد مسجده الذي يتوسطه ضريحه ، يزداد مع الزمن اتساعاً وعمارة .

وهذا في رأينا يدعم هذه الاعتقادات والتي ما زالت سائدة عند الجمهور من المثقفين والأميين على السواء وإن اختلفت درجة الاعتقاد عندهم .

الفصل التاسع

دراسة لمدينة دمنهور « كنموذج »

أجمع كثير من أهل المنطقة أن سبب تقدم مدينة دمنهور يرجع إلى التمسك بالعقيدة ـ الدينية ـ وأن الذي حمل لواء الدعوة في أوائل هذا القرن هو شيخ الطريقة الحصافية ، وقد تغيرت شكل هذه المنطقة بفضل حلول الشيخ حسنين الحصافي الكبير بها ، والذي كان ـ كما هو اعتقاد أهل المنطقة ـ من الأولياء المكشوف عنهم الحجاب علاوة على تلقينه الدروس في المجالس العامة والخاصة التي كان يعقدها لتطبيق ـ أحكام الكتاب الكريم ، والسنة المحمدية بالإضافة إلى جلسات الذكر الأسبوعية .

ولقد طاف الحصافي الكبير بجميع محافظات الجمهورية واستقر مقامه ـ بمنطقة الجبانة ـ بدمنهور والتي كانت مكاناً لدفن الموتى ومأوى لقطاع الطرق والمجرمين والذئاب ليلاً ، وأصبحت بفضله الآن سوقاً صناعية كبيرة بها مصانع للثلج ، والمكرونة ، وورش للسيارات ومخازن للشركات الكبرى ومصانع للأخشاب علاوة على وجود عديد من المحلات التجارية والعمارات السكنية بها . ولم تكن هذه المنطقة من قبل إلا جبانة مهجورة كما سبق الإشارة وأصبحت بفضل نفحاته كما يقول أهل المنطقة مركزاً صناعياً وتجارياً ممتازاً .

(*) هو العارف بالله الشيخ حسنين الحصافي المتوفي عام 1910 م كان من علماء الشريعة وكان يعقد مجالس العلم والتدريس وقد تخرج على يديه كثير من العلماء وقد تغيرت على يديه أسلوب الحياة في منطقة دمنهور وأصبحت مدينة تجارية ممتازة بعد أن كانت مأوى لقطاع الطرق وتجار الربا وأصحاب المواخير، وقد تقلد مركز الخلافة بعده ابنه محمد عبد الوهاب الحصافي المتوفي سنة 1949 والذي ازدهرت الطريقة الحصافية ـ الشاذلية على يديه .

ومن أقوال كبار السن من تجار المنطقة وما جمع من حصيلة المسح الميداني يتضح الآتي :

1 ـ أن منطقة دمنهور كانت تشتهر قبل حلول الحصافي بها كمركز للتعامل بالربا وكانت عائلات الكلاف ونجاتي وغيرهم أصحاب شهرة في هذه المعاملات غير المشروعة كما كانت توجد بالمنطقة عديد من المواخير تبيع وتتجر في المشروبات الروحية والمواد المخدرة .

ولقد حاول الباحث أن يجد بعض هذه المواخير والحانات فلم يهتد إلى أي منها بل أن الملاحظ على المنطقة موضوع البحث أنها مليئة بضرائح الأولياء والمساجد وبتجار يتمسكون بأحكام الشريعة في معاملاتهم وأن التقاليد التجارية الأخلاقية محافظ عليها في معاملاتهم بشكل واضح وبين أسرهم ، علاوة على أن نسبة الأمية في دمنهور بالذات قليلة بالمقارنة بالمحافظات الأخرى[1] .

وأنه لمن الجدير بالذكر أن الشيخ أحمد الكلاف وهو زعيم عائلة الكلاف والتي كانت تشتهر بالتعامل بالربا قد أخذ العهد على الشيخ الحصافي الكبير وأصبح من مريديه المقربين وأنه كان من الذين تعقد في بيوتهم دروس الشريعة التي يلقيها الحصافي ، كما أن الشيخ علي نجاتي أصبح للحصافي صديقاً وترك أسباب الدنيا وزهد في المال ، وكان دائم الالتصاق بالحصافي ويروي أهل المنطقة نوادر وكرامات كثيرة حدثت بينهما .

ويبدو صدق هذه الروايات من وجود ضريحي الشيخ الكلاف والشيخ نجاتي مع ضريح الشيخ الحصافي وذلك بجامعه الكبير بمنطقة الجبانة التي تسمى الآن بالحصافية .

ويؤكد أحد كبار التجار بالمنطقة أن آخر ماخورة كانت بالمنطقة منذ 40 سنة وكانت ملكاً للخواجه ـ كليانتي ـ الذي وجد في صباح أحد الأيام مقتولاً في ماخورته ولم يعرف لذلك سبباً سوى دعاء الشيخ الحصافي وقد زاد هذا الحادث في الاعتقاد في ولاية الحصافي الكبير .

أثر الطريق على الناحية الاقتصادية والاجتماعية :

من المعروف عن تجار دمنهور أنهم من التجار الأذكياء وقلما تجسد بينهم تاجراً

(1) أفاد السيد المحافظ أثناء زيارة الباحث له أن نسبة الأمية في دمنهور لا تتعدى 20٪ ويمكن أن يكون ذلك فيه شيء من المبالغة إلا أنه من الملاحظ أن جميع من قابلهم الباحث على دراية بالقراءة والكتابة ، أما القرى المجاورة المدينة فترتفع نسبة الأمية فيها .

منحرفاً أو غير امين . ومن الملاحظ أن أكثرهم من مريدي الطريقة الحصافية وقد روى أحدهم للباحث أنه لم يكن من أرباب الطريق الحصافي وأنه كان في عسر وضيق شديدين نتيجة لعدم اقبال الناس لشراء سلعة وقد روى هذه القصة : حضر لي أحد الزبائن لشراء أقة زيت وكان ثمنها 16 قرشاً وهو نفس السعر الذي يبيع التجار الحصافيون به ، وأنقدني المبلغ وذهب وبعد فترة رجع لي وأخبرني أن الزيت طعمه ماسخ (وهو غير الزيت الطيب الذي يبيعه الشيخ علي الحصافي ورغم أني قلت له أنه من نفس النوع فقد صمم على ارجاعه ورددت له الثمن) .

ولقد أفاد التاجر بأن الزيت الذي يبيع منه قد اشتراه من التاجر الحصافي لبيعه بالتجزئة ولكن العميل حضر إليه لأنه لم يجد محل التاجر الحصافي مفتوحاً .

واستطرد التاجر قائلاً : ثم دخلت الطريق وأخذت العهد على الشيخ الحصافي الابن ثم فراجت تجارتي ، وفتح الله علي فتحاً مبيناً كما ترى ، ويعتبر هذا التاجر حالياً من كبار تجار دمنهور وهذا يفسر لنا إلى حد تؤثر (البركة) كقوة روحية في التعامل التجاري وفي اعتقاد الجمهور في النجاح .

وروى الباحث السيد / لطفي العبد وهو من كبار تجار المنطقة أن سعر بعض الأصناف عند مريدي الحصافية أعلى منه عند غيره . ومع ذلك فإن الجمهور لا يقبل على شراء احتياجاتهم إلا من عند التجار الحصافيين نظراً للثقة الغالية فيهم وفي سلعهم ومن ناحية أخرى فإن السلع البطيئة ترسل إلى التجار الحصافيين لتسويقها فتباع على الفور .

كرامات الشيخ الحصافي الكبير :

يتناقل الجمهور كثيراً من كرامات الحصافي الكبير والتي تروي بكثير من الفخر والاعزاز والرضا لوجود هذا الولي بمدينتهمٓ وأنه البركة العامرة التي أفاض الله بها عليهم ومن هذه الكرامات التي يتناولها الجمهور في منطقة البحث :

1 - روى أحدهم أنه وجد الشيخ الحصافي يتوضأ فقال له : زمزم يا سيدنا الشيخ ، فرد الشيخ عليه قائلاً : « عوضك الله عنها خيراً » فلما رجع بيته وجد زوجته قد توفيت ، وهذا معناه أنه كان ملهماً ، ومكشوف عنه الحجاب ، وصاحب بصيرة ، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه في الدراسة النظرية .

2 - دخلت جماعة على الشيخ الحصافي وكان مصاباً بمغص كلوي فوضع الشيخ

يده على بطنه فشفى بـإذن الله على الفـور ، وهذا يـدل على أنـه مستجاب الـدعوة ، أي مراداً لله تعالى .

3 ـ كان أحد الصالحين يتضايق عندما يقول له الحصافي : « يا شيخ فـلان » ويرد عليه قائلاً في حزن : أنا لست شيخاً ولا حاجة ، فقال له الحصافي مرة : « من أخذ منك الوردة ، وهذه إشارة وتذكرة حيث تقابلا روحياً في مكـة صلاة الجمعـة وكان مـع الزاهـد ورده خطفها منه الحصافي ، فقال الزاهد : « والله أنت اللي أخذتها » وهذه إشارة إلى أنهما كانا من الأبدال[2] .

4 ـ روى أحدهم أن ضيفاً سرق عباءة صاحب البيت فـذهب صاحب البيت إلى السيد / أحمد البدوي وشكى له ما فعله ضيفه بـه وكانت هـذه الشكوى في رؤيـا رآها ، وفيها أشار عليه البدوي رضي الله عنه بالذهاب إلى الشيـخ الحصافي فسافر إلى دمنهـور ، وهناك وجد على باب الشيخ الحصافي السارق واقفاً لا يتحرك لابساً عباءته المسروقة وعند ذلك أخذها وانصرف . وهذا يفسر لنا العلاقة بين البـدوي والحصافي وأن الأخـير كان عـلى اتصال دائم عن طـريق التوجـه أو الإلهام بـالبدوي وأن الأوليـاء الأحياء والأمـوات يتصل بعضهم ببعض .

5 ـ روى الباحث أن أحد المريدين هذه القصة فقال : كنت قد اقترضت كتاباً من الشيـخ الحصافي ولـما أردت ارجاعـه إليه ، ذهبت مـع صديق وقلت لـه انتظرني بشـارع جانبي ، وذهبت للشيخ لرد ذلك الكتاب فقابلني الشيخ وقال لي : اللي معاه ضيف . . . مش يجيبه معاه !! وهذا يدل على فراسة الشيخ الحصافي التي يمتاز بها أولياء الله .

6 ـ كان الشيخ يلقي درساً عن السرقة ، ثم انتقل إلى الحديث في موضوع آخر ؛ وكان بالمجلس الشيخ « بسيوني » وهو أحد مريدي الشيخ ، وكان في نفسـه سؤالاً عن رد المسروق وبفراسة الولي عرف الشيخ الحصافي ما وقر في قلب الشيـخ بسيوني لـذلك فقـد رجع مرة أخرى لموضوع السرقة وقال : أما إذا مات السارق وليس لـه ورثة فيجـوز لأحد أصحابه التصدق بالمال الذي سرقه صاحبـه على الفقـراء ، ثم نظر إلى الشيـخ بسيوني ، وقال له : « أهذا كاف يا شيخ بسيوني . وهذه علامة من عـلامات الـولاية الـروحية كـما سبق الإشارة ، إذ المعروف أن الولي الصوفي جـاسوس للقلوب يعـرف ويكشف الأسرار بما أودعه الله عنده من العلوم اللدنية .

---

(2) راجع . الباب الأول ، الفصل الثاني من الكتاب .

7 ـ يحكى عن الحصافي الابن أنه كان يسير مع السيد / محمد العبد ـ الذي يروي هذه القصة ـ وكان في ذلك الوقت لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره وكان في خدمة الشيخ وكان هذا العمل بالنسبة له كريهاً لأنه كان يفضل اللعب مع الصبية بكرة القدم . . . فقال له الشيخ في يوم : تعرف تجيب لي ورق صفصاف !! . . . فقال له : نعم أعرف . . . ولم يكن قد سبق له معرفة ما هو شجر الصفصاف ولا لونه . . . ولكن قال للشيخ أعرفه . . . لأنه أراد الذهاب للعب الكرة ، وأن مطلب الشيخ قد وافق هوى في نفسه . . . لكن بفراسة المؤمن . . . عرف الشيخ ما يدور بخلده . . . فغير رأيه . . . وقال له : نذهب سوياً إن شاء الله . . وفي الطريق أقبل رجل مسن وهو ينادي : يا شيخ حصافي . . . يا شيخ حصافي . . . فلم يرد عليه وقال للراوي : الزم « آداب الطريق حتى نصل إلى الزاوية » ـ (وهي جامعه الآن) ـ وعندما وصل توضأ وصلى ولم يعر الرجل انتباهاً حتى انتهى من قراءة الورد ، ثم قال له : ادخل . . . فدخل الرجل وقال للشيخ متوسلاً به « يا سيدنا الشيخ . . عندي بنت عروسة . . كلما يجيء لها عريس يخطبها . . تقطع هدومها » فقال له الشيخ « بإذن الله نخدمك . . وتخدم أنت غيرك . . ثم أشار إليه بأن يحضر ورق الصفصاف . . ودورق ماء . . فانصرف وبعد برهة حضر ومعه المطلوب . . وهو يرفع يديه بالدعاء . . ويقول : الله أكبر . . الله أكبر . . الله أكبر . . وأراد بالحاح أن يحادث الشيخ فقال له : اسكت . . اسكت . . والرجل يقول : أصل يا سيدنا الموضوع . . والشيخ يسكته . . ثم أشار عليه . . أن يأخذ الدورق لتستحم به ابنته . .

واستطرد الراوي قائلاً : لقد تملكني حينذاك الغيظ من تصرف الشيخ . . إذا لم يعط للرجل فرصة للكلام . . كما أنه حبس فضولي عن معرفة ما حدث له . . الأمر الذي دفعني إلى أن ألحق بالرجل واستفسر منه عما حدث . . وما سبب ترديده : « الله أكبر » فقال : ذهبت لأقطع ورق الصفصاف كما أمرني الشيخ . . فإذا بفرع من الشجرة يجرح يدي فتركته وصعدت أعلى الشجرة وتمكنت من فرع آخر فوجدت في آخره جراباً بداخله علبة صغيرة . . فأخذته ورجعت به للشيخ . . فلم يسمع لي كلام كما علمت . . وإنما أشار أن تستحم ابنتي بماء الدورق وسأفعل إن شاء الله ما أمرني . .

وقال الراوي : ومرت سنوات على هذه الحادثة . . وبالصدفة قابلت الرجل في السوق . . وتذكرت قصته فسألته : كيف حال ابنتك الآن ؟ فرد قائلاً : الحمد لله . . ببركة الشيخ عندها الآن ثلاثة أولاد . .

وللشيخ الحصافي كرامات أخرى كثيرة ، لذلك فله وابنه الشيخ عبد الوهاب مكانة عظيمة حتى الآن عند جمهور الناس . . وتروى مآثرهما العديدة بلسان المريدين والمحبين والعارفين بفضلهما .

ويقام للحصافي الكبير مولداً عظيماً في مدينة دمنهور في نهاية شهر مارس من كل عام ويتخلل هذا المولد قراءة الأوراد ، ومجالس الذكر . وألعاب التسلية (وهذه الألعاب كان يمنعها الشيخ أثناء حياته) وينحر في مولده أربعين ذبيحة توزع على الفقراء والمحتاجين .



الباب السادس

الوصول إلى نتائج محددة عن التنظيم الروحي لحكومة الأولياء

بعد ما تم جمع حصيلة الدراسة الميدانية ، وفحص هذه المعلومات ، ومقارنتها بالمصادر التاريخية ، واستبعاد البيانات ، والآراء ، والاتجاهات التي لا تتمشى مع طبيعة البحث ، والتي يمكن أن تسيره مساراً يبعدنا عن الغاية المنشودة منه .

لذلك فإن غايتنا في هذا الباب ، الوصول إلى نتائج محددة ، تبين إلى أي حد تطابق الدراسة الميدانية مع آراء أئمة الصوفية ، من وجود نوع من التنظيم بين حكومة الأولياء ، وأن هناك نوعاً من الاتصالات يتم بين أصحاب الولاية بعضهم ببعض ، بدون استخدام قوانين الحس الظاهرة .

لذلك فإننا وضعنا فرضاً مناسباً لتحقق تجريبياً من وجود نوع من التنظيم الروحي بين الأولياء ، وقد صغنا هذا الفرض من آراء وأقوال أهل المنطقة من ناحية ، ومن التساؤلات التي تحتاج إلى أجوبة على طريق البحث من ناحية أخرى .

وقد توصل البحث إلى وجود نوع فريد من القرابة بين الأولياء ، وهي غير القرابة الطبيعية والدموية ، واتضح أن هذه القرابة لها علاقة قوية بالتنظيم الروحي لحكومة الأولياء ، وهي تقوم على الرابطة بين الأولياء ، بطريق غير الطريق الحسي ، مما يعزز الاتصالات بينهم ، والتي تتم عن طريق الإشارات والأوامر الباطنية ، ووسيلتها الإلهامات والرؤى والتوجهات ، مما يؤكد صدق الفرض الذي سقناه ، من وجود علاقة ترابطية ، بين القطب الغوث ، وأولياء المنطقة .

وفي ختام البحث حددنا النتائج العامة التي توصلت إليها الدراسة ، وانتهينا إلى صدق الفرض الذي وضعناه .

الفصل الأول

صياغة فرض مناسب للتنظيم الروحي للأولياء

كان لا بد من تطبيق ما تم تحصيله في الدراسة النظرية ومحاولة الكشف عن وجود نوع من التنظيم للولاية الروحية ، وهيكل هذا التنظيم ـ كما تشير الدراسة النظرية ـ إنما يقوم على شكل هرمي معتلياً قمته (القطب الغوث) ، ثم يليه الأمامان ثم الأوتاد والأبدال والرجباء والنجباء والنقباء وغيرهم من أعضاء الحكومة الباطنية .

وقد سبق الإشارة بصدد عرضنا الدراسة النظرية إلى أنّ القطب الغوث إنما يقع في مركز دائرة يحيط بها الأولياء بشكل منظم حسب درجة كل منهم .

لذلك قام الباحث بمحاولة لتطبيق ما أجمع عليه أئمة الصوفية من توكيد لوجود هذا التنظيم الروحي فاختار منطقة (طنطا) كمجتمع يصلح للتطبيق العمّلي حيث يتوافر بها عديد من ضرائح الأولياء فضلاً عما يشاع من أن السيد / أحمد البدوي هو القطب الغوث في زمانه ، كما أن إختيار هذه المنطقة بالذات إنما يرجع إلى أنها بمثابة مركز اشعاع روحي ، ولا يقتصر هذا الاشعاع الروحي على محافظة الغربية وحدها ، وإنما يمتد إلى المحافظات الأخرى .

وقد وجدنا خلال دراسة المجتمع موضوع البحث ، أن هناك اتفاقاً بين أقوال المشايخ والمريدين ـ مع الاعتقاد السائد لدى الجمهور وخاصة كبار السن منهم ـ على أن دولة الباطن إنما هي لمملكة موجودة بكامل هيئتها وممثلة في قطبها السيد / أحمد البدوي ..

وقد أضاف بعض المريدين إلى هذا التنظيم الروحي الأولياء من أهل الغيب وأهل

النجدة باعتبارهم أعضاء في الحكومة الباطنية، ولا شك أن هؤلاء الأولياء لم تستظهرهم الدراسة النظرية .

واقتصر الأئمة الكبار على ذكر القطب والأتاد والأبدال والنقباء والنجباء والرجباء ، ولكن بعض الصوفية قد ذكر أن الأولياء بما فتح الله على أيديهم من الكشوفات والفتوحات يعتبرون من أهل الغيب ، كما أنهم - في نفس الوقت - من أهل النجدة ، لما تتصف نفوسهم بالنورانية والصفاء والاخلاص والإيثار ، وبسعيهم لمشاطرة المكلوم ومناصرة المظلوم ، ومساعدة الضعيف ، وتلبية حاجات الفقراء والمساكين والعمل على إدخال الفرحة والسرور في قلوبهم بما يقدمونه من أعمال البر والخير .

٦ - حصيلة الآراء والاتجاهات :

يمكن إيجاز ما اتفق عليه أهل المنطقة موضوع البحث ، من آراء وأقوال متواترة ، تتردد على ألسنتهم وذلك فيما يلي : -

اتفقت الأقوال هناك على أن الإمامين - هما نائبا القطب - ويحكم كل منهما نصف المعمورة ، وأن الأوتاد أربعة ، وكل وتد يحكم ربع المعمورة .

كما يرى أهل هذه المنطقة أن الأبدال لا يتقيدون بالمكان ، وانهم ينقلبون من حال إلى حال ، ويتواجدون في أكثر من مكان في وقت واحد .

ويقولون أن سيدي محمد العمري (الحدري) مثلاً من الأبدال ، إذ أن له أكثر من ضريح في ذلك المجتمع موضوع البحث (ضريح في منطقة « سبيرباي » وضريح آخر في مدينة طنطا بشارع الصاغة)[1] كما أن سيدي أبا الحجاج الأقصري والموجود ضريحه بالأقصر له ضريح آخر في منطقة سبيرباي .

وتتفق أقوال جمهور أهل هذه المنطقة على أن هناك أكثر من ضريح لسيدي أبي الدرداء بالاسكندرية ، وللشافعي والحسين بالقاهرة ، ويجمعون الرأي على أن القرب والبعد المكانيين من مركز القطبانية لهما علاقة وثيقة بدرجات الولاية الروحية . وذلك يعني انه كلما كان ضريح الولي قريباً من مركز القطبانية كانت درجته عالية ومقامه رفيعاً في التنظيم الهرمي للولاية الروحية .

ونمثل لذلك بالشعاع الصادر ، فالرؤيا تكون أكثر وضوحاً كلما قربنا من مصدره

---

(1) راجع دراسة عن مطقة سيرباي (كمودج) بالكتاب

الأصلي . ومعنى ذلك ، أن سيدي عبد المتعال (عبد العال الأنصاري) خليفة السيد البدوي ونائبه في حياته ، هو في الدرجة التالية للقطب الرباني أحمد البدوي ، إذ يقع ضريحه عند باب السر بالجامع الأحمدي . وكذلك سيدي نور الدين ، وهو الخليفة الثاني للقطب البدوي . كما يقع ضريح سيدي مجاهد بالجامع الأحمدي أيضاً .

وتتفق الأقوال أيضاً على أن قطب هذه المنطقة ـ كما سبق الإشارة ـ هو سيدي / أحمد البدوى السطوحي[2] ، وعلى أنه هو مصدر الاشعاع الروحي الذي لم ينته بوفاته ، بل يزداد شهرة عند مريديه والعارفين قدره على الزمن ، كما قد أصبحت المنطقة التي يوجد بها ضريحه بفضل تواجده بها عاصمة لمحافظات الوجه البحري .

ولم يصادف الباحث ثمة تباين بين أقوال المشايخ والمريدين بالمنطقة حول إقامة الولي في حياته واختيار مكان وفاته . فقد أجمعت أقوالهم على أن ذلك إنما يتم بأمر علوي وحسب ما يؤذن به الولي ، ويدللون على ذلك بأن الولي الموجود ضريحه بالمنطقة ، ليس من المحتم أن يكون من أهلها ، فقد يستقر في منطقة أخرى غير التي ولد بها . والأمثلة على ذلك في واقع الأمر كثيرة مثل سيدي قمر الدولة ، وسيدي حسن الصائغ ، بل ان سيدي أحمد البدوي نفسه ليس من أهل المنطقة ، ولكنه هاجر صبياً من مدينة (فاس) بالمغرب العربي إلى (مكة) المكرمة ثم انتقل بأمر علوي إلى (طنطا) .

وقد اتضح من البحث أن وزراء ومريدي البدوي يلتقون حول محيطات دوائر عديدة تتسع تدريجياً حسب منازلهم ومقاماتهم ودرجاتهم ، وأن القطب السيد أحمد البدوي هو مركز هذه الدوائر جميعاً ـ كما اتضح أيضاً أن أولياء الدرجة الواحدة أو المنزلة المشتركة تقع ضرائحهم على محيط دائرة واحدة .

لذلك قد أولينا جل اهتمامنا بهذه النقطة الأخيرة حتى يمكن الوصول تجريبياً إلى نتائج محددة ، لكي نثبت صحة أقوال أئمة الصوفية من عدمها . وفعلاً قد تم في البحث محاولة لاثبات أن ضرائح الأولياء إنما تقع على محيط دوائر مركزها السيد / أحمد البدوي ، كما قد أثبت البحث باستخدام خرائط المساحة وتعيين مراكز ضرائح أولياء المنطقة عليها أن المسافة واحدة بين مركز كل ولي على محيط الدائرة ومركز الدائرة التي يقع عليها مركز موقع القطبانية .

وقد تم تنفيذ التجربة ، وذلك حتى يمكن تطبيق ذلك عملياً على أولياء ضواحي

(2) راجع أحمد البدوي ـ بالكتاب .

مدينة طنطا ، وهم الأولياء أتباع السيد البدوي الموجودين بها وعن طريق الاستعانة بخرائط المساحة ، وباستبعاد النظر لطرق المواصلات المؤدية إلى الضرائح . ثم انتهينا إلى استخلاص نتيجة عامة هي : إن المسافة بين مركز القطبانية وضريح ولي المنطقة من أتباع البدوي واحدة بالنسبة لجميع الأولياء في القرى والنجوع المختلفة : « كنفيا ، وسيجر ، واخناواي ، والجوهرية ، وكفر عصام ، وغيرها » .

وعندما اتضح ذلك من البحث ، طرح الفرض الآتي لمحاولة اثبات صحته تجريبياً وهو « إن قطب المنطقة يقع في مركز دائرة ينتشر على محيطها ،زراؤه وأتباعه من الأولياء في الحكومة الباطنية » . وقد صادف الباحث بعض الصعوبات سنعرض لها بعد أن نطرح بعض التساؤلات التي لا غنى عنها في هذا المجال .

2 ـ تساؤلات على طريق البحث :

كان لا بد من طرح بعض التساؤلات[3] كمحاولة للتوصل عملياً إلى إجابات عليها ، وذلك بغية الكشف عن وقائع جديدة لاستجلاء غوامض البحث .

1 ـ هل الولي الموجود بالمنطقة من المعاصرين للسيد أحمد البدوي ؟

2 ـ هل هناك روابط من نوع ما بين الولي وبين البدوي ؟

3 ـ ما هو مركز هذا الولي بين أقرانه من الأولياء ومنزلته الروحية في حياة البدوي ؟

(أ ـ أكان صاحبه . ب ـ أكان مريديه . جـ ـ أكان مساعداً له ؟) .

4 ـ إذا كانت وفاة ولي المنطقة بعد وفاة البدوي ، فكيف استمد نفوذه الروحي ؟

(أ ـ هل بطريق التوجه ؟ ب ـ أم بطريق الالهام . جـ ـ أم بطريق الرؤيا ؟) .

5 ـ إذا لم يكن ولي المنطقة قد عاصر السيد البدوي ، ولم يأخذ عليه العهد في حياته ، فما هو نوع الرابطة الروحية بينهما ؟

(أ ـ هل كان أساس الرابطة ، هو التبعية للطريق الأحمدي ؟) .

(ب ـ هل كانت الرابطة بأمر من البدوي عن طريق الوجه أو الرؤيا أو الالهام ؟

---

(3) قام الباحث في الدراسة الميدانية بتصميم استمارات الرد على هذه التساؤلات، وتم تطبيقها على خمسمائة حالة من المريدين .

وإلى أي حد يلعب التوجه والالهام والرؤيا في توجيهه إلى مقامه ومكانه ؟) .

(حـ ـ هل يستقر الولي في منطقة ما بناء على أمر من البدوي في حياته أو بعد انتقاله ؟) .

6 ـ هل يمحي الاعتقاد أو يضعف في ولي من الأولياء ، مما يكون سبباً في خروجه من الولاية ؟

(أ ـ هل يمكن أن يقوي الاعتقاد أو يضعف في ولي مع الزمن ؟) .

(ب ـ وما هي الأسباب التي تبعث على الاعتقاد في ولي من الأولياء ؟) .

(جـ ـ ما أسباب فتور وضعف هذا الاعتقاد ؟) .

7 ـ هل القرب أو البعد المكانين ، من مركز القطبانية له علاقة بدرجة الولاية ؟

(أ ـ هل القرب المكاني له تأثير على ذيوع شهرة الولي أو ضعفها ؟) .

(ب ـ هل شهرة الأولياء الواقعة ضرائحهم على محيط دائرة واحدة على درجة واحدة من الشهرة) .

8 ـ هل تختلف استمدادات بركة الأولياء المدفونين بالقرب من السيد البدوي عن استمدادات بركة الأولياء المدفونين بعيداً عنه ؟

9 ـ هل يوجد من ينازع البدوي نفسه ـ في زمانه القطبانية ؟

10 ـ إذا صح أنه القطب الغوث في زمانه ، فهل تتسع دوائر قطبانية باعتباره مركزاً للإشعاع الروحي لتشمل العالم كله ؟ وهل له مريدين واتساع في أنحاء المعمورة ؟ ومن هم ؟ وهل يمكن تطبيق نظام الدوائر باعتبارها أكمل الأشكال عملياً لامتحان صحة هذا الفرض[4] ؟

جـ ـ الصعوبات في البحث :

من الصعوبات التي صادفت الباحث أن كثيراً من أولياء منطقة البحث غير مدونة بضرائحهم تواريخ وفاتهم ، وغير معرف العصر الذي عاشوا فيه ، وبالرجوع إلى المراجع

---

(4) يحتاج الرد على هذا التساؤل إلى توفير إمكانيات مادية وتكنولوجية ، وإلى لفيف من الباحثين وإلى وقت طويل . ونرجو أن يتيسر ذلك مستقبلاً

لم يتيسر معرفة ترجمة عن حياة أصحاب هذه الولايات فكان لا بد من الاسترشاد والاستهداء بأهل تلك المنطقة وخاصة كبار السن منهم لمعرفة تواريخ الوفاة التي يمكن أن توضح الروابط بين الولايات الصغيرة وبين القطب ، إلا أن النتائج التي توصل إليها الباحث من الحصيلة التي جمعت تبين أن انتقال بعض هؤلاء الأولياء إلى الحياة الأخرى ، تم منذ 300 ـ 500 عاماً .

هذا معناه أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الأقوال لتباينها الواضح وافتقارها إلى الدقة فيما يختص بهذه المسألة ، فقد اتضح من البحث أن تحديدات كبار السن وجمهور المنطقة لتواريخ وفاة هؤلاء الأولياء غير دقيقة ، وقد تبين لنا أن أكثر هذه التواريخ قد دونت على ضرائح الأولياء في الأربعينات من هذا القرن تدويناً تقديرياً .

كما لوحظ أيضاً أن أسماء الأولياء المدونة على ضرائحهم أو التي اشتهروا بها ليس لها أساس تاريخي صحيح ، إذ أن أغلبها أسماء شهرة أو أسماء غير كاملة .

وبالبحث لم يتعرف على سلاسل النسب الخاصة بهؤلاء الأولياء، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن أهل منطقة البحث وخاصة كبار السن منهم ، الذين رجع الباحث إليهم ، لا يعرفون الكثيرون من الأولياء أصحاب الضرائح : (سيدي سالم ، وابن حكام ، وهنداوي ، والحريري ، وشعبان ، وخلف ، واسماعيل ، وسلطان ، وإبراهيم ، وزين ، وداود ، ومقلد ، والست عزبة ، ومهنا) . بل لا يعرف أهل المنطقة عنهم سوى أنهم من الصالحين ، ولا يعرفون عنهم إلا ما تناقل عن أهليهم من كرامات وخوارق عادات .

ولقد ذكر لنا الشعراني والمناوي أسماء بعض هؤلاء الأولياء ، وأماكن إقامتهم ووفاتهم في طبقاته[5] ، ومن ذلك ما رواه عن أتباع السيد / البدوي من أن أسماءهم تبدأ بـ (عبد) ، ومقال ذلك : (عبد الرحمن ، وعبد الرحيم ، وعبد الوهاب ، وعبد المتعال وغيرهم) ، إلا أنه لم يحدد لنا عدد هؤلاء الأولياء ، وإنما ذكر فقط المعروفين منهم ، والذين اشتهروا في عصره . والمعروف أن الإمام الشعراني عاش بعد عصر السيد / البدوي بـ 300 سنة تقريباً .

وقد ذكر لنا الشعراني أيضاً أن بعض هؤلاء الأولياء من أتباع البدوي وتلامذته وحدد في طبقاته[6] هؤلاء الأولياء أمثال : (إسماعيل الامبابي ، وسيدي يوسف

---

(5) الامام الشعراني ـ الطبقات الكبرى من ص 158 إلى ص 164 جـ 1

(6) المرجع السابق .

الامبابي ، وسيدي الجيزي ، ومحمد المنير) ، وكما هـو معروف أن ضرائـح هؤلاء الأولياء مـوجودة في امبـابة بـالقاهـرة والجيزة ، وليست في منـطقة البحث كـما أشـارت إلى ذلـك المراجع .

من كل ذلك اتضح من البحث الميداني ـ على الوجه الذي أشرنا إليه ـ وجود عديد من الصعوبات مما استوجب الحصول على معلومات وفيرة عن طـريق الملاحـظة المباشرة ، وغير المباشرة ، وذلك لكي تتوافر للباحث المعلومات الواقعية غير المتنـاقضة ، للمجتمـع المدروس ، ولذلك اضطر الباحث إلى الاستعانـة بأهـل المنطقـة ، وكبار السن فيهـا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ من السكان الأصليين ، حتى يمكن الاهتداء إلى تواريخ حياة ووفاة أصحـاب تلك الأضرحة ، ما أمكن ذلك .

وفعلاً تبين أن لبعض هؤلاء الأولياء ذرية موجودة بـالمنطقـة أو خارجهـا مثل عـائلة البهي ، والشنـاوي ، والعصامي ، والبـابلي ، والجـوهري ، ممـا يسر للباحث الاتصـال بهم ، والاطـلاع لديهم عـلى سـلاسـل النسب ، التي عـاونت في البحث إلى حـد مـا ، واعتبرت من المراجع الهامة لأصحاب الولايات الذين لا يعرف عنهم الكثير .

الفصل الثاني

بعض الأدلة على وجود قرابة ما بين الأولياء

تبين من البحث أن العلاقة التي تربط بين البدوي رضي الله عنه وبين أتباعه ومريديه من الأولياء هي علاقة من نوع فريد ، لا يمكن أن نجدها في الجماعات والزمر الاجتماعية المختلفة ، إذ أنها علاقة بنوة روحية تسمو على العلاقة الدموية . واتضح أيضاً أن بعض هؤلاء الأولياء ليسوا معاصرين زمنياً للسيد البدوي ، وإنما هناك علاقة تبعية ، وهذه التبعية بالطريق الأحمدي غير شخصية . إذ يتم الاتصال بين القطب وأتباعه ومريديه وتلامذته ووزرائه عن طريق الإلهامات والرؤى والتوجهات ، حتى أنه يمكن القول أن تعيين الخليفة أو أخذ العهد أو خلع المشيخة ، إنما يتم الطريق ، والأمثلة على ذلك كثيرة فمثلاً سيدي الشناوي ـ وهو من أشياخ الطريق الأحمدي والذي بينه وبين البدوي أكثر من ثلاثمائة سنة ـ قد أخذ العهد على البدوي بل وتقلد المشيخة بأمر علوي في شكل إلهام أو عن طريق الرؤيا ، وعندما جماءه الأمر قال . « الله أكبر فتحت سيجر » . وهذا معناه أنه جاءه الأمر لتقلد المشيخة بالطريق الأحمدي في منطقة (سيجر) بناء على اتصال قد تم بينه وبين السيد / أحمد البدوي ، وكذلك سيدي العصامي الذي توفي في القرن التاسع عشر الميلادي .

ونؤكد إستبعادنا هنا لعنصر التزامن أو شرط التواجد في فترة زمنية واحدة . وعنصر الزمن الذي استبعده هنا لا يؤثر في الرابطة الروحية بين القطب وأولياء المنطقة ، إذ أن العلاقة إنما هي نوع فريد لا تتأثر بالزمان والمكان ، فهي علاقة (فوق الزمانية) ، لأنها تقوم أساساً على التوجه والرؤيا والإلهام ، وهذه جميعاً وسائل للاتصال بغير الطريق

الحسي[1] . ومن ثم فقد استدعى ذلك تنحية عنصر المعاصرة أو التزامن جانباً ، إذ أن الولي إما يلهم بالحقائق إلهاماً ، وينطق كشفا ، وتلقى في روعه الأسرار إلقاء ، فلا يكون جسم الولي وسيلة من وسائل المعرفة ، بل على العكس من ذلك يضعف من حال الشفافية والصفاء ، ويعوقه عن الكشف والرؤيا ، ويحجبه أحياناً عن استجلاء الحقائق والأسرار خاصة إذا كانت النفس صاحبة هذا الجسم مشغولة بحظوظها .

ويجزم عديد من المريدين والمشايخ أن السيد / أحمد البدوي يتصل حتى الآن بالأولياء ـ سواء الأحياء منهم أو الأموات ـ عن طريق التوجه والإلهام والرؤى ، وأنه يوجه أصحابه من الأولياء والصالحين بصورة منتظمة بطريق غير الطريق الحسي .

ويؤيد الشيخ الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ما يذهب إليه الجمهور في القول بوجود نوع من الاتصال بين الأولياء ، الأحياء منهم والأموات[2] .

الأوامر والإشارات الباطنية :

واستبعادنا لعنصر المعاصرة هذا قد يسر لنا السير في الدراسة الميدانية بخطى ثابتة والوصول إلى نتائج محددة بافتراض وجود صلة روحية بين الأولياء ، وبتسليمنا بأن الاتصال إنما يتم بالإلهام والرؤية والتوجه ، وهذا معناه أن الاتصال دائم ومستمر حتى وقتنا هذا ، بين البدوي ومريديه وأتباعه ، وما تزال تصلهم إلى الآن إشارات من البدوي عن طريق هذا الاتصال الروحي .

وكما يروي أحد المريدين المعاصرين وهو من أتباع الطريق الأحمدي والمشهود له بالصلاح والتقوى ، أن البدوي على اتصال دائم به لأنه يحادثه ويأمره بفعل شيء وينهاه عن غيره ، وهو يحافظ على تلبية أوامره الباطنية ، مثل الإشارة التي وردت له من البدوي بوقف طبع كتابه (العظة والاعتبار)[3] ، فأوقف طبعه في الحال .

وقد تبين من البحث الميداني أن الاتصال الروحي بين الأحياء والأموات هو الطريق المعتاد الذي يحظى به أهل الحق .

والمريدون في الطريق الصوفي يعتقدون أن هذه الاتصالات أمر طبيعي ، فيرون

(1) راجع مجالس الأولياء بالكتاب

(2) دكتور عبد الحليم محمود ـ أو الحسن الشاذلي ـ أعلام العرب .

(3) كتاب (العظة والاعتبار) للشيخ أحمد حجاب ـ قام بطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ وهو ترجمة لحياة البدوي الدنيوية والبرزخية

الكثير من هذه الاتصالات الروحية تتم في مجالسهم وحضراتهم الصوفية ، ويربطون بينها وبين الأحداث الجارية ، فيقولون مثلاً : أن الشيخ (فلاناً) انتقل ودفن في المنطقة (الفلانية) بأمر باطني تلقاه هو أو غيره أثناء حياته أو بعد وفاته . كما أن (التاجر الفلاني) قدأتته إشارة من القطب البدوي لمباشرة أعماله في منطقة كذا .

ومعنى ذلك أن الأحداث اليومية العادية إنما تتم عندهم عن طريق الأوامر الباطنية سواء ، كان ذلك تجارة أو نسباً أو عملاً أو غير ذلك من شؤون الحياة العادية ، فكل فعل من الأفعال الظاهرة له ما يقابله من الأوامر والإشارات الباطنية بل ما يبرره من التعليمات والنواهي في كل حال وإرادة وفعل وعمل .

ويؤيد الصوفية ذلك بالحديث النبوي الشريف : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

إذا سلمنا بالقول بوجود نوع من الاتصال في ما بين الأولياء بغير الطريق الحسي ، وبوجود نوع من التنظيم بين الأولياء الأحياء والأموات ، فإن ذلك يفسر لنا سبب وجود الأولياء أتباع البدوي على محيط دائرة أو أكثر ، يكون مركزها القطب البدوي . ومعنى ذلك هو التسليم بأن الولي الذي يقع ضريحه على محيط الدائرة هو من اتباع البدوي أو من تلامذته الأولياء ، وأن هناك أمراً باطنياً قد صدر من البدوي بتواجده واستقراره في هذه البقعة بالذات . ولكننا لاحظنا من البحث وجود أكثر من دائرة يقع على محيطها أولياء من أتباع البدوي تختلف ضيقاً واتساعاً ، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن كنه هذه العلاقة .

ب ـ العلاقة الترابطية بين القطب والولي :

وهنا يجب أن نتساءل عن مدى الاختلاف الذي يميز بين ولي وآخر ، وإذا كانت المسافات هي الأساس كما سبق الإشارة في الحكم على قرب الولي لمركز القطبانية وبعده عنها ، فكيف نفسر وقوع بعض ضرائح أصحاب الولايات في أماكن متناثرة لا تربطهم بأي الدوائر المفترضة أي صلة ؟

ولكن تمشياً مع الفرض الذي وضعناه ، فإن جميع الأولياء الذين يقعون على محيط الدائرة التي مركزها القطب ، سيكونون موضوع الدراسة وعلى ذلك فإننا إستبعدنا كل ضريح ولي غير واقع على محيط الدائرة المفترضة حتى يسير البحث مطابقاً مع الفرض الذي وضعناه ، وحتى لا نبتعد كثيراً عن هدفنا من البحث .

لذلك فقد طبقنا ما سبق الإشارة إليه وركزنا على جميع أصحاب الأضرحة من

مريدي السيد البدوي المعاصرين له وغير المعاصرين ، ماداموا يقعون على محيط الدائرة المفترضة ، كما أننا استبعدنا أصحاب الأضرحة الأخرى الذين لا تظهر أضرحتهم على محيط الدائرة باعتبار أنهم من أصحاب البدوي ، إذ أن البدوي كما هو معروف عنه كان عطايا ، أي أنه إذا غضب على ولي من الأولياء فإنه يمحو حبه من قلوب الناس فينتكس وتضيع شهرته ويحجب وينزل في المقام كأن لم يكن ولياً من قبل ، وهذا ما أيده لنا جمهور المنطقة وهو ما يتفق مع ما ذكر الشعراني في طبقاته ، والمشهور عن البدوي حتى الآن أنه لا يعترض عليه أحد إلا ويصيبه الضر والغم .

وقد اتضح من البحث أن بعض الأولياء كانت لهم شهرة واسعة أثناء حياتهم ، ثم طمست ولايتهم ، ولم يعرف عنهم بعد وفاتهم أي فلاح أو صلاح ، وهذا ما يؤيده بعض أئمة الصوفية الذين يقولون بأن الولي قد يبتلى بانتكاسة في ولايته الروحية عقاباً لإفشائه الأسرار التي أمر بكتمانها أو جزاء لاغتراره ، إذ ينتكس الولي في المقام ، ويسقط في الحجب بعد الكشف ، كما قد دل البحث على أن بعض أولياء المنطقة كانت لهم منزلة متواضعة في حياتهم ثم زادت درجة ولايتهم بعد انتقالهم إلى الحياة الأبدية ، بل طبقت شهرتهم الأفاق .

وتستدعينا هذه النتيجة إلى إجمال النتائج التجريبية الأخرى التي توصل إليها البحث .

الفصل الثالث

النتائج العامة

قد أوردنا في سياق عرضنا في الصفحات السابقة بعض النتائج التي توصل إليها بحثنا الميداني ، وفيما يلي تجمل بعض النتائج الأخرى بعد أن ألمحنا إلى الصعوبات التي واجهتنا . وطرحنا قبلها بعض تساؤلاتنا الضرورية ، كما أننا قد حاولنا بما جمعنا من ملاحظات وأقوال وآراء وإحصائيات واستبيانات ، وما قمنا به من لقاءات ، وما قد تم تحصيله من معلومات وما تم تجريبه عملياً وتطبيقه من واقع الدراسات النظرية ، وما رجعنا إليه من مصادر تاريخية ، حاولنا من هذه الحصيلة المتواضعة الإجابة على التساؤلات التي أوردناها في الفصل السابق وإثبات صحتها من عدمها . فالملاحظ من البحث أن المنطقة المدروسة تمتاز بوجود عدد كبير من أضرحة الأولياء ، وهو أمر غير متوافر في منطقة أخرى بجمهورية مصر العربية ـ فمثلاً في قرية (الجوهرية) ـ وهي من ضواحي طنطا ـ يوجد بها أكثر من أربعين ضريحاً للأولياء ، كما لا يخلو نجع من نجوعها إلا ويوجد به أحد أضرحة الأولياء .

وقد اتضح من الدراسة الميدانية عدم وجود ضرائح لأولياء بالمنطقة لا يخضعون للبدوي باعتباره قطب المنطقة ، وفي رأينا أن ذلك راجع إلى ضعف شهرتهم التي كانت من قبل معروفة ، وذلك للأسباب التي فصلناها من قبل .

ونمثل لذلك بقرية ـ الجوهرية ـ التي يوجد بها ضريح سيدي عبد الوهاب الجوهري ، ومعروف لجمهور الخاصة والعامة أنه وزير البدوي ومساعده ، وأنه من معاصريه مما زاد من شهرته ، وتوجد بجواره ضرائح لـ ـ 25 ـ ولي ، وليس لهم شهرة الجوهري ، ولو أنهم يقعون على نفس محيط الدائرة المفترضة التي مركزها البدوي باعتبار

أن الشهـرة هي السمة الأساسيـة والفيصـل في الحكـم عـلى الـولي ، وتبعيتـه للطريق الأحمـدي ، أم أن هؤلاء الأولياء المغمـورين يمثلون دائرة أخـرى يكون مـركزهـا سيـدي الجوهري باعتباره قطب قرية الجوهرية؟

في الواقه أن احتمال وجود صلة بينهـما وبين السيـد البدوي ، إنمـا هو احتـمال قائم وذلك تمشياً مـع الفرض الـذي وضعناه إذ أنهم يقعـون على نفس محيط الـدائرة مـركزهـا البدوي وإن لم يكونوا قد حـظوا بالشهـرة التي يحظى بهـا الجوهـري . ومن ناحيـة أخرى يمكن القول أن سيدي الجوهري كان يختار المريدين الصـالحين للطريق الأحمـدي ، إذ أنه كـان وزيراً للبـدوي . ومن المأثـور عنه أنـه كان يمتحن المـريـد قبـل انخـراطـه في سلك الصوفية . وذلك بأن يطلب منه أن يـدق مسماراً في الحـائط ، فإذا تمكن من ذلـك قبله ، وإذا تعثر رفضه ، وما زال هذا الحائط قائماً إلى يومنا هذا .

وهذه الإجازة هي إشارة صوفية لصلاح المريد في الطريق الصوفي وهو تعبير مجازي عن استعداد المريد وقدراته على المثابرة والمكابدة والمعاناة ، والتي يجب أن تتـوفر في المـريد المبتدىء .

ومعنى أن الجوهري هو الذي يقبل ويرفض المـريد في الـطريق الصوفي أن البـدوي قد فوضه لهذا الأمر وأن رضاء الجـوهري هـو رضاء ـ في نفس الـوقت ـ للبدوي ، إذ أن المدد بين البدوي والجوهري متصل ، وأن هناك اتصالاً غير حسي بينهما كـما سبق الإشارة إلى ذلك ، وهذا الاتصال بمثابة مشاركة في الرأي والأمر والنهي ، وبه تعبـير عن الاختيار الصالح للمريدين ، فـالمسمار يعـبر عن وعورة الـطريق ، والنجاح معنـاه الصلاحيـة على التحقيق .

القرابة الروحية والقرابة الطبيعية :

صفوة القول هنا أن القرابة الروحية عند أهل الطريق أقوى من القرابة الطبيعيـة ، وهذا ما يؤكده المريدون ، وتشير إليه المراجع الصوفية ـ ومثال ذلك أن سيدي عبد المتعال الأنصاري ، وهو الابن الروحي وتلميذه وخليفته الأول ، لا يمت للبدوي بصلة دموية ، وإنمـا تولاه البـدوي منذ كـان صبياً وربـاه وعلمه كـما علم غيره حتى أصبـح نائبـاً لـه في الشؤون الروحية ، ولما انتقل دفن إلى جوار القطب البدوي ، في جامعه عند باب السر .

ويمكن أن تقودنا هذه الملاحظة إلى التسليم بصدق الفرض القائل بأن درجة القرابة الروحية لها علاقة ما بالبعد والقرب المكانيين .

ومن ناحية أخرى فإن خليفتي البدوي الثاني والثالث ، مدفونان في جامعه ، مما يدعم هذا الرأي ، كما أنه قد لوحظ من البحث الميداني ، وما تم جمعه من معلومات عن المنطقة المدروسة ، أنه كان يوجد ولي يطلق عليه اسم (وجه القمر) ، وهو صاحب الايوان العظيم الذي ورد ذكره في طبقات الشعراني ،على أنه ولي من الأولياء الكبار ، وأنه قد انتكس بسبب الحسد لاخوانه من الأولياء ، فغضب عليه البدوي ، وأصبح مكان ضريحه ـ كما يقول الشعراني ـ مأوى للكلاب[1] .

وقد قام الباحث بمحاولة للإهتداء إلى صاحب هذا الضريح فلم يكشف مكانه أو يتعرف على شيء عنه ، رغم اعتماده على عدد كبير من جمهور المنطقة وكبار السن فيها .

وهناك مصادر أخرى تؤيد الفرض القائل بالقرب والبعد المكانيين كأساس للحكم على قوة العلاقة الروحية وضعفها بين القطب ومريديه وهو ما يتناقله الجمهور عن سيدي حسن الصائغ قال : « لقد حضر صاحب البلدة إلا أننا حسب ما جمعناه من حصيلة المسح الاجتماعي ، ومن الدراسة النظرية قد اتضح أن سبب ذلك يرجع في تصورنا إلى أمر باطني قد صدر من البدوي إلى حسن الصائغ ، أي أن سيدي البدوي ، عندما حضر إلى طنطا عرف الناس مقامه ، فعرف الصائغ مقامه ودرجته من مركز القطبانية ، فانتقل إلى القرية المذكورة ، وهي المكان الذي يجب أن ينتقل إليه حسب منزلته في السلم الروحي .

وهناك رواية أخرى يتناقلها الجمهور عن سيدي سالم المغربي المدفون حالياً بمدينة (طنطا) بجوار ضريح البدوي ، قريباً من باب السر إذ المعروف أنه كان موجوداً أيضاً بالمنطقة قبل حلول البدوي ، إلا أنه بقي مكانه ـ وهذا يقودنا إلى القول أن البدوي يأمر مريديه ويقربهم ويبعدهم حسب الصلة الروحية التي تربطهم به .

ويذكر جمهور المنطقة أن السيد البدوي كان يوزع أتباعه ورجاله ويأمرهم بالاستقرار في المناطق يحددها لهم ، فمن المتواتر عنهم قوله : « اذهب يا فلان في منطقة كذا ، فيوجد لك فيها فضل ورزق . . . إن شاء الله » . ويقول بعض شيوخ المنطقة أن احتيار الأمكنة والاتباع للطريق الأحمدي إنما كان بواسطة الإلهامات والرؤى ، أي ليس بالطريق الحسي . بدليل أن البدوي كان يشد من عضد مريديه ويقويهم على المجاهدة ، وذلك عن طريق الهجرة إلى أمكنة يختارها لهم ، وما يروى عنه قوله : « إن شاء الله

(1) الشعراني الطبقات الكبرى 158 ـ 164 جـ 1 .

سيكون لك في هذا المكان ذرية صالحة وأتباع وكرامات عديدة وشهرة واسعة » .

والواقع أن ذلك كان يتحقق دائماً بمشيئة الله فالمعروف أن أتباع البدوي في المنطقة لهم شهرة واسعة رغم وجود قطبهم البدوي فيها ، إذ يحظى كل منهم ببعض الكرامات التي لها علاقة بالبيئة مما يقرب إليهم أصحاب الحاجات . ومن ناحية أخرى فإنهم يقولون أن البدوي صاحب باع طويل ، ومن ثم يجب على صاحب الحاجة أن ينتظر حتى تتحقق حاجته ، أما صغار الأولياء فمن اليسر لهم تنفيذ حاجات الطالبين البسيطة حسب اختصاصهم في التنظيم الروحي .

والغريب أن كثيراً من أولياء المنطقة المدفونين فيها غرباء عنها ، وليسوا من أهلها ومن هنا يمكن استنتاج أن الولاية الروحية لا تتعلق بالوراثة الدموية ولا بجنسية وموطن الولي ، وإنما اختيار الولي المناسب في المكان المناسب ، أي النظر لصلاحية الولي في تحمل الرسالة الدينوية والأخروية .

ويمكن القول أن ذلك مطبق كقاعدة على جميع الأولياء بصفة عامة، ونمثل لذلك بسيدي أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى وهما من مدينة (فاس) بالمغرب ، ويزار ضريح أولهما في منطقة ساحل البحر الأحمر ، وضريح الثاني في حي (الأنفوشي) بالاسكندرية .

وينطبق ذلك أيضاً على سيدي عبد الرحيم القنائي ، وسيدي أبي الحجاج الأقصري المدفونين بقنا والأقصر ، وهما من المغرب أيضاً ، فضلاً عن أن سيدي البدوي نفسه ـ كما سبق الإشارة في ترجمة حياته ـ من المغرب العربي .

ونستنتج من ذلك كله أن أولياء المنطقة يقفون على محيط دائرة أو أكثر ، يكون مركزها القطب البدوي ـ وأنه كان يحدد لأصحابه وأتباعه ومريديه أماكن الإقامة حسب درجتهم في الولاية الروحية ، وأن القرب والبعد المكانيين يؤسسان التنظيم الداخلي للحكومة الباطنية حسب ما اتضح من البحث كما أنه قد وضح صدق ما أشار به أئمة الصوفية من أن أكمل الأشكال عندهم : الدائرة .

ومن ناحية أخرى ، فقد تبين أن القطب يستطيع توجيه أتباعه بطريقة أكمل وأتم من مركز الدائرة ، وأن المريدين يكونون تحت اشرافه وخاضعين لمدده ، وعندما تكون إقامتهم على محيط دائرة أو أكثر حسب درجتهم في الولاية الروحية .

والمعروف أن السيد البدوي ، كان وما يزال على صلة من نوع ما واتصال روحي

بمريديه ـ وكان يقول دائماً : (أنـا ريت من لا زيت له) . وهـذا معناه أن المـدد الحقيقي لهم ، إلا أنه كان يردد القول أنه لا يمدهم بحوله ولا بقوته ، وإنما ببركة النبي ﷺ .

ومن المسح الميداني ، اتضـح إذن صدق الفـرض الذي وضعنـاه ، وهو أن أوليـاء ضواحي طنطا يلتفون حول محيط دائرة مركـزها السيـد البدوي المتـوفي عام 675 هـ وأن هناك علاقة ترابطية فـريدة بينهم بـاعتبارهم من شيـوخ الطريق الأحمـدي وقد تم ، بعـد الحصـول على خـرائط من مصلحة المسـاحة ـ كـما سبق الإشارة ـ الـوصول إلى النتـائج الآتية :

اخترنا مبـدئياً خريطة من (10و0001) توضـح القرى المحيـطة بمنطقـة طنطا . موضوع الدراسة وهي بالتحديد :

1 ـ قحافة 2 ـ خرسيت 3 ـ كفر عصام 4 ـ كفر الحما
5 ـ الجوهرية 6 ـ سيجر 7 ـ فيشا 8 ـ نفيا
9 ـ ميت حبيش 10 ـ اخناواي

أما (سبيرباي) ، فلم تظهر ـ كما ذكر آنفاً ـ على خريطة المساحة ، ولو أن المسـافة كـما اتضح من البحث واحـدة ، وذلك عن طـريق مقـارنـة الخـرائط المسـاحيـة بعضهـا ببعض ، وقـد أعطت المؤشرات الأوليـة ، أن استخدام المـواصلات العـادية ، يـظهر أن الأبعـاد بين ضرائـح الأولياء وبـين مركـز القطبـانية ليست واحـدة ، إذ تتفاوت المسـافـة باستخدام طـرق المنطقـة (بين 3 : 5 كيلو مـترات) . ولكن بمطابقـة خريـطة المساحـة اتضح أن المسافات الحقيقية بين كل ولي من هؤلاء الأولياء وبين مركز القطبانيـة واحدة ، إذ أن المساحة على وجه التحديد هي (2 كيلو متر وتسعمائة متراً) .

وقـد تبـين من البحث الميـدابي أن المسـافـة هي عبـارة عن نصف قـطر الـدائـرة المفـترضة ، أي أن القـطر هو (5 كيلو مـترات وثمانمـائة متـراً) ، وذلك بعـد أن حددنـا الأمكنة ، وربطنا ذلك كله بدائرة واحدة تمشياً مع الفرض الذي سبق لنا وضعه .

كما اتضح من البحث أيضاً أن هناك عـلاقة روحيـة فريـدة بين ولي المنـطقة وبـين القطب ، تجعل من الفرض الذي طرحناه صادقاً .



الباب السابع

الصوفية وثمرات التصوف

نعرض في هذا الباب الفرق بين الصوفية والباطنية إذ يختلط على كثير من الناس ما يقوله أهل الحق ، وبين ما يدعيه أصحاب الباطنية ، خاصة وأن هناك التباساً في الألفاظ التي يستخدمها كل منهم .

كما نعرض في هذا الباب أيضاً الدعاوي والاتهامات التي وجهت إلى أهل الحق الصوفية من بعض الطاعنين والمدعين وردودنا عليها .

ولقد كان تفسيرنا للمعاني الصوفية ، وردودنا على الطاعنين ؛ نستهدف منه وجه الله تعالى ، وكلمة الحق ، غير عابئين بمصالح مادية ، أو أهداف منفعية ، إنما وضع الحق في نصابه ، في غير تحيز أو تعصب أو كراهية ، الأمر الذي سيلمسه القارىء بين ثنايا هذا الباب . ونختم هذا الباب بذكر ثمرات التصوف التي تعود على المريد فضلاً وخلقاً وعلماً ومصلحة .

وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول : ـ
الفصل الأول : الصوفية والباطنية .
الفصل الثاني : رد الهجوم على الصوفية .
الفصل الثالث : ثمرات التصوف .
ونقسم هذا الفصل إلى الموضوعات الآتية :
1 ـ العمل والصوفية .
2 ـ الصوفية والحكام .

3 ـ تعاليم الطريق وآدابه .
4 ـ تأثير الطريق على شخصية المريد .
5 ـ السلوك الأخلاقي في الطريق الصوفي .
6 ـ منافع الطريق الصوفي .
7 ـ الباعث على الدخول في الطريق .

الفصل الأول

الصوفية والباطنية

يخلط كثير من العامة بين الصوفية والباطنية ، بل ويختلط الأمر على بعض المثقفين في التفرقة بين أصحاب الولايات وبين الفرق الباطنية ، وهذا راجع في تصورنا إلى تأويل المعاني الصوفية إلى غير ما هدفت إليه وتفسير ألفاظ الصوفية وتعبيراتهم وإشاراتهم تفسيراً حرفياً قاصراً يبتعد عن حقيقة المعنى المقصود .

وكان من نتائج هذا الخلط والاختلاط زعمهم بأن التصوف يعني الانعزالية والسلبية ، ويدعو إلى رفع التكاليف الشرعية ، ولقد سببت هذه الآراء الفجة هذه إلى اعتبار الصوفية إحدى الفرق الباطنية ، والتصوف عنها براء ، إذ أنها جميعاً فرق ضالة انحرفت عن طريق الله ، وهدى القرآن ، وسنة رسول الله ﷺ ، وهذه الفرق الباطنية تفاعلت فيها عناصر شتى ، واستمدت تعاليمها من آراء المجوس والصابئة واليهود ، ولا يمكن أن ندخل هذه الفرق تحت مسمى واحد ، إذ هي فرق مختلفة غير محددة المعالم ، إلا أنه من جملة اعتقاداتها الفاسدة أن الله تعالى علة ومعلول ، قلم ولوح ، كما زعم بعضها أن هناك إلهين أعلى وأدنى ، وأن الدين ظاهراً وباطناً .

وظهرت دعوى الباطنية كتيار واضح في رسائل اخوان الصفا بخاصة ، وفي تعاليم فرقة الاسماعيلية بعامة حيث أن الأخيرة قد اتخذت من الدولة الفاطمية واجهة سياسية لمعتقداتها الضالة .

وقد تحدد الاختلاف بين طريق أهل السنة والسلف الصالح ، وبين أهل الشيعة فيما يتعلق بالخلفاء الثلاثة سيدنا أبو بكر الصديق ، والفاروق عمر ، وسيدنا عثمان ، بينما أنكر الشيعة خلافتهم بل واعتبروهم غاصبين قد انتهبوا الخلافة قصراً وخداعاً من الإمام

علي كرم الله وجهه وهو في رأيهم الوصي الذي عينه النص الإلهي في مواضع متعددة[1] .

ومن هـذا الانحراف عن طـريق الإسلام ، وعن جـادة الصـواب ، قـام التشيـع وأصبح ملجأ ممهداً لاحتواء عنـاصر الدعـاوي الباطنيـة التي استخدمت الـرمز والتـأويل الباطني في منهجها بقصد تأييد مزاعمها الفاسدة ، فانطلقوا من مقدمات فـاسدة جعلوهـا أسـاسـاً لـدعواهم ألا وهي أن لـظواهـر القـرآن الكـريم بـواطن تجـري مجـرى اللب من القشر ، وأن العامة لجهلهم وقلة فهمهم تظهر لهم ظواهر القرآن على هيئة صور واضحـة جلية ، ولذلك فهم يقولون : « أما العقـلاء والأذكياء من النـاس ، فيفهمون أن ظـواهر القرآن إنما هي تعبـيرات ورموز وإشـارات إلى حقائق معينـة » لذلـك يقول قـائلهم « من عرف الإمام فليصنع ما يشاء » .

كما يدعى أصحاب هذه المذاهب الباطنية الضالة أن الذي يقف عند ظاهـر النص ويقنع به ، إنما هو كـالذي كبـل نفسه بـالأغلال ، وحبس نفسـه داخل أسـوار التكاليف الشرعيـة ، والفرائض الـظاهرة ، أمـا الذي ارتفـع عن هذه الـظواهر ، وارتقى في سلـم المعاني الباطنة ، فإنه يستريح من تعب الأوامر والنواهي والعبادات الـظاهرة ، لأنـه ملك اللب فلا يطالب بالقشر ، وهذا معناه في آخر الأمـر ابطال الشرائـع ورفع التكـاليف عن عمد لهدم الألفاظ الصريحة في القرآن الكريم ومن ثم لهـدم السنة المحمـدية حتى لا يبقى للشريعة الإسلامية عصام .

ومن هذه الفرق الباطنية ـ التي سنعرض لها ـ في إيجاز ـ فرقة تسمى الكيسانيـة وقد قاد دعوتها المختار(*) إلا أنه لم يحاول قط أن يدخل في نـطاق العقائـد ، ولكن أتباعـه من بعده من الكيسانية تكلموا في جميع المسائل العقائدية .

ومن الفرق الباطنيـة الزيـدية(**) التي تميـزت بالمـذهب العقلي ، وجعلت الإمـام إنسانـاً كالناس يتعلم ويسمع ويناقش[2] ، وتدعو الزيدية إلى أن كل إمام علوي ما دام قد خرج مجـاهداً في وجـه الغاصبـين فهو الإمـام المطاع ، وهـو الـذي بيـده أسرار العلم الخفي ،

(1) د سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 153 ـ 177 .

(*) وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكان يلقب بكيسان الذي دعا إلى قتل كل من اشترك في قتل سيدنا الحسين ، وقد تكهن حين تم له الأمر في الكوفة ، وادعى نزول الوحي عليه ، وتضاربت الأقوال في صحة عقيدته

(**) الزيدية ـ هي حركة ثوريـة دمويـة تزعمهـا زيد بن عـلي « قتل 21 هـ/ 739 هـ في الكـوفة وصلب بعـد قتله خمسون يوماً ثم قتل ابنه يحيى 125 هـ/ 742 م .

(2) د كمال مصطفى الشيبي « الصلة بين التصوف والتشيع » ص 168 ـ 170 .

وينقلها من إمام إلى إمام .

وأهم ما تميزت به الزيدية أنها لم توافق إطلاقاً على ذم سيدنا أبي بكر وعمر ، ولا تتبرأ منهما ، ولذلك تخلى عنها الشيعة ، وسموا من تخلى عن الزيدية بالروافض ، أي الذين رفضوا زيداً ومذهبه الذي يمثل الشيعة المعتدلة(3) .

ومن هذه المذاهب القرمطية أو « القرامطة » الذين يعتنقون المذهب الشيوعي فيما يختص بالملكية ، ونجد أفكارهم وآراءهم واضحة في كتاب اخوان الصفا(4) .

ويرى القرامطة(*) أن العالم مجموعة من الظواهر المتعاقبة، وتشرق العقول على هذه الظواهر ، ويختفي الحجاب المادي تبعاً لإشراقها تدريجياً ، وهم يرون أن هذا الحجاب هو الحس المادي ، أما العقول فإنها تستمد إشراقها من الواحد .

وغاية الطريق عندهم أن يصل المريد إلى الله بعد أن يعرف مراتب الوجود الذي أبدعها الفيض الإلهي ، ثم ينسى هذه المراتب في النهاية(5) .

ولقد تأثر القرامطة في ذلك بالمانوية والصائبة واليونان القدماء ، كما أنهم أثروا في نظام الرهبنة عند المسيحيين وفي كثير من الجماعات والهيئات الخاصة في أوربا في القرون الوسطى .

والاسماعيلية كذلك إحدى الفرق الباطنية وتقوم دعواها على وجود سبعة من مظاهر تجلي العقل الكلي في سبعة من الروحانيين ، وقد ختم سيدنا محمد ﷺ دور الأنبياء ، فاختتمت دورة من دورات تجلي العقل الكلي في الروحانيين من البشر ، وبدأت الدورة الثانية مبتدئة بسيدنا محمد رسول الله .

وتنتسب الإسماعيلية إلى إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق ، وقد مات في حياة أبيه ، لكن الإسماعيلية توقفت في موته ، وذكرت أن أباه أخفاه عن الناس لكي يعود فيملأ الأرض عدلاً ، ويتولى الخلافة والإمامة في وقت ما لم يحدده الشيعة ، وذهب

---

(3) د سامي النشار « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام » ص 177 ـ 178 .

(4) د محمد علي أبو ريان « أصول الفلسفة الاشراقية ص 99

(*) القرامطة ـ رئيس فرقتهم عبد الله بن ميمون أسس الفرقة في النصف الثاني من القرن التاسع « الثالث الهجري» كان فارسي الأصل يشتغل بطب العيون استطاع أن يؤلف بين أهل الإيمان والزنادقة لتسقيط الدولة العباسية .

(5) د. محمد علي أبو ريان (أصول الفلسفة الاشراقية» ص 99 .

آخرون إلى أن إسماعيل نفسه شرب الخمر ، فأسقطت عنه الإمامة إلى ابنه ، وليس ثمة فرق بين الإسماعيلية وبين الإمامية في جملة العقائد العامة[6] .

والإمامية الإسماعيلية تزعم أن الإمامة انتهت أدوارها إلى زعيمهم وأن البنوّة في أولاده .

وقد تطورت نظريتهم عن الإمامة فيما يتعلق بالتسلسل التاريخي إلى القول أن الإمام هو أرقى الواصلين في عصره ، وهو أكثر الناس استعداداً لتلقي أشراق الأنوار العليا ، وهو مأمور من هذه القوة العلياومفوض منها بتولي الإمامة .

والإسماعيلية شيعية تؤمن بالعصمة اللامتناهية للإمام ، وتعتقد أن الإمامة لطف من الله وأنها واجبة لحفظ الشريعة ، كما تعتقد بغيبة الإمام وبرجعته ، وبوجود هذا النور الأول الأزلي الذي انتقل من نبي إلى نبي[7] .

والاختلاف الواضح بين الشيعة والإسماعيلية ينحصر في عدد الأئمة ، فالإمامية تتوقف عند الإمام الثاني عشر بينما الإسماعيلية تقف عند الإمام السابع .

ولقد تطورت الإسماعيلية بعد ذلك واستغلت ستر الإمام واختفاءه وأدعت متأثرة بفكرة الفيض الأفلوطيني ـ بأنه يتحكم في الكون سبعة من الناطقين هم : آدم ، نوح ، موسى ، عيسى ، محمد ، علي ، محمد بن إسماعيل ، وهم الذين تجلى عنهم العقل .

ولقد كانت هذه المذاهب ترمي في حقيقة الأمر إلى الوصول إلى السلطة السياسية ، ولم تجد حرجاً من التذرع بجميع الوسائل وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلاً مجازياً ، بل لقد كانوا يرددون الحكمة السرية ـ مثل اخوان الصفا[*] إلى أنبياء وردت أسماؤهم في التوراة أو في القرآن .

ولكن كان في الحقيقة وراءهم أشخاص من الفلاسفة الوثنيين الذين أصبحت الفلسفة عندهم أحلاماً سياسية ، بل أن بعض المفكرين كانوا ينظرون إلى الكواكب

---

(6) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 179 .

(7) د. علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 179 .

(*) اخوان الصفا ـ يسمون أنفسهم خلان الوفاء وأهل العدل وأبناء الحمد وقد زعموا أن الشيعة دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، وأرادوا تطهيرها بالفلسفة ، فمزجوا بين الدين والفلسفة مزجاً غير سائغ لكن لرسائلهم أهميتها في الفكر العالمي .

والنجوم على أنها ذوات ـ نفوس وعقول عليا تتجسد في آدميين لتدبير السياسة العملية الدنيوية(8) .

وأنه لجدير بالملاحظة أن هناك فرقاً بين الإسماعيلية والإمامية ينحصر في أن الإمامية تحافظ على توازن الظاهر والباطن ، بينما يرى العرفان الإسماعيلي في مقابل ذلك أن كل ظهور خارجي ، وكل مظهر له معنى مستور ، حتى يخلصوا في نهاية الأمر إلى أن الحقيقة الباطنية أسمى من الحقيقة الظاهرية التي لا بد من كسرها نهائياً ، وأنه بالحقيقة الباطنية يتقرر التقدم الروحي للمستجيب(9) .

ومن الفرق الباطنية « السبعية » التي انتسب اسمها إلى الكواكب السبعة ـ والتي ترى أن النور يشتق من هذه الكواكب ، ونجد فرقة المحمرة ، وهي إحدى فرقهم يصبغ أصحابها ملابسهم باللون الأحمر تمييزاً لهم عن غيرهم كما نجد فرقة « التعليمية » هي إحدى فرقهم أيضاً ، تنادي بإبطال الرأي ، وذلك لعجز العقول عن التصرف ولذا يجب على الناس التعلم عندهم من الإمام المعصوم الذي يرون أنه بمثابة الرسول(*) ﷺ .

ويرى أحد الباحثين أن « التعليمية » الباطنية هي إحدى فرق القرامطة ، ويدلل على ذلك بأنها تتبع تعاليمهم من جهة السلوك الذي هو منهج عندهم لا مناقشة فيه إذ أن له سلطة معصومة(11) .

وتتفق ولا شك هذه الفرق أيضاً مع طائفة الحشاشين التي تنتهي دعواهم إلى نفس الدعاوي الباطنية ، وبخاصة فيما يتعلق بحاجة المريدين إلى معلم صادق يقودهم لمعرفة الله ، يجب تعيينه وتشخيصه أولاً ، ثم التعلم منه ثانياً ، ويؤيد ذلك قول أحد زعمائهم « أنه بالاحتياج عرفنا الإمام ، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج ، كما أنه بالجواز عرفنا مقادير الجواز في الجائزات(12) .

وأما الخرمية ، وهي إحدى الفرق الباطنية ، فاسمها مشتق من « خرم » وهو الشيء المستلذ ، المستطاب الذي يرتاح إليه الإنسان عند مشاهدته ، ويهتز لرؤيته وقد

---

(8) ت ح . دي بور « تاريخ الفلسفة في الإسلام ص 12 ترجمة محمد أبو ريدة

(9) هنري كوربان ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 161 ترجمة نصير مروة

(*) الامام الغزالي ـ فضائح الباطنية ص 11

(11) د محمد علي أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص 102

(12) د سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 196

كان هذا لقباً كالمزدكية ـ وهم أهل الإباحة من المجوس[13] .

وينتهي مذهب « الخرمية » إلى رفع التكاليف والبعد عن التعبد ، وتحريض الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات ، والعشق بالمحرمات ، وهذا نفس ما يذهب إليه المزدكية الذين أباحوا النساء وإن كن من المحارم ، ويتفق هذا أيضاً مع إحدى فرقهم وهي البابكية ، والتي كان يجتمع المستجيبون لها في بعض الليالي ويطفئون الأنوار ويثب كل رجل إلى إمرأة ليظفر بها ، ويقال عن ذلك عندهم « الاصطياد » وهو في دعواهم أطيب المباحات .

وخلاصة ما تهدف إليه هذه الفرق ، الخروج عن الدين الإسلامي الحنيف ، وهدم دعوته عن طريق استجلاب الجهلة من الناس الذين يسهل اغراؤهم وتصديقهم لدعواهم الفاسدة .

لقد استخدمت تلك الفرق منهجاً وضعياً لتأييد دعاويها كالتفرس والتأنيس ، والتشكيك ، والتعليق ، والربط ، والتجليس ، والخلع ، والسلخ[14] .

والتفرس معناه عندهم أن يكون صاحب دعواهم فطناً يعرف من يمكن استدراجه إلى دعوته ، وأن يكون ذكياً مشتعل الحدس ، أي لديه القدرة على التعبير عن الظواهر وردها إلى البواطن .

أما التأنيس فهو القدرة على موافقة أصحاب الدعوة فيما يذهبون إليه في دعواهم من أفكار ، فيجتمع الأصحاب إلى بعضهم ، ويميلون إلى موافقة بعضهم بعضاً في معتقداتهم وآرائهم بدون جدل أو اعتراض .

أما التشكيك ، فهو تشكيك المستجيب لدعوتهم ـ في دينه ومعتقداته القديمة ، وعند ذلك يبدأون بسؤاله عن الحكمة من الدين ، وعن أوائل السور في القرآن الكريم ، وعندما يعجز المستجيب عن الإجابة ، يدعون أن معاني تلك البدايات القرآنية باطنة ، لا يعرفها أحد ، وأن الدين كله على هذه الوتيرة .

وأما التعليق فهو الوقوف عند بعض الأحكام والآيات القرآنية موقفاً سلبياً ، أي يتركونها دون تفسير أو تأويل ، ويهولون للمستجيب الأمر ويعظمونه ويبينون له أن الدين

---

(13) الامام أبو حامد العزالي ـ فضائح الباطنية ص 13 .

(14) د. محمد علي أبو ريان الفلسفة الاشراقية ص 102 ـ بيروت ـ 1969 .

لا يكشف لغير أهله[15] .

ويجدر بنا في هـذا المقام أن نـوضح الفـروق الجوهـرية بـين ما تـدعيه هـذه الفرق والمذاهب الباطنية ، وما تؤكده التجربة الذوقية عند الصوفية والتي تستهـدى بنور القـرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، في سلوكها وأخلاقها وآدابها .

اعتمد الصوفية إذن على الباطن ، إلا أنهم لم ينكروا الـظاهر بـل العكس من ذلك تماماً ، أكدت الطرق الصوفية أن الإسلام ظاهر وباطن ، شريعـة وحقيقة ، وأن الـظاهر والبـاطن ، والشريعـة والحقيقـة سـواء ، فليس هنـاك خـلاف بينهم ، فـلا حقيقـة بـلا شريعة ، ولا باطن بلا ظاهر ، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق .

أما مذاهب الباطنية ، فقد فرقت بين الظاهر والباطن والشريعة والحقيقة ، وادعت أن المعاني الظاهرية في القرآن ليست المستهدفة ، وإنما المعـاني الباطنيـة هي التي يخشى بها الأذكياء ، وذوو العلم من الخاصة .

فإذا قارنا بين الباطنية والصوفية فإننا نلحظ تمييزاً جوهرياً بينهـما ، ويتجلى دلـك في فرقة «المـلامتية»(*) التي لهـا طابعهـا الخاص المميـز، وحياتهـا الروحيـة الفريـدة، والتي لا ترى في اظهار الباطن ضرورة ، خـوفاً من الاغـترار والتعثر في الـطريق ، لذلـك فإن المـلامتي يحفظ أسرار الله ، ويكتم في نفسه ما بينه وبين ربه ، ولا يظهر كراماته خوفاً من أن تكون الكرامة ابتلاء من الله ، يمتحن بها غرور نفسه .

فإذا أخفى الصوفي الملامتي حقيقته أو باطنه عن الخلق ، فإنه يقصد بذلك التقرب إلى الله ، والزهد في الناس ، فمسلكه مسلك عملي من أوله إلى آخره ، بل هـو مجموعـة من الأداب يقصد بها مجاهدة النفس ورياضتها لتؤدي به إلى الإيثار وإنكار الذات ، ومحـو علائم الغرور الإنساني ، وإطفاء جذوة الرياء في القلب .

والمـلامتي لا يهتم كثيراً بـالوصـول إلى المقامـات والأحوال في الجـذب ، والمحـو ، والفناء ، والاتصال ، وما السكر ، وما شاكـل ذلك من الأحـوال التي تكلم فيها غـيرهم

---

(15) الامام أبو حامد الغزالي ـ فضائح الباطنية ـ ص 11 ـ 13 .

(*) الملامتية ـ زعيمها أبو صالح حمدون بن عمارة ـ الشهير بحمدون القصار المتوفي 271 هـ وكان من علماء الفقه، على مذهب الثوري وله شهرة خاصة بين مشايخ نيسابور باعتباره المؤسس الحقيقي لمذهب الملامتية باجماع أئمة الصوفية .

من الصوفية ورسموا الطريق لتحقيقها .

وإنما ينصب اهتمام الصوفي الملامتي إلى صدق العلاقة بينه وبين الله ، والاخلاص في النية مع الله ، دون الاهتمام بالدرجات أو حتى مجرد ذكرها .

لذلك فإن الملامتية لا يمكن أن تكون أحد المذاهب الباطنية التي سبق الإشارة عن معتقداتها ، ذلك لأن الباطنية ينكرون الحياة الظاهرية ويدعون أنها فقط خاصة بالعامة والأغبياء ، وهذا غير ما يراه الملامتية فهم يحرصون على تأدية الفرائض الشرعية ، بلا تكلف ولا يظهرون تضرراً ، ولا يضمرون لأحد شراً ، وإنما يسلبون ما في النفس من رياء ، ويجدون غايتهم في الاخلاص ، ويذكرون عيوبهم ، ويفضلون ذكرها عن الإفاضة في ذكر محاسن النفس وكمالاتها .

فالملامة إذن محاربة واعية للنفس من الانحراف عن الشريعة ، وذلك بالقضاء على الرياء ، والنفاق ، من الداخل ، وذلك بتخريب الظاهر ، فيظهر الملامتي حاله للخلق وقد كشف قبائح الأعمال مخفياً محاسنها ، وهو موقف يستر به الملامتي حاله ، ويقف موقف العوام متطلعاً إلى مزيد من التقرب إلى الله ، ويقول عنهم بن عربي « هم قوم قطعوا العلائق بالخلق ، حتى لا يشغلوا بغير الله .

أما الباطنية على وجه العموم فقد أنكروا الظاهر واعتبروه وسيلة الأغبياء ، أما الباطن فهو دعامة الأذكياء ، كما سبق القول وهذا طريق يختلف تمام الاختلاف عن الملامة التي ترتبط كلية بالشريعة .

ويبدو لنا أن تشابه الألفاظ لا يدل عل تشابه المعاني ، عند كل من الصوفية والمذاهب الباطنية ، فالواضح أن الطريق مختلف ، وليس هناك من اتصال بشكل أو بآخر إلا من حيث النشأة الأولى عند السلف .

ولقد غالت الباطنية في دعواها ، ونادت برفع التكاليف الشرعية ، التي هي في رأيهم القشر من اللب ، واتخذوا طريق المأنوية ، والصائبة ، والعرفانية ، واليونان القدماء شريعتهم ، وانحرفوا عن الشريعة الإسلامية بل حاولوا تدمير الدين الإسلامي بما اختلقوه من مراتب الوجود والفيض ، واستخدموا لذلك تعبيرات وألفاظاً ليس لها أصل في القرآن والسنة المباركة .

أما الصوفية فقد حافظوا على الشريعة الإسلامية ، وراقبوا الوسيلة إلى الله ، وهي النفس ، وكشفوا عيوبها قاصدين تربيتها ، فحالفوا حظوظ النفس وهواها ، واسترسلوا

مع الله ، فألهموا بالحق إلهاماً ، وأصبحوا من عباد الله الصالحين .

فهدفهم هو الإخلاص بكل معاني الإخلاص ، والتواضع ، والإيثار ، حتى لا يشعر بهم أحد ، فظن بعض الحاقدين أنهم قد خرجوا عن الشريعة ، والواقع أن آداب الصوفية لها أثرها الواضح بلا شك في تطور الحياة الروحية في بعض نواحي الحياة في العالم الإسلامي ، وهو أثر قد لعب دوراً هاماً في الأقطار الإسلامية الشرقية على وجه الخصوص[16] في انتشار الدعوة الإسلامية وازدهارها .

ولكن على العكس من ذلك لم يكن للدعاوي الباطنية ، وخاصة المذاهب الباطنية الغنوسية وجود ظاهر في الإسلام ، بل كانت هذه الفرق الضالة ذات طبيعة غامضة ، وقدرة على التخفي ، فإذا ما هدأت الفتوح قام الغنوس بل قامت غنوسات متعددة لتقويض عقائد الإسلام وكانت تسمى نفسها بأسماء مختلفة مثل غلاة الشيعة « أو البابكية ، أو البهائية ، وأحياناً الباطنية أو القرامطة »[17] .

والعكس تماماً بالنسبة للملامتية ، الذين هم من أكابر الصوفية ، لما اتصفوا به محافظة على الفرائض والتكاليف ، والعمل بأخلاق القرآن وآداب الدين ولما كانوا عليه من زهد ، وتقشف ، وعبادة ، ومساعدة للأرامل واليتامى .

---

(16) د. أبو العلا عفيفي « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » ص 1 ـ 7 .
(17) د. على سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 45 .

الفصل الثاني

رد الهجوم على الصوفية

إن كل نفس إنسانية تميل بطبيعتها إلى الإثرة ولا تقبل أن تكون غيرها أفضل منها في الكمالات الأخلاقية ، لذلك وجب مخالفتها وتربيتها حتى تتخلص من هذه الآفات ، وتنصاع لحكم الحق ، وتقبل على الفضيلة ، وتعمل على طريق الإخلاص ، وذلك بكثرة الطاعات ، والصدق في القول والعمل ، ونكران الذات الذي هو عين الإيثار .

والقضية التي نحن بصددها الآن يتركز موضوعها بين الإثرة والإيثار ، ذلك لأن الطاعنين في التصوف والصوفية ، يمسكون بمعاول الهدم في اتجاهين معروفين قديمين

الاتجاه الأول : ـ

الرفض بالكلية للوساطة الروحية بين إنسان ورب الناس ، ويقولون كيف نستعين بشخص مهما كان صلاحه في التقرب إلى الله تعالى . . . والرد على هؤلاء إنما ينحصر في النقاط الآتية :

1 ـ إن الطفل الصغير لا يتمكن من معرفة الصواب والخطأ إلا إذا وجه توجيهاً سليماً من الأبوين ، فتستقيم عنده الحقائق وبذلك يستطيع أن يفرق بين ما هو خير وبين ما هو شر ، وتستمر التربية بمعاونة المدرسة أو المربي حتى يبلغ أشده ، أما إذا ترك بدون رعاية ، وأهمل تلقينه وتعليمه فإنه سيكبر على معايير مذبذبة ، وأفكار منحرفة ، أو يقع في كبوة الضياع ، فيلفظه المجتمع ويصبح منبوذاً ، مثله كمثل الطفل الذي يقال له هذا هو البحر . . . وعليك أن تسبح وحدك . . . فإنه في هذه الحالة يكون معرضاً للغرق ، أو أنه يتخبط مع الأمواج ، ولا يعرف الطريق الصحيح الذي يعرف به فن السباحة ليقوده إلى شاطىء الأمان .

وكـذلك الحـال بالنسبـة لمعرفـة الله ، فالمـريد لله يحتـاج في أول الـطريق ، إلى من يرشده ويعلمـه ما هـو حق ، وما هـو باطـل ، وما هـو خاطـر شيطاني ، ومـا هو خـاطر ملائكي ، لأن الحق من الله والباطل من الشيطان ، فيجوز أن يتعلم ما هو باطل ، ذلك لأنه لم يخبر الأحداث ، ولم يميز الخير والشر تمييزاً واضحـاً لا ليس فيه ، وهـذا الأمر عنـد أكثر الناس .

فـالشيـخ المربي وهو الذي مر بالتجربة ، وخالف النفس والشيطان جميعـاً ، وانتصر على الهوى والحظوظ والشهوات وذلك بعد صراع مرير ، هذا المربي الصادق يستطيـع أن يلقن مـريده سبـل الرشـاد ويبصره بالـطريق المستقيم ، وينجيه من العـثرات والعوائق ، حتى يستقيم حاله ، ويتعرف على الطريق الحق للاتجـاه إلى الله ، ولا شك أنـه بلا أستـاذ مربي سيقع في المتناقضات ، وينقاد إلى المهلكات دون أن يدري ، لأنه لم يتعرف بعد على طـريق الله ، ولم يميز بعـد بين طـريق الله وطريق الشيـطان ، كـما أن الـركـون إلى هـوى الشيطان والنفس سهل يسـير ، أما العمـل في مرضـاة الله فصعب عسير ، ومن هنـا يلزم التربية ، بل ضرورة وجود الشيخ المربي . .

والمريد لا يعبد الشيخ ولا يجعله إلهاً ، كما يفهم بعض السطحيين ومدعي العلم ، إنما هو وسيلة صادقة للتقـرب إلى الله ، وسبيل خـالص لمخالفـة حظوظ النفس ، وذلـك بتلقينهـا الحق والصدق وتسليكهـا من براثن الشيـطان ، وهي عملية جـد شاقـة لا يقدر عليها المريد وحده ، ذلك لأنه كما سبق الإشارة يميل إلى الأسهل والأيسر ، وهـو ما يمثـل دعاوي النفس وحظوظهـا ، وجانب الأنـانية والأثـرة فيها ، وهـو لا شك طـريق الشهوة والغضب والشيطان جميعاً .

إذن وظيفة الشيخ ا لمربي هامة وضرورية ، والصوفية يهتمون بالأخـلاق وبالسلوك والتربية العملية ، فكم من صاحب علم لا يعمـل بعلمه ، وكم من صـاحب عقل يقـع وينـزلق إلى أسفل سـافلين ، لذلـك يقول الأئمـة : التصـوف أخـلاق والسلوك العمـلي أساسي وضروري إذ بدونه لا طاعة ولا إخلاص .

2 ـ اما دعوى الطاعنين في التصوف والصوفية والتي تقول : إن كثيراً من الصوفية يقـومون بـأعمال لا تـطابق الشريعة ويسلكـون مسلك أهـل الشيـطان . . . فهي دعـوى عقيمـة لا تستند إلى حقيقـة ، فالـذين يـدخلون إلى الـطريق الصـوفي إنمـا لهم أوصـاف معينة ، وأخلاق معروفة ، وسمات واضحة ، وآداب مقررة ، وتعاليم محـددة ، وكل من

ادعى أنـه متصوف وليس متصفاً بهذه الأخـلاق ، فهو خـارج عن الطريق ليس لـه فيـه شيء .

فأصحاب الخرق ، والألوان والمتظاهرون بالتقوى والمتدثرون بـالمسوح ، وغـيرهم من المدعيين . . . لا ينتمون إلى طريق الله ولا ينتسبون إليه .

ونحن نـرى أن سبب المغالاة في اتهـام بعض السطحيـين للصوفيـة ، راجع إلى أن الصـوفية لا يـدفعون عنهم هـذه التهم ، ولا يردون عـلى هؤلاء لأن ذلك معنـاه عنـدهم إقبالهم على الدنيا ومـظاهرهـا . . . وهذه آفـة تصيب الصوفي إذ تشغله الـدنيا عن الله ، وتقربه من الخليقة ، وتبعده عن الحقيقة ، لذلك يترك الصوفية الطاعن والحاقـد والمدعي والكاذب والمنافق يهاجم أهل الحقيقة ، ويفتري على الصالحين ، ويسب عباد الرحمن ولا يؤذونه ، وإنما يقابلون السيئة بالحسنة ، والخلق الذميم ، بالخلق الكـريم ، فإذا وقـع في مصيبـة خففوا عنـه وأحسنوا إليـه ، وإذا تعسر أعانـوه وإذا فضح تسـتروا عليـه ، وهـذا السلوك الكريم نابع من آدابهم الحميدة ، وأخلاقهم الرشيـدة . فهم يعاملون الله ، ولا يهتمون إلا برضاه ، ولا يحتسبون عنده إلا ما اقتضته مشيئته تعالى .

وليس هذا تواكلاً ولا ضعفاً ولا وهنـاً ، وإنما يفعلونـه عن قصد ، ويتجهـون إليه عن نية صادقة فهو عفو مع المقدرة ، وتسامح مع القـدرة على القصـاص ، وإحسان مـع إستطاعة البطش والعدوان .

فالتصوف أخلاق ، بل كله أخلاق ، وليس ما يفعله الصوفية بدعة وإنما هو إقتداء بأخلاق الله تعـالى ، وتمشي مع خلق الـرسول الكـريم ﷺ الذي كـا نت أخلاقـه القرآن الكريم .

ويبقى للطاعنيين أن يتخيروا بين الأخلاق والآداب الجليلة وبين ما يدعون إليه من أخلاق ظاهرة تستظهر منطق الكلمـة البراقـة وتخفي وراءها الكـذب والاغترار والتعجب والرياء . . .

يمتدح الطاعنون أنفسهم ، وينعقون في الليل الأسود ، كخفـافيش لا تستطيـع أن تـرى النور ، فيختفـون وراء أبواب صـدئة لا تسمـع منهم إلا أصوات خـافتة مبتـورة ، صادرة عن قلوب مرائية ، ليس فيها رائحة لصلاح ولا تقوى . . .

فليرجـع المنافقـون إلى أنفسهم ، ويتقهوا الله فيـما يقـولـون ويفعلون ، ويخـالفـون حظوظهم وأهواءهم ، فلا يطلبون الدنيا لعرض زائل ، ولا ينشدون الشهرة على أكتـاف

أصحاب الحق والصدق . . . لأن ذلك من باب الغيبة والنميمة ، وأكل لحم الموتى ، وهو من الكبائر التي لا تغتفر . . .

فالصوفية لا يقولون ببدعة ولا رفعت أصواتهم بضلالة ، وإنما هم قوم يسترسلون مع الله ، همهم التقرب إليه بالعبادات والمجاهدات ، أملهم الوصول إلى رضوانه ، والتحلي بأخلاقه تعالى ، والتخلي عن أخلاق الشيطان ، دأبهم العمل بإخلاص ، والعمل في طاعة ، لا يأملون إلا في الله ولا يتوسلون بغير الله . والشكر له تعالى دستورهم ، والرضا في جميع الأحوال منهجهم ، والصبر في الإبتلاء خلقهم ، والزهد عن الامتلاك معدنهم ، والفقر مع الله مبدأهم ، والتوكل على الله تدبيرهم ، والمحبة في الله طبعهم ، والبقاء في الله أملهم ومقصدهم .

فهل أخلاق كهذه الأخلاق وصفات كهذه الصفات ، ممكن أن تكون محل طعن ، ومجال تشكك ، وطريق مساومة في الدين . . . نحن نرى أن أي هجوم على الصوفية . . . إنما هو هجوم على الدين الإسلامي الحنيف . . . لأن الصوفية إنما يحملون لواء القرآن منهجاً وسلوكاً وعقيدة . . .

الاتجاه الثاني : -

يحاول الطاعنون مع اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم ، الصاق دعوى الحلول والإتحاد والوحدة بالصوفية ، وهذا الإتجاه يعززه ما نقل عن المستشرقيين الذين سبقوا الأمة العربية في العصر الحديث في عرض كثير من تراثنا العربي ، وترجموا هذا التراث إلى لغاتهم . . وانكبوا عليه دارسين ومحللين وناقدين . . .

وإننا لا ننكر ما قاموا به من جهد مشكور ، كان من الأولى أن يقوم به الورثة الشرعيون من علماء الأمة العربية والإسلامية ، ولكننا لا يمكن أن نتغافل عن حساب الأضرار التي نجمت عن دراساتهم ، وخاصة فيما يتعلق بالطعن في الدين الإسلامي الحنيف بعامة ، وفي شخصية الرسول محمد ﷺ بخاصة - فلقد تم على يد هؤلاء المستشرقين محاولة بل محاولات لهدم صرح الدين الشامخ ، وذلك بطريق عرض آراء فجة أو التركيز على المعاني المتشابهة في القرآن ، أو نقل أقوال الفرق الضالة والخارجة عن الإسلام ، أو تأويل الأفكار والعقائد بما يتمشى مع أهوائهم ، أو الفهم القاصر والترجمات المشوهة عن كلام الأئمة والفقهاء والعلماء في الإسلام .

وأخطر ما ترتب على إجتهادات المستشرقين ، من تشويه لحقيقة الدين

الإسلامي . . تخريج دفعات من العلماء المسلمين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين ونقلوا عنهم أقوالهم المبتورة ، وآرائهم الفجة ، دون فحص أو تمحيص ، كأنها معارف لا يرقى إليها الشك ، وعلوم هي عين اليقين ، والعجيب أنهم تلقنوا علومهم هذه بلغة أساتذتهم المستشرقين مع ما فيها من احتمالات التقصير عن الفهم ، وتأويل للمعنى ، نتيجة للترجمة غير الدقيقة ، أو لحرفيتها .

وهذا يمكن أن ينطبق مثلاً على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، والذي حير كثير من المستشرقين في فهم شخصية صاحبه ، فادعى بعضهم أن لا عقيدة له ، فهو متكلم وصوفي وباطني وظاهري وفقيه أشعري وأحياناً معتزلي . . وخلطوا بين أفكاره قبل الانخراط في سلك الطريق الصوفي . . وبين علومه الكسبية التي هي عن طريق النظر وبين علومه عن طريق الذوق والكشف . . وهذا الطريق الأخير يقود إلى نتائج مختلفة تماماً عن استمدادات النقل والنظر . فشتان بين علوم الكسب ، وعلوم الوهب ، وبين العالم والعارف . فالغزالي مدرسة يتخرج منها الطالب بعد أن يتدرج في فصولها . . ويصل إلى النهاية بعد تحصيل علومها . . فلا تناقض بين الآراء ، ولا تخاصم بين المعارف ، ولكن لكل طالب حسب استعداده وقدراته تحصيل قدر منها ، فإذا ما نقل عن المستشرقين القول بأن حجة الإسلام الإمام الغزالي بلا عقيدة محددة ، وروجت هذه الآراء بطريق العلماء العرب ، فإن هذا الطعن لا شك يصيب مقتلاً . . وهنا تكمن خطورة هذه الآراء ، وتأثيرها الضار على تراثنا العربي العظيم .

وإننا نحمد الله تعالى على أنه انبرى من العلماء الإسلاميين من أفحم خصوم الإسلام ، وأسقط دعاويهم ، بأدلة لا تقبل المكابرة أو المنازعة ، وبحجج دامغة بترت هذه الآراء الفجة ، وأرجعت معظمها إلى الجهل المطبق بالشريعة الإسلامية أو إلى التحيز ضد الإسلام نتيجة التعصب الأعمى .

والدعوى التي نحن بصددها الآن وهي الصاق تهمة المنادة بالحلول والاتحاد والوحدة للأئمة الصوفية . . بخاصة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الذي اتهم بأنه صاحب نظرية في وحدة الوجود ، ونحن لا نريد في هذا المقام أن نعرض لما قصده الشيخ الأكبر ، لأن مكان ذلك كتاب آخر . . وإنما نود في عجالة أن نبين أن هناك فرق بين منطق العقل ، وبين المعرفة الذوقية ، أو بمعنى آخر إذا استخدمنا العلوم الكسبية لفهم العلوم الكشفية والوهبية والإلهامية . . . لخرجت المعاني عن المقصود ، وابتعدت عن الحقيقة إلى الظن الذي فيه إثم كبير .

لم يقل ابن عربي بوحدة الوجود ، ولم يدع أنه والله شيء واحد . بل قال أنا أعرف مقامي كعبد ، ومقامه تعالى كرب ، وإني أشهد قولاً وفعلاً أن لا إله إلا الله ، واحد لا شريك له ، صمد لا نظير له كامل لا يحتاج إلى أحد والكل يحتاج إليه . فإذا قال الصوفي :

وفي كل شيء له آية ∴ تدل على أنه الواحد

فلا يقصد من ذلك إلا شهود قدرة الله تعالى وآثاره وعظمته في العالم بأسره وهذا معناه أن هذا العالم الظاهري لا وجود له على الحقيقة ، إذ أن الوجود الحق لله تعالى .

هذه معارف لا يتذوقها إلا عبد كابد في مجاهداته ، وحار في ميدان حبه الإلهي ، فطاش وسكر من كأس محبوبة ، فلما طلب المزيد أوقفه تعالى عند مقام لا يتعداه ، وأعلمه أنه العبد الفقير لمولاه ، وأنه مهما وصله واتصل بالنوافل والعبادات ، فلن يصل إلالكمال العبودية وهي مشاهدة آثاره تعالى في خليفته ، وأن المريد الصادق ليس بمقدوره الانسلاخ عن نطاق بشريته .

وفي هذا المقام الرفيع يقف ابن عربي خائفاً فزعاً ، ومن هيبته تعالى نادماً جزعاً . . حتى يذوب ويطمس في الحق فانياً . . من جلال المشاهدة ، وجمال المحادثة ، ونورانية القربة العظمى .

أين وحدة الوجود هنا . . إنها العبودية الحقة ، التي لا يرى فيها حظاً لنفسه ولا هوى . . وإنما يرى الكمال ممثلاً في الله تعالى فيقول الصوفي : أشهد أن لا إله إلا الله . . . وأشهد . . . هو . . . غير أرى . . . وغير أسمع . . . هي مشاهدة ربانية ، ومعاينة كشفية ، عن طريق الصدق والاخلاص والطاعة ، فألهم بالحق إلهاماً ، وكوشف بالحقائق والأسرار ، ومن الله عليه بالتجليات ، والفتوحات ، والفيوضات ، والمنن ، والعطايا ، والهبات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وخاتمة القول أن المستشرقين ومن يتبعهم في آرائهم قد جانبوا الحقيقة عندما خلطوا بين وحدة الوجود ، ووحدة الشهود ، فوقعوا في الخطأ عندما أعلنوا أن الصوفية من المنادين بالحلول والاتحاد والوحدة .

وفي تصورنا أن ذلك راجع إلى أن النظر والبحث العقلي يصلح فحسب بالبحث فيما يتعلق بالعلوم الجزئية والتجريبية ، أما ما يتعلق بالعلوم الكلية والمعرفة الصوفية وهي

قمة هذه العلوم فإن أصحاب الفكر مهما أوتوا من العلم النظري لن يتكشفوا حقائقها ولن يتعرفوا على بواطنها ولن يقدروا على أن يدلوا برأي فيها .

وكل ما يقولونه عن هذه العلوم الذوقية ، إنما هو مكابرة لثقتهم البالغة في استنباطات العقل واعتزار بعلوم النقل والكسب والنظر ، فلو تمهلوا لعلموا أن علومهم قاصرة عن إدراك ماهيات العلوم الوهبية والكشفية والإلهامية لأنها علوم تقذف في قلب الصوفي فيلهم بالحقائق إلهاماً ما دام القلب مستعداً والنفس مسقطة للتدبير .

وهذا لا يمكن أن يحظى به إلا من كابد وعانى فكوشف بالأسرار كثمرة لجهاده ومنة إلهية حظى بها كنتيجة لمجاهدته .

وهذا هو سبب تقصير العلماء في التعرف على علوم الصوفية ، بل وسبب أحكامهم المفتراة على أصحاب الحق من الأولياء الصالحين .

الفصل الثالث

ثمرات التصوف

1 ـ العمل والصوفية

تأكد من الدراسة الحقلية أن التصوف ليس كما يشاع ضد غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة بل هو مشاركة إيجابية في مختلف الأنشطة والحرف والوظائف العامة مع المحافظة في نفس الوقت على آداب الشريعة الإسلامية وكمالاتها .

وينظر الصوفية إلى أهل التبطل على أنهم قوم جهالة حتى ولو كانوا يدعون التزهد والتقشف . فالمشاهد أن الصوفية يعتقدون أن التصوف الذي لا يتكسب بالعمل ليس جديراً بالانتساب إلى الطريق الصوفي .

لذلك فهم يسارعون في معاونة المتعطلين منهم وإيجاد أعمال مناسبة لهم ، فالبطالة ليست من أخلاق الصوفية ولو كان صاحبها زاهداً عابداً متنكساً ، لذلك فإنهم ينظرون إلى العمل على أنه عبادة على الفرد أن يؤديها كما تؤدي الفرائض والتكاليف الشرعية .

فالعامل العابد خير عندهم من العابد الزاهد لأنه يقوم بدور إيجابي في تنمية المجتمع ، لا أن يصبح عالة عليه .

ولقد تسنى للباحث معايشة بعض الطرق الصوفية وملاحظة التطبيق العملي لمراسم الطريق الصوفي . فوجد أن جميع مريدي الطريق من أصحاب الأعمال والوظائف العامة كما أن منهم التجار وأصحاب الحرف . وأنه قل أن وجد منهم عاطلاً .

إلا أنه من ناحية أخرى نجد الصوفية يرون أن العمل وسيلة ، وليست غاية في

حد ذاتها لأن أخشى ما يخشاه الصوفية هو أن يصبح العمل غاية ، فتقوى علاقة الإنسان بالدنيا وتغلب عليه شهوة الحياة ، وروح الامتلاك للمال والرغبة في المركز والحياة .

فالعمل لا يكره عندهم لذاته لأنه شرف ، ولأنهم لا يترفعون عن الاشتغال بأقل الأعمال . بل إننا تجد بعض مريدي الطرق ، من يقوم بتنظيف المراحيض في الزوايا والمساجد ، وخدمة المرضى والمساكين ، كما أن التاريخ يحكي لنا روايات كثيرة عن أن بعض الأقطاب من الصوفية كانوا يمتهنون حرفاً بسيطة مثل (فوال وخباز وحداد وغير ذلك من الأعمال والحرف) .

وفي نفس الوقت يقوم بعض الصوفية بتدريس علوم الفقه والشريعة ولا يتقاضون عن ذلك أجراً . فالصوفية ينظرون إلى العمل باعتباره طاقة هادفة تؤدي نتيجة ، أو حاجة ماسة أو ضرورية للفرد ، بالإضافة إلى أن العمل عبادة قررها التشريع الإسلامي .

كما أن العمل يتطلب في نفس الوقت قدرات إنسانية واردة ووعي وعاطفة وجهد لتحقيق هذا الغرض السامي ، لذلك فهو يتطلب صحة العقل أكثر مما يتطلب صحة الجسم ، لأنه من الممكن أن نعطي عملاً مناسباً لبعض ذوي العاهات كالصم والبكم والمكفوفين ، ولكننا لا نستطيع أن نعطي عملاً إلى مرضى العقول والمجانين إذ أن العمل بطبيعته يحتاج إلى جهد نفسي وعقلي وعضلي .

ومن ناحية أخرى فإن الصوفية ينظرون إلى احتراف المهن والحرف كالطب والهندسة والصيدلة والكيمياء وغيرها ، نظرة نابعة من معتقداتهم الدينية ، ذلك أنهم يرون أن التصوف هو علم التوحيد الذي يعالج الكل الأخروي والذي موضوعه المعرفة الكاملة بالله ومن ثم فإنه لا يندرج تحته علم من العلوم وإنما كل العلوم تندرج تحته ، لذلك فهم يرون أنه عن طريق هذا العلم وحده يثاب الإنسان ويجازى وينعم ويشفى في الآخرة .

ففي الحياة الآخرة لا توجد مهنة الطبيب لأنه ليس هناك مرضى ولا مهنة المهندس ، لأن البناء على أكمل وجه ، وأجمل صورة ، ولا مهنة الكيميائي لأن ليس هناك حاجة إلى معرفة جديدة لخواص المواد وتراكيبها واستخداماتها ـ وبذلك لا يبقى إلا علم التوحيد .

ومن هذه الزاوية الدينية ينظر الصوفية إلى الأعمال والمهن المختلفة ، ويعتبرونها

وسائل دنيوية فقط للتكسب ، لا غاية يقصدونها لذاتها ، وليس معنى ذلك أنه ليس بين المتصوفة أطباء أو صناع أو عمال وإنما يتركز جل اهتمامهم - بالإضافة إلى المهن الدنيوية التي يمتهنونها - إلى النظر إلى علم التوحيد باعتباره العلم الحقيقي الموصل إلى المعرفة الكاملة والذي هو أشرف العلوم وأسماها شأناً ، لذلك فامتهان مهنة التدريس لهذا العلم أو دراسته تعتبر عندهم أفضل الأعمال وأجلها في الدنيا الآخرة .

2 ـ الصوفية والحكام

ينقل لنا التاريخ عبر القرون المتعاقبة مواقف الصوفية واتجاهاتهم ونظرتهم إلى الحكام ونصائحهم ومشاركتهم لهم في الرأي والمشورة والعمل على إزالة ما يقابلهم من عقبات ونكسات ومشاكل ، فالصوفية يعتبرون أنفسهم في مسؤولية دائمة اتجاه ما يقابل الأمة الإسلامية من ظلم وعدوان وتعسف ، ولهم مواقف رائعة تبين إلى أي حد ترتبط الحكومة الباطنية مع الحكومة الظاهرية في تطبيق تعاليم الإسلام ، ورفع لوائه .

فالمعروف أن القواعد والآداب السلوكية في الطريق الصوفي ، تحتم على المريد أن يتبع أولي الأمر في الحكومة الظاهرة ، لأن الطاعة لهم واجبة ، والإخلاص مطلوب ، ما لم يخالف ذلك نص صريح ، أو سنة مباركة أو حديث شريف .

ومن ناحية أخرى فإن مشايخ الطرق الصوفية يتخذون من أقوال وأعمال الرسول ﷺ هادياً لهم ونبراساً ، لذلك فهم يثلمون مريديهم ألا يكونوا أمعات وأن لا يستذلوا وأن يكونوا من أصحاب الرأي والحق .

فالرجال عندهم هم الذين يستحقون الانتماء إلى دين الإسلام ، ولذلك حرم على الأتباع أن يسايروا ركب أي سلطان ظالم ، أو أن يجالسوا والياً لا يعمل بالكتاب والسنة ، ولقد أوضح ذلك سيدي أحمد الرفاعي +560 هـ في عبارات رائعة عندما قال :

« لا تتواضع للأغنياء ولأبناء الدنيا ، وتنهض لهم ، ولا تقرب أبوابهم ، وإن دعوك فإن أبناء الدنيا إن أكرمتهم أهانوك ، وإن أحببتهم أبغضوك ، وفي كل الأحوال يعيبوك . . فأعز نفسك عن صحبتهم وخدمتهم ، فإذا خدمت الغني زدته تكبراً وتجبراً ، ونقصت من الله تعالى ، ولا تخالط أهل الكبر ، ولا تكرم السلطان الجائر ، ودعاة الباطل وأهله » .

وينصح الرفاعي الخليفة المستنجد فيقول له[1] :

« إن أنت نفذت أحكام الله تعالى في نفسك ، نفذت أحكام كتبه في ملكك ، وإن عظمت أمر الله عظم الناس أعمالك ، وولاة الأمور من قبلك ، ثم زن يا أمير المؤمنين كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدنيا من طعام تأكله ، وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، واجعل الحرص على الدنيا بقدر ذلك ، فإن رداءك ما سترك ، وطعامك ما أشبعك ، وما لك منه شيئاً ، وعليك بالعقل والدين ، وإياك وأرباب القسوة والغدر والضلالة فهم أعداءك ، وإذا أحببت فحكم الانصاف في عملك ، وإذا كرهت فاذكر الله . . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة ، وساو الناس في باب عفوك » .

ومن هذا يتضح أن مكارم الأخلاق عند أئمة الصوفية هي معيار الحكم على الشخص في المجتمع ، وليس لمركزه الاجتماعي أو المادي أي تأثير عند أهل الحق الصادقين ، ما دام لا يسير العبد في الله .

ومن ناحية أخرى فإن الصوفية يركزون في القول والعمل على السلوك الأخلاقي في المجتمع المؤسس على الأخلاق الإسلامية ، فنجد سيدي عبد الرحيم القنائي[2] يعتبر الأخلاق هي مفتاح كل الأعمال الطيبة والهداية والطريق الموصل إلى معرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فالأخلاق عنده تنبع من مزيج من العلم الظاهر والباطن ، والعمل المنتج المستنير تطويه الروح فترسله إلى النفس الأمارة لتغسلها من أدرانها .

أما حجة الإسلام الغزالي فإنه يكتب إلى « تاشفين » ملك المغرب رسالة طويلة ينصحه فيها بقوله « أما أن تحمل سيفك في سبيل الله ، ونجدة اخوانك في الأندلس ، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك[3] .

ويتابع التاريخ سرد مواقف الصوفية في نصح وارشاد الحكام في العصور المختلفة في البلدان الإسلامية فنجد الإمام محيي الدين بن عربي يقول للملك الكامل حين تهاون في قتال الصليبيين : « أنك دنيء الهمة ، والإسلام لن يعترف بأمثالك فانهض بالقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم » .

وحين تكاسل المماليك عن قتال الصليبيين يثور الصوفي الكبير العز بن عبد السلام

(1) أقطاب التصوف الثلاثة ـ تقديم د. عبد الحليم محمود ص 34، 96 .
(2) الطبقات الكبرى ـ ترجمة حياة سيدي عبد الرحمن القنائي .
(3) الشيخ محمد محمود السطوحي التصوف وأقطابه ص 20

ويأمر بالقبض على زعمائهم ، ويعلن أنه قد اعتزم بيعهم في سوق الرقيق لأنهم خانوا أمانة المسلمين .

فلم يقتصر عمل الصوفية على التعليم الديني بل تعدى ذلك إلى مواقع العمل وخدمة البيئة الإسلامية ومقاومة الأعداء والخونة والظالمين بالإضافة إلى الجهاد في اعلاء كلمة الدين .

نرى أحد الصوفية الكبار يضحك في أحد المواقع الحربية فيسأل عن سبب ضحكه فيقول : « ألا أضحك وأنا في أحب المواقف إلى الله تعالى ، فإن أسعد أوقاتي وأرجاها عندي ، أن يراني ربي ضارباً بسيفي في سبيله ، وأنا بعد أحرص على الموت مني على الحياة » .

ويحكي لنا التاريخ الكثير عن مواقف البدوي رضي الله عنه في حرب الصليبيين ويطلق على السيد البدوي « الله . . . الله . . . يا بدوي جاب الأسرى » وذلك للدور العظيم الذي قام به من حشد الحشود وتربية الرجال المقاتلين الذين فكوا أسارى المسلمين وحققوا النصر لبلاد الإسلام[4] .

ومن ذلك يتضح أن اشتراك الطرق الصوفية ومشايخها في الحياة المدنية أمر يؤيده التاريخ ، وما زالت هذه المشاركة قائمة حتى الآن فنجد أصحاب الطرق ومريديهم يدلون بآرائهم في الحكم ، ويوضحون الطريق الذي يجب أن تسير عليه الأمة في معالجة شؤونها ، وذلك لنصرة الإسلام والمسلمين . كما أنهم يجهرون بالرأي في محاربة ومعارضة ما يخل بآداب وتعاليم الإسلام الحنيف .

وإذا كان الصوفية لا يدخلون في شؤون الحكم بشكل ظاهر فإنهم في نفس الوقت لا يوافقون الظلمة والمتعسفين من الحكام ، بل يحاربونهم ، سراً وعلانية ، ومواقفهم معروفة عبر التاريخ

3 ـ تعاليم الطريق وآدابه

تبين من البحث أن التعاليم الواجب اتباعها لدخول المريد في الطريق أن يزهد في أشياء أربعة : المال ، والشهرة ، والتقليد ، والمعصية ، وعلى المريد أن يتخذ لنفسه شيخاً يرشده ويبصره بواجبات الطريق وآدابه .

(4) التصوف وأقطابه ص 20 وما بعدها

كما يجب على الشيخ أن يعطي من جانبه لمريده أربعة أسلحة يدافع بها عن نفسه ، ويدفع بها الشيطان عنه ، وهي الخلوة ، والصمت ، والصوم ، والأرق[5] .

ومن هنا يبدأ النزاع الداخلي الطويل بين النفس من جهة ، والهوى والشهوة من جهة أخرى ، حتى إذا انتهى هذا الصراع النفسي ، وتخلص المريد من سلطان هذه النزعات ، وطلب الحظوظ ، أمره الشيخ المربي بالخلوة ، وأداء الفروض مع دوام الذكر كأن يذكر . . . الله وسبحان الله . . . أو لا إله إلا الله[5] .

وأن أول الطريق بالنسبة للمريد هو نهاية طريق الفقيه لأن أعلى درجات الفقيه ، أن يخلص لعمله ، وعلمه مع الله ، فيحظى ، ويرقى ، إلى أحوال ومقامات حسب ما يسر له ، إلى أن يغيب عن ملاحظة حظ نفسه ، كما أن الله سبحانه وتعالى يعطي العبد حسب ما يصلح له فلو أعطى غير ما أعطي لفسدت حاله[6] .

ويجب على المريد ألا يدخل الطريق إلا بعد أن يتبحر في العلوم الشرعية ، خوفاً عليه من الزندقة ، وعليه أيضاً أن يصوم ثلاثة أو سبعة أيام ، ملازماً للصمت وقلة الأكل ، والشرب والنوم ، وإذا انقضت الأيام يصلي ركعتين لله تعالى ، كما أنه من تعاليم الصوفية وجوب تكرار قراءة القرآن الكريم ، والأوراد علوم الشريعة ، والصبر على الجوع ، اختياراً أو اضطراراً ، في أيام الغلاء والقحط[7] .

والواقع أن أهل الطريق لم يبتدعوا جديداً ، وإنما مشوا على منوال الرسول ﷺ في المأكل والملبس والمشرب ، وأن جميع أقوالهم وأفعالهم مؤيدة بالأحاديث ، وسنة الرسول الكريم التي أستنها والصحابة في أمور المعاش والدين ، في المأكل والملبس والمشرب والصيام والطهارة والصلاة والحج وخدمة المشايخ ، وفي السلم والحرب[8] ، وسنوضح هنا نبذة قصيرة عن أخلاقهم وآدابهم .

المأكل والمشرب :

كانوا لا يردون الهدية من مأكل ومشرب ، من أصحابهم ومن السلاطين ، وعدم قبولها من الذي يطلب العوض ، وكانوا يستعملون السنة في الدعاء في الأكل ، والتسمية

---

(5) العزالي ـ أحياء علوم الدين . . الجزء الرابع

(6) الشعراني ـ الطبقات الكبرى (بالهامش كتاب الأنوار القدسية في آداب العبودية 22 وما بعده)

(7) الشعراني ـ الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق مخطوط بمكتبة محافظة الاسكندرية .

(8) ابن طاهر بن علي المقدسي ـ صفوة التصوف ـ مراجعة الدكتور أحمد الشرباسي ص 11

(باسم الله) ويأكلون بـاليمين ، وكـانوا يمسكـون عن الأكل حتى يبـدأ الشيخ ، وكـانوا يستخـدمون الملح في الأكـل وبعده ، ويمصـون أصـابعهم بعـد الأكـل لحلول الـبركـة في الطعام ، ومسـح القصعة ؛ كـما كانـوا يداومـون على أكـل التزيـد في الطعـام مع اللحم وغيره ، وذلك اكراماً للخبز وكانوا يكرهون النفخ في الـطعام خـوفاً من ذهـاب البركـة ، ويخلعون أحذيتهم عند الأكل ، ويعـطون خادمهم من طعـامهم وإذا انتهوا أقـاموا دفعـة واحدة ، وكانوا يغسلون أيديهم بعد الأكل ، وكانوا يتخذون الطعام عند موت أحدهم ، ويقـدمون الـطعام الـذي يصنعونـه بأيـديهم إلى إخوانهم ، وكـانوا يكـرهـون السؤال ، ويفضلون العمل ، ويبيحون السؤال للحادم إذا كثر دينه .

اقتداؤهم بالصحابة في لبس الخرقة وغيرها :

كانوا يلبسون أثواباً من مرقعات شتى في حالة العوز ، وذلك أفضل من أخذها من غيرهم إحساناً ، وكانوا يلبسون النعال ، ويبتدئون بلبسها باليمين في اللبس ، وبـاليسار في الخلع ، وكانوا يلبسون الجورب ويتوضأون به .

الطهارة والنظافة :

كان إذا بال أحـدهم استنثر ، وكـانوا يغتسلون يـوم الجمعة ويتسـوكون ، وكـانوا ينامون عـلى طهارة ، ويهتمـون بنظافـة الثياب ، وتقليم الأظـافر ، ونتف الأبط ، وقص الشارب ، وحلق العانة .

الصلاة :

كانوا يتخذون الميزان أو الساعة لمعـرفة أوقـات الصلاة ، ويصلون الـركعتين عنـد دخول المسجد ، وعند السفر والرجوع عنه ، ويكثرون من قراءة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ في الصلاة .

الصيام :

كانوا يصـومون يـومي الاثنين والخميس ، وكـان منهم من يصوم الـدهر ، وكـانوا يصومون يـوم عرفـة ، فهو كفـارة سنتين عنـدهم ، وكذلـك أيام عـاشوراء ، ومنهم من يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، أو يصوم صيام داود فيصوم يوماً ، ويفطر يـوماً ، وكـانوا يأمرون الشباب بالصوم عملاً بقول الرسول الله : « من استطاع منكم البـاءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فـإنه لـه وجاء) ، وكـانوا يفـطرون على التمـر فإن لم يجـدوا فطروا على الماء .

الحج :

كانوا يكثرون من الحج وخاصة مشاة على الأقدام .

خدمة المشايخ والأصحاب :

كانوا يعتقدون أن خدمة مشايخهم وأصحابهم أفضل من الصوم ، وكانوا يرفقون بخدامهم ، ويتركون الاعتراض عليهم ، ويطلبون التوسعة عليهم .

الانشاد والطرب :

كانوا يغنون ويلهون لهواً بريئاً أيام الأعياد ، وكانوا يلقون بالثياب إلى المنشد ، ويستمعون إلى الغزل من الشعر لتردع القلب لتعي الذكر .

4 ـ تأثير الطريق على شخصية المريد

اتضح من البحث أن تقسيمات الاجتماعيين للمواقف الاجتماعية والتي تخضع الشخص إلى أحد المواقف تجاه شيء ما تبدو عند تطبيقها على المريدين في الطرق الصوفية غير عملية بل تعسفية ، ولا تمثل الأبعاد الواقعية المأمولة منها ، فقد قام الباحث باختبار عينات من المريدين بالطرق الصوفية لامتحان مدى صحة تقسيم المواقف عند ماكيفر[9] في أقسام ثلاثة هي :

1 ـ مواقف تنطوي على إحساس فعلي بالضعة بالنسبة لموقف شخص من شخص آخر .

2 ـ مواقف تنطوي على إحساس فعلي بالسمو .

3 ـ مواقف تنطوي على إحساس بالحيدة ، ولا علاقة لها بمستويات الضعة والسمو .

فإذا تمشينا مع رأي الاجتماعيين في إمكانية إخضاع الظواهر النفسية للدراسة الكمية ، بمعنى قياس درجة الاستحسان والاستهجان عند المريدين تجاه الشيخ ، لوجدنا في النهاية أنه من العسير الحكم على مواقف المريدين بهذا التقسيم التعسفي ، ذلك أن نظام المشيخة هو نظام طبيعي غير مفروض على المريدين ، ويمكن أن ينخلع عنه ، في أي وقت يشاء ، دون ارتباط ملزم من ناحيته ، أو ناحية شيخه .

---

(9) ماكيفر ـ المجتمع ـ ترجمة د. علي عصمت .

لذلك فإن تحويل استجابات المريدين الشفوية والتحريرية إلى مراتب أو درجات لمعرفة مدى الانفعالات النفسية ، التي يمكن أن يستجيب لها المريد ، أو لا يستجيب هو أمر يبدو غير عملّي أو واقعي بالنسبة للطرق الصوفية ، لأن العلاقة بين المريد والشيخ إنما هي علاقة من نوع فريد ، تقوم أساساً على الصداقة والحب والشعور بالكمال الأخلاقي حيال شخصية الشيخ والمربي ، وليس هناك من مصلحة اللهم إلا الرغبة في الوصول والفتح الإلهي ، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق الصدق والإخلاص والنية والمجاهدة ، لتحقق الكشوفات والتجليات عن طريق الرؤى والإلهامات .

فإذا طبقنا تقسيمات ماكيفر على شخصية المريد لوجدنا أنها لا تخضع لأي من التصانيف المبينة ، ذلك أن المريد يشعر شعوراً أكيداً بموقف معين حيال المشيخة مبعثه تربية نفسية تعده على تقبل ما يمكن أن يوصف ظاهرياً بأنه ضعة وتذلل ، على أنه نوع من المجاهدة تمكنه من الصعود إلى مقام أعلى ، أو درجة في السلم الروحي أكمل ، وفي نفس الوقت فالمريد يشعر بالالتزام ، وبموقت الاحترام الشديد لشيخه وليس بموقف الضعة ، فالاحترام لا يدل بالضرورة على الإحساس بالضعة ، أو الضعف ، وإنما يجوز أن يكون دلالة على الثقة بالنفس ، والإحساس بكمالاتها عندما توصل بأصحاب الأخلاق والمقامات الرفيعة .

والمريد في الطريق الصوفي يعتبر شيخه من الصالحين ، وفي نفس الوقت يشعر بالشفافية والتسامي والثقة ؛ بما يفعله ، أو يمنحه ، أو يمنعه ، لأنه يعرف جيداً أنه الخير ، وأنه الحق ، فيشعر في نهاية الأمر بالانتماء إلى الطريق ، وأنه بالطريق وحده يكتمل وتتكامل شخصيته وبدونه يذوب ويضيع .

وهذا التأثير القوي الذي يخضع له المريد له ما يبرره[10] ، إنما يتحدد بعيداً عن المواقف التعسفية التي تخضع للتقسيم الحسي والمادي ، ذلك أن المواقف هنا تختلف إذ تتبلور شخصية المريد عندما تتشفف وتصبح قابلة لأن تتحول من الكثافة إلى اللطف ، أو من العالم الكثيف ، إلى العالم اللطيف ، بمعنى أنه لا يمكن تفسير سلوك المريدين ، والحكم على مواقفهم بعيداً عن الجو الروحي المرتبط به وليس عن طريق السلوك الشخصي الفردي لدى المريدين .

ومن ناحية أخرى فإن تطبيق فكرة المواقف على أفراد الطريق الصوفي هو تطبيق

---

(10) التحليل النفسي والسلوك الجماعي - فرويد - ترجمة د. سامي محمود .

على مجتمع مادي له معاييره الكمية وهو غير المجتمع الصوفي : إذا تحكمه مراسم وتعاليم وأفكار غير التي تعرف في القوانين الوضعية .

وفي الواقع أن نظرية المواقف ، إنما يمكن أن تنطبق على الأشخاص العاديين بالمجتمع المادي الذي تحكمه علاقات متكررة وظواهر متواترة ـ وهذا لا ينطبق على الطريق الصوفي ذلك لأن السلوك ـ كما سبق الإشارة يمتزج فيه الروح بالجسم أو العالم المادي بالعالم الروحي أو المثالي ـ فيخرج موقف المريد على الناس غير ما يمكن التنبؤ به ولا يمكن تفهم سلوكه ودوافعه إلا بتذوق التجربة الصوفية ومعايشتها ، لتتضح المواقف التي غالباً ما تكون نابعة من القوانين التي تحكم المجتمع الصوفي .

وخلاصة القول أن نظرة المريدين حيال المشيخة أو شخصية الشيخ يمكن أن تتخذ أكثر من موقف ، ليمكن أن تجمع بين موقف القوة التي لا تقهر وموقف الصداقة والنصح ، وموقف الإرشاد والإبوة ، بل يمكن أن تجمع بين التبجيل والاحترام الذي لا حد له والأستاذية .

5 ـ السلوك الأخلاقي في الطريق الصوفي

اتضح من البحث الميداني أن الأدب مع الشيخ هو عنوان الفلاح للمريد ، ومن خالف شيخه ظاهراً أو باطناً خرج عن الطريق ، ولا يرجى منه شيء ، وقد أجمع أكثر الصوفية[11] على وجوب طاعة المريد لشيخه ، فمن خالف شيخه لم يبق على طريقه وانقطعت العلاقة بينهما .

كما إن ملاقاة المريد لشيخه ـ الذي يعتبره من أولياء الله الصالحين ـ هو نعمة أنعم الله عليه بها ، لذلك عليه أن يشكر الله على هذه النعمة ويقوم بواجب الخدمة له ، وبذلك يبلغ ـ على حد قولهم ـ مبلغ الرجال ، كما أنه من آداب الطريق أن يعتقد المريد في شيخه الكمال والاستقامة .

وقد نظم الشيخ الشريشي أبياتاً في أدب المريد مع شيخه يقول فيها[12] :

ولا تعترض يوماً عليه فإنه كفيل بتشتيت المريد على هجر

---

(11) الشيخ محمد بناني ـ مدارج السلوك إلى مالك الملوك ص 84 وما بعدها ـ الطبعة سنة 1330 هـ ـ مطبعة الجمالية

(12) المرجع السابق

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل   يرى النقص في الكمال ولا يدري
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده   يظل من الانكار في لهب الجمر

ويجب على المريد أن يقدم شروطاً أربعة قبل الدخول في الطريق وهي[1] :

1 ـ أن يتبرع بماله حتى لا يبقى له إلا الضروري وحتى لا يظل قلبه محجوباً عن الله .

2 ـ أن يبتعد عن الجاه ، وذلك بالتواضع وإيثار الخمول ؛ والهرب من الشهرة .

3 ـ أن يترك التقليد ، وذلك بترك العجب الغرور ، وأن يتذوق حلاوة مع الله .

4 ـ أن يهجر المعصية ، وذلك بالتوبة والندم ، ورد المظالم وإرضاء الخصوم لأنه لا يمكنه الترقي وهو عاص .

فإذا توافرت هذه الشروط الأربعة صار صالحاً ، وعند ذلك يحتاج إلى شيخ يقتدي به ، أو أستاذ يهديه إلى الطريق الحق ، لأن الطريق غامض ، وسبل الشيطان كثيرة ، فإذا لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة[13] .

ويجب على المريد أن يتمسك بشيخه ، ويفوض إليه أمره كلية ولا يخالفه .

ويجب على الشيخ أن يحمي مريده ويدفع عنه قواطع الطريق وهي : الخلوة والصمت والجوع والسهر .

وإذا وجد الشيخ من مريده ذكاء وكياسة ، تركه للفكر والتأمل ليقذف الله في قلبه من النور ما يشاء ، وإن لم يجده ذكياً فطناً متمكناً من علوم الظاهر ، فلا يشغله بعلوم الذكر والفكر ، وإنما يشغله بخدمة زملائه لتعمه بركتهم ، ويحضر مجالسهم وأنه لم يصل لدرجتهم . ومن واجبات الشيخ أن يقود مريده إلى بر الأمان ، وأن يلاحظه وينصحه إلى الطريق الذي يهديه إلى الحق ، حسب ما تيسر له من ذكاء وفطنة ومعرفة بعلوم الظاهر ، لأن العلوم الشرعية ستمكنه من التغلب على هوى نفسه إذا وجدها قد اغترت بما كشف لها . إما إذا كان المريد غير متمكن من هذه العلوم فإنه سيتخيل نفسه عندما كشفت له الحجب واصلاً فتنزلق قدمه ، ويغلبه الشيطان فيفسد ويصبح مجذوباً عاطلاً .

وهكذا نرى أن المريد يصبح جزءاً من الشيخ كما يصبح الولد جزءاً من أبيه ، وتتم ولادة المريد بمجرد أن يخلع عليه الخرقة ، للدلالة على أنه انخلع من إرادة نفسه ، وفنى في الشيخ ولم يعد له في نفسه اختيار .

---

(13) الامام الغزالي ـ إحياء علوم الدين حـ 8 ص 1474 ـ كتاب الشعب

والـوقت الذي يمضيـه المريـد تحت رعايـة الشيخ يسمى زمن الارتضـاع ، ويحـدد الشيخ للمريد وقت الفطام ، والمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وتأدب بآدابه ، فإن حال الشيخ يسري إلى باطن المريد بواسطة هذه الصحبة وسماع المقال

ومن القـواعـد العـامـة والأوامـر التي تعتـبر دستـوراً للطريق حتى الآن مـا كتبـه الشعراني[14] ومنها :

1 ـ إذا أقبل الشيخ على أحدهم وزاد اهتمامه بـه فلا يحسـدونه لأن الحسـد يأكـل الحسنات .

2 ـ لا يدخل المريد الطريق ويأخذ العهد على شيخ حتى يتوب من سائـر الذنـوب الظاهرة .

3 ـ أن يكثر المريد من مراقبة شيخه حتى يصير مشهوداً له على الدوام ليلاً ونهاراً .

4 ـ أن يجـد المريـد طلب الشيخ المـربي ، وإذا لم يجد في بلده من يـربيه فعليـه أن يسافر إلى أن يجد شيخاً يقوم بتربيته .

5 ـ إذا سافر المريد إلى شيخ يأخـذ عليه الـطريق وقابله بجفـاء ، وعدم المباسطة فعليه الصبر على ذلك ، ولا يرجع عنـه ، بل يجب أن يحبب لـه ذلك فـما فعل الشيـخ ما فعل إلا لمعرفة همة ذلك المريد .

6 ـ إذا وقع المريد في معصية بعد التوبة على يد الشيخ ، فيجب أن يخبر شيخه بها حتى يوصله إلى سد الباب الذي دخلت منه المعصية .

7 ـ لا يسأل المريد شيخه أن يجيبه عن كل ما يسأل عنه .

8 ـ لا يغتر المريد بطول صحبته للشيخ أو يرى نفسه أفضل من صحب الشيخ .

9 ـ أن يـزيد المـريد في محبـة كل من يـراه يحب شيخه ، وذلـك ليرقى المـريد إلى محبتهم .

10 ـ إذا تلقى المريد من شيخه شيئاً من الأوراد والأذكـار ، فعليه أن يـداوم على الذكر ليلاً ونهاراً ، حتى يقع له الفتح ، ويشتغل قلبه بنور التوحيد وعليه أن يهجر مسائل الفضائل التي لا يـأمره بـالاشتغال بهـا ، وذلك ليجـد في الصبر من غـير التفات إلى أمـر آخر .

---

(14) الشعراني ـ الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق ـ مخطوط ـ مكتبة محافظة اسكندرية

11 ـ لا يدخل أي مريد إلى مجلس الشيخ إلا للخدمة ، أو لطلب إرشاده أو ما فيه صلاحه .

12 ـ يعرض المريد على شيخه صحيفة عمله كل يوم ولا يكتم عنه شيئاً لأن شيخه الأمين عليه .

13 ـ لا يعترض المريد على شيخه إذا وجده يوصي مالاً ، أو ثياباً ، أو طعاماً ، أو خيراً لغيره من الأغنياء ، ويترك الفقراء أو المساكين .

14 ـ إذا كان المريد منشداً وأنشد في مجلس شيخه ، فعليه أن تكون نيته في الانشاد امتثال أمر شيخه فقط ، لا من أجل أن يشكره الناس على ذلك .

15 ـ ألا يستحي المريد من ذكر أمراضه الباطنة ، على شيخه فهو طبيبه النفسي ، فإذا كتم المريض داءه عن الطبيب طال مرضه .

16 ـ إذا كان المريد من أبناء الشيوخ فعليه أن يطلب شيخاً له يربيه ، فإن الولاية والمشيخة ليستا بالآباء والجدود وإنما هي موهبة من الله تعالى .

17 ـ يجب أن يعتقد المريد في شيخه أنه عارف بالكتاب والسنة ، وعالم بميزان الخواطر النفسية والشيطانية والملكية والرحمانية ، وعارف بالأصل الذي تبعث منه هذه الخواطر .

18 ـ يجب أن يمتثل المريد لرأي الشيخ ، ويبادر بتنفيذ رأيه ، فإن أذن له بعمل قام به وإن نهى عن عمل ابتعد عنه .

19 ـ من أخلاق المريد أن يخاف على شيخه ويتحاشى أن ينقص مقامه لا سيما في المأكل والمشرب والملبس .

20 ـ يجب أن يفرح المريد لجفاء شيخه ، وإن حرمه من خبز الزاوية وطعامها ، وإذا تكدر المريد من حرمانه في سره فقد نقض عهده من شيخه ، وخرج من سياج طاعته ، ووجب عليه أن يجدد العهد ثانياً ، وقد أجمع مشايخ الطرق على ذلك ، وتفسير ذلك أن الشيخ ربما حرم المريد من شيء فيه مصلحة له وارتقاء لمقامه .

هذه الأخلاق الطيبة التي يربى عليها المريد في الطريق ، تخلق منه إنساناً واعياً صادقاً أميناً على نفسه وعلى بينه واخوانه ، صابراً جلداً ، راضياً ورعاً ، متواضعاً مطيعاً طاعة تقربه من ربه .

وتلعب هـذه القواعـد العمليـة الـدور الأسـاسي في السلوك الصـوفي إذ بـدونها لا يستقيم المريد في الطريق الصوفي مقام ولا ينتظر منه رجاء .

ومن معايشة المجتمـع الصوفي ومـلاحظة التـطبيق العملي لمـراسم الطريق وتـذوق ثمرات الممارسات الروحية ، تأكد لنا أهمية تطبيق هذا السلوك في التربية الأخلاقيـة وذلك لكبح جماح النفس وتأديبها وتطويعها لتظفر بالسمو الأخلاقي والنفسي .

6 ـ منافع الطريق الصوفي

لم يتضح من الاستبيانات التي قام بها الباحث وجود مصالح مباشرة أو منافع محددة يحصل عليها المريدون نتيجة إنخراطهم في الطرق الصوفية .

وقد كانت أجوبة 100 مريد على الاستخبار عن نوع العلاقة بين المريد والشيخ ، قد تشابهت وتحددت أكثرها في الإجابة على أنها علاقة نصح وإرشاد أو علاقة أبـوية وليس هناك من الأجوبة ما يدل على وجود منفعة مادية أو عائد يعـود على المـريد كنتيجـة مباشرة لـلإنتماء للطريـق ، ومع ذلـك فقد اتضـح من البحث أن هناك فـوائد جمـة يحصل عليهـا المريدون نتيجة إنخراطهم في الطرق الصوفية يمكن تلخيصها في الآتي :

1 ـ يشعر المريدون أنهم جميعاً عـلاوة على أنهم أخـوة « إرتضعو من ثـدي واحد » وأنهم في إتحاد شامل لا يمكن أن ينفصم عراه ، وأنهم جميعاً يتسمون بالإخلاص للطريقـة التي ينتسبون إليها مثلهم في ذلك مثل أعضاء الزمر الإجتماعية .

وإذا اعتبرنا الطريق زمرة إجتماعية فإن أعضاءه ينـطبق عليهم ما ينـطبق على أفـراد الزمر الاجتماعية من أنظمة وتقاليد وحقـوق وواجبات وفوائد مـادية ومعنـوية ، ذلـك أن المصالح المشتركة بين الجماعـة هي هدف وجـودها ، فـالإنتماء إلى الـطرق الصوفيـة شأنـه كشأن الإنتماء إلى فريق رياضي أو ناد اجتماعي ، يولد شعوراً قوياً بالإنتماء أو الارتباط مع وحدة من الأشخاص .

2 ـ عندما ينجح الشخص في اختيار طريقته أو زمرته إنـه يرفض غـيرها وهـذا ما يتأكد في الطرق الصوفيـة عند أخـذ العهد عـلى شيخ الـطريقة فـإن العضو يخضـع لنظام الطريقة وآدابها وتعاليمها ، فلا ينتمي إلا لشيخ واحد ويعبر المريد عن إخلاصـه للطريق بإستخدامه عند التحدث لفظ « نحن » في مقابل لفظ « هم » .

كـما أن إستخدام لفظ « عمنـا » وهو يعني شيـخ الطريقـة في مقـابـل « عمهم » أو

شيخهم « بالنسبة لمشايخ الطرق الأخرى ، وللزملاء « سي فلان » في مقابل الأستاذ فلان أو « الشيخ فلان » للطرق الأخرى - الأمر الـذي كان يتـوجب معه بحث الأسباب التي تدعو المريدين أن يسلكوا هذا المسلك تجاه طريقة من الطرق وإستيضاح كنه الثمرات والمنافع التي يمكن أن يحصلوا عليها من إنخراطهم في الطريق ، والبواعث الخفية للإنتماء للطريق ، ولذلك دار جزء من بحثنا على دراسة البواعث للدخول في الطريق ، وعما إذا كان المريد يرغب بإنتمائه إلى الطريق كسب إحترام الناس !! وهل الدخول في الطريق سيدر عليه كسباً في تجارته أو صناعته أو وظيفته ؟ . . . وهل الدخول في الطريق من مستلزمات العمل الناجح ؟ . . . وهل في الطريق الدخول يؤدي بالضرورة إلى تحسين العلاقة بينه وبين الشيخ الذي يعتقد في ولايته غالبية الناس ؟ .

والواقع أن كل إجابة من هذه الأجوبة تلقي بعض الضوء على المنافع التي تعود على المريدين بالدخول في الطريق ، ومع ذلك لا يمكن القول أن كلها تعتبر السبب الرئيسي للإنخراط في الطرق الصوفية ، ذلك أنه يوجد مما لا شك فيه بواعث خفية لا تظهر في البحث الميداني ، تؤتي ثمارها بطريقة غير مباشرة نتيجة الانتماء إلى الطرق الصوفية ، بل ربما تكون العامل الرئيسي المشجع على الإستمرار للمريد في الإنتماء إلى الطريق .

ومن المعروف أن أفراد الطريق الصوفي يتعاونون في حل مشاكلهم الاجتماعية والمادية بطرق شتى ، ولهم في ذلك رأي واضح وصريح يتلخص في أنه لكي يتفرغ المريد للعبادة ، ويخلص للطريق يجب معاونته في إزالة العوائق المادية والإجتماعية التي تقف سداً في سلم الترقي ، والسير في عباداته ، ومجاهداته ، فالدخول في الطريق لا يتطلب مقدماً أن يكون المريد غنياً أو فقيراً ، من عامة الناس أو مثقفيهم ، وإنما يتطلب أن يكون صادقاً مع شيخه مخلصاً لطريقته ، قائماً على تلاوة ورده ، قانعاً بحاله .

ومن ناحية أخرى إذا كان محتاجاً عاونه شيخه ، مريضاً عالجه ، عاطلاً ساعده ، عن طريقه أو طريق أقرانه .

ومن الملاحظ أن ذلك يعد من السمات الواضحة في الطريق ، وأنه من المشاهد في مجالس الصوفية ، فمثلاً إذا علم أحد مشايخ الطرق أن مريداً من المريدين في عسر مالي ، يضع منديله بالحضرة ، وبه بعض المال ، وعلى كل مريد أن يضع شيئاً حسب مقدرته ، وبعد إنتهاء الحضرة يسلم المنديل إلى المستحق دون أن يعرف أقرانه من المحتاج منهم .

وفي حضرات أخرى يتم مساعدة المريد بحضور أقرانه وذلك بتوصية من الشيخ

لأحد المريدين وهو غالباً ما يكون ميسراً أو من أصحاب المراكز الاجتماعية ، كأن يكون أستاذاً جامعياً ، أو موظفاً كبيراً ، أو تاجراً مرموقاً . . . ويتم على الفور تنفيذ توصية الشيخ بلا تباطؤ ، أو مخالفة ، ويعطي للمريد المعسر ما يجود به اخوانه .

فالطريق الصوفي هو تجربة اجتماعية ، علاوة على أنه تجربة روحية ، يمر بها السالك ، فلفظ نحن يمثل الانتماء الذي يزداد بمرور الأيام فيصبح تعصباً للطريقة وشيخها رغم أن جميع المشايخ يجهرون بالقول بأنهم متفقون على أن الطريق الصوفي واحد ، وان اختلفت تفرعاته . فالغاية والهدف واحد ـ وإنما يأتي الاختلاف بين الطرق بعضها وبعض ، بسبب الغيرة القائمة بينها أو بسبب جهل بعض المريدين ، أو ما يدعيه بعضهم من وجود ما يسمى بالمصلحة المشتركة .

فإذا أردنا أن نقيم المصلحة أو المنفعة التي يحصل عليها المريد فما علينا إلا إستثارة المريد ، وذلك بإنتقاد الطريقة التي ينتمي إليها أو نحاول أن نظهر له السلبيات في الطريق أن هناك طريقة أفضل من طريقته وعند ذلك يكون رد الفعل قوياً وصريحاً ويكشف المريد في الواقع عن تعصبه ، وبذلك تتضح الفوائد أو المصالح التي تعود عليه من الانخراط في هذا الطريق بالذات دون غيره .

وأنه مما لا يدع مجالاً للشك أن المريد في الطريق يحس إحساساً واضحاً بالقيم الذاتية للطريقة التي ينتسب إليها ، والأهداف العامة والغايات النبيلة التي يعمل من أجلها ، وهذا يعد بطبيعة الحال منفعة أو مصلحة مباشرة أو غير مباشرة .

وإننا لا نشك في أنه لا يمكن أن نحتفظ بأي علاقة مع غيرنا من الناس إلا إذا كنا نحترم أنانيتنا ووجودنا ، حتى وإن بدت هذه العلاقة مختلطة بين المصالح الفردية والمشتركة ، إلا أنها في الوقت ذاته لا يمكن أن تقوم لهذه العلاقة قائمة إلا إذا كانت تجري وراء مصلحة أو منفعة شخصية مع وجود غاية أو هدف أعلى أو أسمى تنتسب إليه وهذا هو الحال في الطرق الصوفية .

ولكن يبدو أن الاقتصار على القول بوجود منافع أو مصالح ذاتية للدخول في الطريق الصوفي غير كاف ـ إذ يجدر بنا أن نحدد هذه الفوائد والمصالح ، فإذا قلنا أن هناك سبباً يدعو هذا المريد أو ذاك للإنخراط في الطريق الصوفي . . . فإنه يتوجب علينا معرفة الأسباب الخفية لأن الأسباب الظاهرية يمكن ألا تعطي جواباً شافياً . . . فمما لا شك فيه أن المصالح والمواقف متشابكة في السلوك الإنساني مما يتعذر فصلها عن بعضها فصلاً تاماً .

فالمريد الذي يدخل في الطريق الصوفي يشعر بالانتماء إليه ، وهذا سلوك ظاهر إلا أنه مما لا شك فيه أن هناك سلوكاً باطنياً ألا وهو الوصول أو الرغبة في الترقي من مقام إلى مقام ، عن طريق المجاهدة والمكابدة حتى يحظى بالفتح الرباني ، والكشف الإلهي ، ذلك لأن المريد أو السالك يبدأ في الطريق تائباً ، ثم يأخذ العهد على يد شيخه ، المربي إلى أن يصبح خليفة أو لا يصبح ، ويمكن أن يحتل مركز المشيخة في منطقته أو في المناطق الأخرى .

فالطريق كما اتضح من البحث هو رابطة بين أفراده أساسها الخلال الحميدة والآداب الشرعية التي تربط قلب العبد كما يقولون على الحضور في حضرة الحق تعالى بما ينبغي من كمال المحبة والتقديس والتنزيه .

وهذه الرابطة الوطيدة تؤثر تأثيراً واضحاً في شخصية المريد وتعود عليه بطريق غير مباشر ، بفوائد اقتصادية ومادية فتمده بالحاجات والاحتياجات التي يمكن أن يفتقر إليها ، وهو بمعزل عن الطريق ، ذلك لأن الطريق يؤكد له إمكانية الإشباع المادي والنفسي بما ييسره له من السكينة والطمأنينة ، ومما يجده من حلول لجميع مشاكله ، فلا يشعر بخوف وهو يسير في طريق الله ، وإنما يعرف تماماً أن الله معه في كل شيء ، فإذا تعثر ساعده شيخه ، واخوانه ، على رفع عوائق الطريق وهذا في حد ذاته أجل الخدمات والمنافع التي تقدم للمريد وإن كان ذلك مطلباً غير مباشر للمريد في صورة الأمن والأمل الذي يسعى إليه ويسعد به .

7 ـ الباعث على الدخول في الطريق

إذا كان هناك كثير من الأجوبة عن الباعث للدخول في الطريق الذي قام الباحث بإستبار المريدين عليها ، والتي كانت أكثرها تتلخص في التقرب إلى الله أو لمعرفة الله .

فإنه يتوجب علينا أن نحلل هذه الإجابات تحليلاً موضوعياً بمعنى أنه إذا كان المقصود من دخول المريد الطريق هو التقرب إلى الله ، فلما يختار المريد طريقاً بعينه دون طريق آخر ؟ . . . بل أنه لا يستطيع أن ينضم إلى طريقتين في وقت واحد !! ولو علم شيخه ذلك لطرده من مجلسه ، علاوة على أن المريد يمر بمراحل متعددة إلى أن يثبت مقام ، ولذلك فإن المريد لا يمكن له منفرداً وهو كما يقول الصوفية أن يسبح . . . لأنه لم يتعلم بعد السباحة وعليه أولاً أن يتعلم عن معلم ثم إذا أتقن العوم . . . فإن شيخه يتركه يعلم آخرين . . . وإذا كان المريد متحمساً أو مغروراً فإن على معلمه أن يدربه ولا

جناح عليه إذا قسى عليه لمصلحته ، وذلك كما حدث للقطب الغوث النقشبندي[15] في بداية سلوكه الطريق .

وإذا كان المريد يريد الانخراط في الطريق الصوفي فعليه أن يخلع لباس الرياء والنفاق ، وأن يكون صادقاً مع نفسه كما يكون صادقاً مع شيخه وأن يحترم آداب الطريق .

والطريق الصوفي هو تجربة شخصية يدخلها المريد آملاً أن يصل إلى مقام عال عند ربه ولذلك فإنه يواظب على القيام بشعائر الدين ويزيد عليها من الذكر والأوراد لتتشفف روحه ، ويسمو بنفسه من درجة إلى درجة للتقرب إلى الله ـ وهو لا يقنع بالمقام الذي فيه بل يرى أن عليه أن يكثر من العبادة والذكر حتى يصل إلى مقام أعلى ويقول الإمام الشعراني في الكريت الأحمر[16] أن على المريد أن يسلك 999 ، 248 ألف مقام ليصل إلى الولاية وبدونها لا يكون السالك من أهل الحق أو أرباب التلوين أو التمكين الواصلين .

والمريد يعتبر سالكاً حقاً عندما يتخلص من نفسه الأمارة ويشعر بأنه ضعيف مع الله قوي بالله ، فتصبح عنده الدنيا رحلة قصيرة ، ما يلبث أن ينتهي منها إلى الحياة الحقة في جنات عدن ، ولذلك إذا سألت أحد المريدين عن الباعث لدخوله الطريق فإنه يجيب مهما اختلف شكل الرد على أنه الرغبة في التقرب إلى الله والمحافظة على نفسه من التهلكة وغواية الشيطان .

وإننا نجد أغلب علماء الاجتماع والمحللين النفسيين كفرويد قد أدركوا أن هناك بواعث خفية خلف التجارب الاجتماعية ـ وقد أوضحوا أن كل سلوك ظاهر يخفي وراءه سلوكاً باطنياً ، هذا معناه أن الاستبارات التي قمنا بتطبيقها على المريدين كان لا بد أن يتم تحليلها إلى مصادرها الخفية ، ولكن ه أمكن حقاً اكتشاف البواعث الحقيقية عند المريدين للدخول في الطريق ؟ .

انه لمن السلم به أن الشخصية الإنسانية شخصية معقدة بل غاية في التعقيد ولا يمكن ارجاع أي سلوك أو تسويفات عقلية ربما تكون بدورها سطحية ـ إلى بواعث غير مؤكدة ، لا تعبر عن الباعث الحقيقي الخفي إلا ظاهرياً .

ويجدر بالذكر أنه لتفهم الباعث تفهماً كاملاً ، فإن ذلك يعد من أصعب الأمور ، وذلك إذا علمنا أنه يتوجب تفتيت شخصية كل مريد على حدة لإمكان دراسة حالته لأن

(15) الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية ص 3 ـ 11 مطبعة السعادة 1344 هـ

(16) الكبريت الأحمر (هامش كتاب اليواقيت والجواهر للإمام الشعراني)

الباعث يختلف من فرد لآخر تبعاً لبيئته ، وثقافته ، وظروفه الأسرية ، والاجتماعية ، علاوة على أن الشخصية الإنسانية لا تتكرر وجودها ، ولا مظهرها تماماً من شخص لآخر حتى ولو تشابهت في الأشخاص بعض السمات الشخصية .

والمعروف أن شخصية المريد تمر بمراحل متعددة كما أسلفنا الذكر إلى أن تحظى بالولاية والتي تعد في واقع الأمر مظهراً فريداً في نوعه إلا أن أي شخصية مع ذلك تمثل في البداية الشخصية الإنسانية العامة في أطوارها الأولى أي قبل الوصول إلى مقام الفناء أو البقاء .

فإذا أردنا دراسة الباعث دراسة موضوعية ، فإنه يجب علينا في هذه الحالة أن نبتعد قليلاً عن دراستنا للطرق ، بالمنهج الذي اتبعناه ونستبدل به منهج علم النفس الاجتماعي لنتمكن من تحليل بعض عينات من المريدين ، وذلك بالرجوع إلى طفولتهم ومراهقتهم ، بل وبدراسة البيئة المحيطة بهم وعلاقاتهم بالآخرين ، بالإضافة إلى دراسة ثقافتهم ومعتقداتهم حتى نتمكن من معرفة البواعث الخفية عند بعض المريدين للدخول في الطريق .

وفي الواقع فإن ذلك لن يمثل غالبية المريدين حتى ولو كانت العينات متكاملة ، ذلك أن هناك أسباباً لا يمكن إخضاعها إلى التجارب المعملية والاكلينيكية في حياة الفرد ويمكن القول بأنها فوق إنسانية .

وإنه من الواضح أنه يمكن أن نستنتج بصفة عامة البواعث على الدخول في الطريق وذلك من أقوال المريدين والتي تتضمن الرؤى ، والإلهامات ، والتوجهات ، ومن خلال تفسير أئمة الصوفية للاتصالات التي تتم بغير الطرق الحسية ، وكذلك من المسح الاجتماعي ودراستنا لحدود الدين وأحكامه والبيئة المحيطة بالأفراد ، وعلاوة على التعرف على العادات والشعائر المتبعة كالاذكار ، والرقي ، والأوراد وكرامات الأولياء ، باعتبارها نظماً سائدة في المجتمع الصوفي عامة ، وفي المجتمع المدروس خاصة بالإضافة إلى دراستنا للعلاقة بين الشيخ المربي والمريد ، وهي دراسة ميدانية تؤهلنا لمعرفة البواعث في الدخول إلى الطريق بشكل أكثر واقعية

هذا ويجدر الإشارة أنه بتفحصنا بدقة إلى ما يذهب إليه أصحاب التحليل النفسي عن المعتقدات الدينية ، فإننا نجد أنهم يردون الاعتقاد الديني إلى مقولة واحدة وهو أنه يشبع عند الأفراد أعمق شهوات النفس البشرية ويزيل بعض التوتر والقلق والاضطراب الشعوري واللاشعوري ولذلك فإن المتدينين يعتبرون معتقداتهم الدينية تمثل أثمن شيء في الحياة وأعلى ما فيها .

ونحن لا نعارض رأى أصحاب التحليل النفسي مع قصور هذا الرأي وضعفه ، حيث أنه باب لا يمكن اغفاله كباعث من البواعث للدخول في الطريق الصوفي ، ومن ناحية أخرى إذا أمكنا تحديد حدود الباعث على ضوء نتائج التحليل النفسي فإننا نجد تفسيرهم لا يتعارض مع ما يذهب إليه أئمة التصوف فهم يرون أن الباعث الديني مرجعه عدم الرضا عن الحال ، والأمل في الوصول إلى الكمالات الأخلاقية ، وذلك بالاسترسال مع الله علاوة على الرغبة اللاشعورية في استجلاب النعيم والظفر بالجنة التي وعد بها الله عباده ، فهناك ارتباطاً لا شعورياً وثيقاً بين الحياة الدنيا وبين الجزاء في الآخرة .

فالاعتقاد الديني عند أصحاب التحليل النفسي يمثل العصاب عند المراهقين الذي هو تعبير عن القوى التي تمثل وجوه الصراع الذي يؤدي إلى أسمى أماني جنسنا ، وأعمق ما يحقق من تقدم وازدهار ، فالعصابيون هم حملة المشاعل للحضارة فهم يرهقون أنفسهم من المجهود المضني الذي يبذلونه والذي لولاه لما قامت هناك حضارة أو مدنية[17] .

فإذا طبقنا ذلك المفهوم على المريد في الطريق فإننا نجده فعلاً يصارع هوى نفسه ويكبح جماح شهواته ليرقى بنفسه ومن حوله ولولا ذلك الصراع الداخلي وعدم رضائه عن حاله لفترت همته ، وزهد في المجاهدة ، إلى مقام أعلى ودرجة يرى فيها الحق غايته ، والجنة أمله ومطمحه .

فالباعث الحقيقي واضح في معاني الصوفية في عزوف النفس عن الدنيا والمجاهدة في الله وذلك بالتوبة ، وذلك وارد في قوله تعالى ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ (التوبة : 17) ﴿ **ورضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ (المائدة : 119) ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ (المائدة : 54) .

وهذا في تصورنا أسمى غاية يمكن أن ينشدها الإنسان في مجتمع تتصارع فيه القوى البهيمية ، ويقوم أساساً على نصرة الأقوى لا الأتقى ، وبتحقيق هذه الغاية السامية يكون التصوف في خدمة الرقي النفسي والروحي ، الذي هو في نفس الوقت رقي للحضارة والتقدم والازدهار للمجتمع والإنسانية ، بما يحويه من أخلاق سامية ، وآداب رفيعة ، وتكامل إنساني .

---

(17) أرنست جونز« التحليل النفسي » ترجمة د فتحي الشنيطي ـ ص 118 وما بعدها .

خاتمة الكتاب

بعد أن عرضنا حكومة الأولياء ، وأوضحنا تنظيماتها ، وبينا طريقها ، وتعرفنا على آدابها وأخلاقياتها ، وتفهمنا منهجها وغاياتها ، وشرحنا قواعدها وقوانينها ودستورها ، ثم تتبعنا نظامها الهرمي الذي ظهر في قمته القطب الغوث كرئيس لهذه الحكومة ، له مطلق السلطات على أعضائها ، والذي يستمد وجوده من قطب الأقطاب الأوحد الممد لجميع الأقطاب عبر الزمان والمكان إلى قيام الساعة ، وهو الرسول ﷺ .

ولقد أكدنا في دراستنا وجود الإمامين والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء والرجباء وغيرهم من أعضاء الحكومة الباطنية من الأولياء .

وبعد أن تم امتحان ذلك ميدانياً ، وذلك لاختبار صحة ما تكشفت عنه حصيلة الدراسة النظرية ، والذي اتضح منه صدق الفرض الذي وضعناه حيث تبين وجود مصادر تشريعية لهذه الحكومة تقوم أساساً على التوحيد والإيمان والإخلاص ، والطاعة ، والنية الحسنة ، والفراسة ، والتوسم ، والرؤيا ، والإلهام ، والعلم ، واليقين .

وقد تأكد لنا أن الأولياء هم صفوة الصوفية ، والنخبة المختارة من خلق الله ، والذين يعملون على طريق الإخلاص ، ويقتدون بالرسول الكريم منهجاً وسلوكاً وغاية .

ولقد أظهرت الدراسة عقم ما يزعمه الحاقدون من أن التصوف لم ينص عليه القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، وبعد أن تم دحض هذه المزاعم بما أوردناه هذا الكتاب من حجج دامغة ، وأدلة قاطعة ، على أن القوم لا يتبعون إلا ما أنزل الله ، وما

أوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

كما أثبتت الدراسة أن ما يحظى به الصوفية من أحوال ومقامات ، وما يعاينوه من مشاهدات وكشوفات ، وما يفتح عليهم من علوم وأسرار ، وما يفاض عليهم من منن وعطايا ، وما ينعم عليهم من تجليات وهبات ، إنما هي ثمرات لأعمالهم وجزاء لإحسانهم ، ومثوبة لصدق توحيدهم ، وإخلاص عبوديتهم ، والتخلق بأخلاق القرآن الكريم ، والاقتداء بالرسول ﷺ .

فلا غرو وأخلاق الصوفية تمثل القدوة الطيبة ، أن يمتازوا عن الخلق بالقربة من الله ، والمحبة في الله ، الرضا عن الله ، ورضى الله عنهم ، إذ أن غايتهم أفضل الغايات ، وهي الوصول إلى الله تعالى ، والاسترسال معه في كل أمر وفعل .

وليس من الحكمة أن يتساوى العارف بالله ، مع الجاهل المدعي ، وإلا فسدت الأرض ، وطغى الشر ، واستغلقت الحقائق ، وضاعت العدالة ، والتبس الأمر عند الناس .

وحاشى أن لا يفرق سبحانه وتعالى بين عباده المخلصين ، وبين عباد الشيطان المارقين ، فلقد وعد الله في كتابه الكريم عباده الصالحين بأحسن الجزاء ، كما توعد أعداء الله وحزب الشيطان بالعذاب المبين ، كما أنه تعالى يتلطف بالمؤمنين ، ويفتن الكافرين ليزدادوا ضلالة ويمهلهم ليوم موعود .

ويعتقد بعض الناس عن جهل أو قلة بصيرة أن الفاسقين والمارقين يعيشون حياة سخية ، ويعمرون في نعيم اللذات ويرتعون في العزة والصحة ونعيم الحياة رغم فعلهم السيئات . . . أما المؤمنون فحياتهم حافلة بالابتلاءات ، يعيشون عيشة ضنكاً ، ولا يحصلون من نعيم الدنيا على شروى نقير .

والواقع أن الله تعالى عارف بقلوب عباده ، يعلم ما يصلح لهذا وما لا يصلح لذاك ، فلو أعطى هذا المؤمن مالاً أو جاه لفسق ، ولو ضيق على هذا الضعيف الإيمان ، لاعترض وفترت همته ، وتمرد على طريق الله ، فهناك حكمة الله ، وعدل الله ، وعلم الله ، الذي لا يحيط به إنس ولا جان ، ينظم ملكه بنظام دقيق ، بمشيئته وقصد منه تعالى ، فيترك الفاسق إلى حين ، حتى إذا ما اعتقد أن الدنيا قد دانت له سلبه المال والصحة والجاه جميعاً ، دفعة واحدة ، دون أن يدري وهي لطمة كبرى وجزاء رادع على ما اقترف من آثام ، كما يعوض الله المؤمن على صبره فيرزقه من حيث لا يدري ولا

يحتسب ، وإذا ماإبتلاه تلطف به ، ليمتحن صدق عبوديته ، ويخبره في إخلاص عبادته ، فإذا صبر وثابر ، كان حسن الجزاء ، وأثابه على عمله الصالح أضعافاً مضاعفة ؛ وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور** ﴾ (فاطر : 12) .

فالفرق بين المؤمن والكافر ، كالفرق بين الأعمى والبصير ، فالمؤمن يعرف طريقه إلى الله ، ورغم ما يقابله من عوائق ويصادفه من امتحانات واختبارات وابتلاءات ، فهو صادق الوعد ، شديد العزم ، قوي الهمة ، لا يثنيه عن المجاهدة في الله إغراء الشيطان ، ولا زخرف الدنيا ومتاعها ، ولا يوقفه عن مصارعة الأهوال ، ومكابدة الامتحانات ، حظ ولا هوى ، وإنما يسترسل أبداً مع الإرادة الإلهية ، ويكون مع الحق تعالى كالميت في يد الغاسل يحركه كيفما شاء وهو راض قانع متوكل صابر .

أما الكافر فمثله مثل الأعمى ، يتخبط في طريقه ولا يفرق بين النور والظلمة ، والحجر والذهب ، فتقوده الأهواء ، وتدفعه النزوات ويرتطم آخر الأمر في طريق العثرات ، ويقع لا ريب في بحر الظلمات ، وإن طال عمره ، وحسن عيشه ، واطمأن على نفسه .

فشتان بين حياة المؤمن والكافر ، فالمؤمن يسير في طريق الولاية الكبرى ، فيعرف طريق الله ، ويكاشف بالأسرار ، وينعم عليه بالفتوحات ، ويحظى بالمنن والعطايا والهبات ، ويبصر بنور الله ، ويبطش بيد الله ، ويلهم بالعلوم والحقائق التي تجل عن الوصف والبيان ، وهو في كل ذلك متواضع لا يرى لنفسه فضلاً وإنما الفضل لله ، ولا يتكبر ولا يتجبر ، لأن علمه إنما صدر عن الله ، ولا يتعجب ولا يفتر لأنه عارف إنما تسيره إرادة الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والولي الصادق إنما يبشر بالنعم صحواً ومناماً ، تجلياً وإلهاماً ، دنيا وآخرة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا والآخرة** ﴾ (يونس : 64) .

فلا عجب والأولياء على طريق الله ، أحباؤه وخلصاؤه أن يكون لهم حكومة ودولة ، ونظام وآداب ، وقواعد وتعاليم ، وأخلاق وقيم ، وإن يختلف كل ذلك عن حكومة ودولة الظاهر . حيث أن منطق الباطن غير منطق الظاهر ، والامداد والاستمداد في التشريع والقوانين متباين والسلوك غير السلوك ، والغايات غير الغايات ، والأخلاق غير الأخلاق .

ولا غرو إذن إذا قلنا أن مجتمع الأولياء غير مجتمع العامة ، فالأولياء طبقة خاصة ،

يمكن أن يقال أنها طبقة ارستقراطية تختلف عن طبقة العامة في التقاليد والسلوك والغايات ، فهناك نوع من المساواة في الحقوق والواجبات والحريات بين الناس جميعاً في الدولة المدنية ، والقوانين والتشريعات الوضعية ، أما في الدولة الباطنية فهناك تمايز واختلاف بين العارف والجاهل ، وبين الولي وغير الولي .

فإذا تساوى الناس في نظر الدولة المدنية في الحريات والحقوق الظاهرية ، فإن هناك اختلاف في هذه الحقوق وتلك الحريات في ظل نظام الحكومة الباطنية ، لأن العبرة هنا بالنية والإخلاص والطاعة لله جميعاً ، أي بالقلب السليم والعقل السليم ، وليس بالرياء، والنفاق الخداع والكذب ، والذي يمكن أن يكون سلوكاً عند أعضاء الحكومة المدنية ، لأنها جميعاً أموراً باطنة يعجز الحكم عليها ، ومعرفتها بواسطة القوانين والقواعد الظاهرة ، ومن هنا يأتي التناقض والاختلاف في هذه القواعد وتلك القوانين .

أما قواعد الدولة الباطنية فثابتة لا تحتمل التناقض ولا يأتيها الفساد والتغير ، لأنها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، فهي قواعد صالحة لكل زمان ومكان ، وأصحابها يستمدون وجودهم منها ، ومن ثم كانوا طبقة خاصة ارستوقراطية ، ليس بينهم إلا مؤمن صالح ، ومريد صادق ، وسالك تائب ، وولي عارف بالله .

وقد تبين لنا في الدراسة النظرية والميدانية ان للصوفية سلم روحي وعلى الولي في الحكومة الباطنية أن يعبر عشرات الآلاف من الدرجات الروحية حتى يمكن أن يخلع عليه الولاية الكاملة ، وكل منزلة أو درجة يصل إليها تعد عندهم مقاماً وفي هذه الرحلة الطويلة يكتسب الولي في كل مقام ما لا يحصى من المعارف والعلوم والكشوف(1) .

ويرى الصوفية أن الأولياء هم ورثة الأنبياء وعلى أقدامهم حتى يصلوا إلى درجة يكونون فيها على قلوب الأنبياء عدا قلب سيد البشر سيدنا محمد ﷺ(2) .

ويحدد الشعراني عدد المنازل التي يجب أن يجتازها الولي ليصل إلى الولاية الكاملة بـ 248,999 منزلة(3) والمنزلة مرادفة للدرجة كما أن المقام مرادف للدرجة والمنزلة .

ويرى القشيري أن المقام هو ما يتحقق به العبد بمنازلته للآداب أو من الأدب فعنده أن كل سالك له مقام أي موضع لإقامته ، وأن لكل مقام علم وعمل وحال ، فالمقام

---

(1) الشيخ الأكبر ابن عربي ـ الفتوحات المكية ـ السفر الثاني ص 369 : 387 الهيئة المصرية للكتاب 1972

(2) الشيخ ابن عربي ـ الفتوحات المكية ـ السفر الثاني 369 ـ 387 الهيئة المصرية للكتاب .

(3) الامام الشعراني ـ اليواقيت والجواهر جـ 2 ص : 88 ـ مكتبة المشهد الحسيني

يثمر عملاً ، والعمل يثمر حالاً ، لأنهم يرون أن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب ، وحركات القلوب جارية لحركات الأجسام[4] .

يبدو من هذا كله أن لكل مقام بداية ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة ، كما أن لكل مقام علم ، ولكل حال إشارة ، ومع كل مقام ثبات ونفى ـ كما أنه ليس كل ما نفي من مقام ، كان منفياً فيما قبله ، ولا كل ما أثبتت في مقام كان مثبتاً فيما دونه[5] .

ويوضح السهروردي المقتول +587 تقريباً ، كيفية الانتقال من مقام إلى مقام فيرى أن رياضة النفس تتيح لها الانتقال من مقام إلى مقام إلى أن يصل السالك إلى مقام ـ الرضا . ويقول أن غاية النفس هي المعرفة التي تحصل عليها ، وفي أثنائها تتلاشى الذات العارفة ، وهو يسمى عنده الفناء ثم تبقى في الله ، وهذا مقام البقاء[6] .

ويوافق ابن سبعين السهروردي عندما يورد تطور السالك إلى المقامات العليا ، وهناك يصل إلى مقامات ثلاث يشكر الله فيها على قطع العلائق ، ويعرف فيها ملكوت كون ، الخلائق ويصل فيها إلى علم الوحدة ، وحضرة التوحيد ، ومعرفة الواحد وعند ذلك يفتح عليه باب الغاية ، حتى يعرف أن العالم والعلم والمعلوم واحد ، إلى أن يستجيب له الإسم الأعظم ، ويدعو به فعند ذلك يملك الكمالات الصديقية[7] .

ويرى أئمة الصوفية أن السلم الروحي الذي ينتقل فيه السالك من مقام إلى مقام ومن موقف إلى موقف ، هو الطريق الأمثل لتربية النفس وتهذيبها ، وعبورها مقام النفس الأمارة ، إلى النفس اللوامة ، إلى الملهمة ، إلى المطمئنة ثم الراضية إلى المرضية حتى تصل آخر الأمر إلى مقام النفس الكاملة[8] .

ويشرح لنا ابن قضيب البان هذه المواقف أو السلم الروحي حسب تجربته الشخصية ، فيبين إنتقاله من موقف الرحمن ، إلى موقف البرازخ العرشية ، إلى موقف الغيب والشهادة ، ثم يروى لنا إنتقاله من موقف الإيمان بالغيب ، إلى موقف الأسراء ثم إلى مقام التجلي ثم مقام الولي حتى يصل إلى مقام الخلافة ، ولا يقف عند هذا الحد بل ينتقل السالك إلى مقام المحبة مارا بموقف هوية الهواء ومنه إلى موقف العلم حتى يصل إلى

---

(4) الامام القشيري ـ الرسالة القشيرية جـ 1 ص 191 تحقيق د عبد الحليم محمود طبعة أولى 1966

(5) الامام الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق د عبد الحليم محمود مكتبة عيسى الحلبي 1960 .

(6) د محمد علي أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية ص 333 وما بعدها ـ دار الطلبة العرب ـ بيروت 1969

(7) رسائل ابن سبعين ص 14 وما بعدها ـ تحقيق عبد الرحمن بدوي ـ الدار القومية

(8) راجع ـ مقامات الصوفية السبعة ـ كتاب ألفاظ الصوفية للمؤلف .

موقف سر الحياة ، وبعد ذلك ينتقل إلى موقف القطبية وينتهي إلى موقف التصريف ثم الفناء ثم الغوثية ثم الحقيقة المحمدية ، إلى موقف الإنسلاخ ومنه إلى موقف الغيوب ومنه إلى موقف مناهج العارفين إلى موقف إيجاد الروح ثم إلى موقف الفقر المطاق حتى ينطلق آخر الأمر إلى موقف الجنات التي أعدت فيها للعارفين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[9] .

ويختلف الصوفية فيما بينهم في إيراد التسلسل لهذه المقامات ، ولكن نظرتهم واحدة في تصور نهاية هذه المقامات ، فهناك شبه إجماع في أن الوصول إلى فناء الفناء أو البقاء في الله هو أعلى الدرجات عندهم .

فالمقام على هذا هو تعبير عن الحال أي عن القدرة في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة حسب إستعداد السالك وعزيمته وقوة مجاهداته وصبره .

ومن ناحية أخرى فإننا يمكن أن نلخص هذه المقامات كما يراها العزالي في أنها مقام التوبة والزهد والفقر والصبر والشكر والرجاء والتواضع والإخلاص والتوكل والرضا واليقين والوجد والمحبة و الغيبة والشهود والتفرقة والجمع والتجلي والفناء والبقاء والمعرفة والتوحيد[10][11] .

ويفرق الصوفية بين الأحوال والمقامات فالأحوال عندهم مواهب ، وأما المقامات فمكاسب ، ومعنى ذلك أن ما يرد على القلب من غير إكتساب سواء كان خوفاً أو طرباً أو قبضاً أو بسطاً يعد من الأحوال[12] .

أما المقام فهو الذي يصل إليه السالك بالمجاهدة والصبر والجوع والزهد ، ويرى بعض الصوفية أن مقام الاكتفاء بالله ليس فوقه مقام سوى مقام النبوة[13] .

ومن الملاحظ أن بعض الصوفية لا يتفقون كما سبق الإشارة في تحديد المقامات والأحوال فما يراه بعضهم من الأحوال يراه البعض الآخر من المقامات ، ويعلل الصوفية ذلك بأن الأحوال التي تنقلب على القلب لا يمكن حصرها أو عدها أو تحديدها فلو أراد

(9) د عبد الرحمن بدوي ـ الإنسان الكامل في الإسلام ص 123 ـ 73 مكتبة النضة

(10) إحياء علوم الدين ـ حـ 11 ص 2073 وما بعدها ـ كتاب الشعب 169

(11) راجع كتاب المؤلف ـ ألفاظ الصوفية ومعانيها .

(12) القشيري ـ الرسالة القشيرية جـ 1 ص 193 ـ تحقيق 195 د. عبد الحليم محمود .

(13) الشيخ أبو بكر بباي ـ مدارج السلوك ص 22 الطبعة الأولى

أحد ذلك فعليه أن يحصل على جميع فنون الفكر ، وهـذا غير مستطاع لأن الثمرات التي يحظى بها السالك لا متناهية ، وكذلك الأمر بالنسبة للمقامات فإنه من الممكن معرفتها إجمالاً أما تفصيلاً فلا ، لأن ذلك يستدعي معرفة العلوم كلها .

ويؤيد ذلك السيوطي عندما يورد حديث الرسول ﷺ(14) أنه ليغان على قلبي حتى أني أستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرة ، وهذا معناه أن الرسول كان يغطى قلبه بالإستغفار لأنه كان دائم الترقي من حال إلى حال ، ولو أننا لا نتمشى مع هذا الرأي إذ كيف يكون الرسول ﷺ موحى إليه ، علمه ربه وهو في حال التلوين ، وليس التمكين رغم أنه صاحب الكمالات الأخلاقية .

أما الترمذي(15) فيرى المقامات أربعة ، مقام الصادقين والصديقين ، والمقربين ، والمنفردين ، ولكن بعض الأئمة يعبر عن المقامات بأنها مقام العوام ، والخواص ، وخواص الخواص .

أما السهروردي فإنه يعطي المقامات درجات ويقسمها إلى خمس درجات والدرجة الخامسة هي مقام التوحيد ويرى أن على السالك أن يجاهد حتى يصل إلى نور الأنوار ، وهي الغاية التي يبغيها الكاملون في العلم والعمل معاً ، وقل من يصل إليها(16) .

ويستخدم الصوفية مصطلحات وتعبيرات وإشارات رمزية يدللون بها على ما يقصدونه من معان ، ويجلس الغريب ولو كان عالماً في مجلسهم ويخرج ولا يفهم مما يقولون شيئاً ، ومثل ذلك ما أورده السيوطي(17) من أن حقيقة التوبة ، تميز الثقة من العزة ، ـ . . والتوبة من التوبة فإذا سمع المقيه ـ على حد قوله ـ هذا اللفظ التوبة من التوبة استغربه وقال كيف يتاب من التوبة ؟ وهي عمل صالح وإنما يتوب المرء من المعاصي ، وحقيقة المعنى الصوفي لهذه التوبة أن العبد لا يلتفت بعد توبته إلى أعماله ولا يسكن إليها ، ويرى القشيري أن توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص مس الغفلة(18) . ومعنى التوبة من التوبة هو أن يتوب المرء حتى من التفكير في التوبة التي كان سببها المعصية ـ فكونه يفكر في التوبة علامة على أنه إرتكب إثماً وأنه تاب عنه ، وهذا هو

(14) الشيح السيوطي الحامع الصعير ص 93 دكره الطري في الرياص النصرة والسراح في اللمع

(15) د عد الفتاح بركة ـ الحكيم الترمدي ونطريته في الولاية ص 253 وما بعدها مجمع البحوث الإسلامية

(16) د محمد علي أبو ريان ـ أصول الفلسفة الاشراقية عد شهاب الدين السهروردي ص 340/33

(17) السيوطي ـ تأييد الحقيقة العلية ص 21

(18) الرسالة القشيرية ـ 56 حرء 1

الفرق الجوهري بين أهل الظاهر والباطن والعامة والخاصة من الناس .

وكذلك الحال بالنسبة للطاعة لله ، فالصوفي أنما إنعقدت إرادته مع الله فلا ينظر إلى حظوظ نفسه ، ولا إلى أعمالها الصالحة بل يرى نفسه عبد الله فينسب كل خير وفلاح إلى نعم الله ، وعطايا الله ومنح الله ، أما نفسه فلا يفكر فيها ، ولا يرضى أبداً عنها ، وإنما يتهمها بالتقصير وذلك بمخالفة طلباتها وحظوظها ، فالطائع إذن هو الذي ينظر بنور الله ظاهراً وباطناً ، فلا يفتنه عمل صالح قام به ، ولا يتظاهر بالطاعة كي يكسب حب الناس ، ولا يفعل الطاعات إبتغاء مدح وثناء ، لأن الصوفي يعرف أن ذلك من الشرك الخفي ، فالمهم الصدق في الطاعة ، والإخلاص في الطاعة ، والنية الحسنة ، وهنا يكون الإمداد والإستمداد ، والبصيرة والفراسة ، والكشف والكرامة بل هنا تكون لغة الإشارة بدل الكلام والعبارة .

وقد حكى عن داود الطائي +165 هـ أن أحد الدراويش رآه مرة مبتسماً فقال له : يا أبا سليمان . . . من أين لك هذا الانشراح ؟ فقال داود : « أعطوني في الصباح شراباً يقال له شراب الأنس ، فاليوم يوم عيد أسلمت نفسي للانتهاج فيه[19] .

وقد روى عن النبي ﷺ قوله لأبي بكر : أتدري . . . يا أبا بكر يوم يوم ؟ فقال : نعم ، لقد سألتني عن المقادير . . . وروى عنه أنه قال لأبي بكر : « أتدري ما أريد أن أقول ؟ قال نعم هو ذاك .

ويرى صاحب الرسالة القشيرية[20] أن العلماء يستخدمون في الفروع المختلفة للعلم اصطلاحات أو ألفاظاً فيما بينهم كما نجد ذلك في علوم الكمياء والرياضيات والجبر والقانون والاقتصاد ، وتنفرد كل طائفة متخصصة بألفاظها دون سواها ويقصدون بهذه الألفاظ تقريب الفهم على المخاطبين بها ، وتسهيله على أهل الصنعة .

كذلك فإن لأهل الباطن ألفاظاً تستخدم فيما بينهم ، وذلك للكشف عن معانيهم لأنفسهم علاوة على الاجمال والستر على من باينهم في طريقتهم .

وكلما اعتلى الصوفي مقاماً توسعت ادراكاته وتفهم الأشياء بطريقة أشمل وأهم حتى أن تصرفاته لتبدو للشخص العادي على أنها شاذة وغريبة عما هو مألوف لنا جميعاً وعما اعتدنا عليه ، وربما ننسب ذلك إلى الهذيان والجنون .

---

(19) نيكلسون ـ التصوف الإسلامي وتاريخه ـ تعليق د. أبو العلا عفيفي .

(20) الشيخ الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ـ مقدمة الكتاب .

وإذا دخل شخص عادي[21] أحد مجالس الصوفية فيصعب عليه فهم ألفاظهم وإشاراتهم أما إذا دخل صوفي في أي مجلس من مجالسهم ، فإنه يندمج بينهم ويتفهم أقوالهم وكأنه يعرفهم من زمن بعيد ويعتبر هذا بالنسبة له جواباً عادياً وطبيعياً ومألوفاً[22] ، وهذا يعني أن التصوف تجربة ذوقية وليس علماً يدرس فحسب .

ويرى صاحب الرسالة القشيرية[23] أن من يتأمل ألفاظ الصوفية ويتصفح كلامهم يجد في مجموع أقاويلهم أو في جملتها ما يثق بتأمله بأن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأو ، ولم يعرجوا في الطلب عن تقصير ، ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في تقديمه للرسالة القشيرية :

« إن إشارات الصوفية وألفاظهم ليست غريبة إذن إلا على الذين لم يخوضوا التجربة ولم يتذوقوا حلاوة الطريق ، ويقول أيضاً في تقديمه لكتاب التعرف »[24] . التصوف تجربة روحية ، وليست للمادة شأن بالروح فليس للعلم الحديث إذن شأن ـ بالتصوف ، وقد قالوا قديماً : « من ذاق عرف وبالتالي من لم يذق لا يعرف ، وإن الذين لم يعرفوا طعم الوجد والشوق الصوفي لا يعرفون ماهية الوجد والشوق الحقيقي » .

وعدم فهم ألفاظ الصوفية راجع إلى إختلاف الوسائل كمثل سائح يريد السفر إلى الحجاز ، فالمعروف أن بعض الحجاج يسافر بحراً وبراً وبعضهم يسافر جواً فإذا اختار هذا السائح الحاج طريقة غير مألوفة كأن يركب سبعاً أو نمراً فهل تشجعه . . . لا بل سننكر عليه ذلك وسنمعن في الإنكار . . . ولكن هل ركوب السبع أو النمر سيمنع الحاج من إتمام فرائض الحج ؟ أو إذا ركب الطائرة أيقال أنه لم يحج ، لأن أحداً لم يره يسافر ؟ . . . لأنه لم يستخدم الوسائل المعروفة كالسيارة أو الباخرة أو السير على الأقدام

إن هذه الحجة يصدقها فقط من سبق له أن ركب سبعاً أو نمراً ، أما بقية أو أغلب الناس لا يصدقونها لأنها وسيلة غير معروفة ، والناس على عوائدهم ، وإنما تعتبر في لغة الصوفية « خرقاً للعادة أو هي كما يقول العامة كرامة »

---

(21) الشيخ أبو القاسم القشيري ـ الرسالة القشيرية ـ حـ 1 ص 187

(22) الرسالة القشيرية حـ 1 ص 25

(23) المرجع السابق حـ 1 ص 26 وما بعدها .

(24) الامام الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص 89 ـ 160 طبعة سنة 1965

وإذا استخدمنا في شرح هذه القصة التفسير الظاهري فلربما أدى ذلك من القارىء أو السامع إلى الإنكار على من ينطق به ، لذلك نجد لهذه القصة ومثيلاتها عند السادة الصوفية طريقة أخرى في التفسير إذ يلجأون إلى الإشارات والألفاظ التي لها معان خاصة للتستر على غيرهم من الأجانب .

ولقد شرح القشيري[25] في رسالته كثيراً من ألفاظ الصوفية وذلك لتسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكي طرقهم ومتبعي سنتهم ، كما أورد صاحب التعرف[26] وأبو حامد الغزالي في الاحياء هذه الألفاظ وتناولها كليهما بالشرح والتحليل مدعمة بأقوال شيوخ الطريق .

ولقد بين الشعراني[27] أن ألفاظ الصوفية تختلف عن ألفاظ العلوم المختلفة ومصطلحاتها من حيث أن المريد الصادق إذا دخل مجلس من مجالس الصوفية وليس عنده أي فكرة عما يتكلمون به من الإشارات ، فإنه يفهم جميع ما يتكلمون به حتى كأنه واضع تلك الاصطلاحات والإشارات ، كما يمكنه أن يشاركهم في الخوض في علومهم .

أما المريد الكاذب فلا يعرف ذلك إلا بتوقيف ، ولا يسمح له قبل اخلاصه في الإرادة ـ وهكذا الحال أيضاً مع علماء الظاهر الذين يعجزون عن فهم كلام الصوفية ، ويمثل الشعراني بقصة حضور الإمام أحمد بن سريج ـ وكان من أكابر فقهاء عصره ـ مجلساً للجنيد فقيل له « أفهمت كلامه . . ؟ فقال : « لا أدري ما يقوله . . . ولكن لكلامه في القلب ظاهرة تدل على عمل الباطن ، واخلاص الضمير ، وليس كلامه كلاماً مبطلاً » .

ويرى الشعراني أن إنكار الإشارة على أهل الباطن ، ناتج من الحسد فلو ان المنكر ترك الحسد ، وسلك طريق أهل الله ، لم يظهر له إنكار لكلامهم ولازداد علماً إلى علمه

وقد روى عن الشيخ الزنيمي وهو من مريدي الرفاعي أنه قال : « كنت مع الرفاعي وتوجهنا إلى محطبة القاسمية ، فلما وصلنا خرج علينا أربعة عشر سبعاً قصدوا الرفاعي ، فلما وصلوا وقفوا على قدم الشيخ يقبلونه ، ثم وصلنا إلى ساحل البحر فخرجت الأسماك من الماء ، وقد رمت بأنفسها على أقدامه وعبرنا البحر مشياً على الماء

---

(25) القشيري ـ الرسالة القشيرية جـ 1 مقدمة الرسالة .

(26) الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف من ص 89 ـ 160 طبعة 1965

(27) الشعراني ـ اليواقيت والجواهر ـ جـ 1 ص 15 ـ 16

ووراءنا الفقراء ، وما ابتلت أرجلنا ، ثم سرنا إلى أن وجدنا مكاناً فيه أناس جلوس ، فلما رأوا الشيخ قام جميعهم وحيوا الجميع السيد الكبير ، وأجلسوه في الصدر وجلسوا بين يديه ، وكان أول الجماعة سيدنا الخضر عليه السلام ، وكان بينهم ابن خلف ، والصادق القرشي ، وعمر النوري ، وغيرهم وكان مع هؤلاء الجماعة السبعون الأخيار ، وبالجملة فقد كان هذا المجلس يشتمل على نحو مائتي نفر ، واستمر السيد الكبير الرفاعي معهم إلى المغرب وهو يعمل الصحبة والمحادثة » .

هذه قصة رمزية لا يفهمها إلا متذوق صوفي .

كما روى عن الشيخ[28] يعقوب الكراز رضي الله عنه أنه قال : كنا ذات سنة مع السيد / أحمد الرفاعي في طلب الحج ، فلما وصلنا عرفات وصعدنا ، إذا بستة أنفار قادمين من جهة الشام ، خمسة منهم لابسون الثياب الخضر ، وواحد منهم لباسه أبيض فتقيد الرفاعي بهم وخاصة باثنين منهم ، فسألت الرفاعي فقال لي : إذهب فاسأل عنهم ، فذهبت فأجابني لابس البياض . . . « أنا الخضر . . وهؤلاء الخمسة سيد المرسلين ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضوان الله عليهم ، فلما سمعت ذلك رجعت وأعلمت سيدي الرفاعي بهم » . . . الخ .

ويذكر لنا الغزالي في احياء علوم الدين أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجمهور ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ويقسم الصنائع إلى ضربين علمية ، وعملية ، والعملية عنده كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منها ألفاظ يتفاهمون بها لإستخدام آلاتهم ، ويتعاطون بها أصول صناعتهم ، وأما العلمية فهي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة ، ولأهل كل علم أيضاً ألفاظاً إختصوا بها ، لا يشاركهم فيها غيرهم ، إما في صورة اللفظ دون المعنى أو في المعنى وصورة اللفظ جميعاً .

ويبين الغزالي[29] أن الصوفية ألفاظهم التي إختصوا بها ويشرح بعض منها مثل السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح ، والطوالع ، والذهاب والنفس ، والسر ، والوصل ، والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلي ، والتخلي ، والتجلي ، والعلة ، والإنزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة والحرية ، واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ،

---

(28) أبو بكر العدروس ـ القطب الكبير الرفاعي ص 44 .

(29) الامام أبو حامد العزالي ـ إحياء علوم الدين جـ 16 ص 303/302 دار الشعب سنة 1969 .

القبض ، والفناء والبقاء ، والجمع ، والمعرفة ، وعين اليقين ، والزوائد ، والإرادة ، والمريد ، والمراد ، البسط ، والغربة ، والسكر ، والاصطلام ، والرغبة والرهبة ، والوجد والوجود والتواجد .

وقد سأل بعض المتكلمين أبا العباس بن عطاء : ما بالكم أيها الصوفية قد إشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد ، هل هذا إلا طلباً للتمويه أو ستراً لعوار المذهب[30] .

فقال ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه ، وغيرته علينا ثم إندفع يقول :

إن أهل العبارة سألونا	أجبناهم بأعلام الإشارة
نشير بها فنجعلها غموضا	تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها وتشهدنا سرورا	له في كل جارحة إشارة
نرى الأقوال في الأحول أسرى	كأسر العارفين ذوي الخسارة

ويوضح لنا الشعراني في اليواقيت والجواهر[31] السبب الذي من أجله إستخدم الصوفية إشارتهم فيقول : أن الفقيه إذ لم يوفق يقال أنه أخطأ أما الصوفي فإنه عندما لا يوفق يقال أنه كفر ، لذلك كان لزاماً على الصوفية إستخدام الإشارات حتى لا يشتد إنكار العامة لهم .

أما القشيري فيدافع عن أهل الحق ويناصرهم عندما يجهر بالقول « نعم ما فعل القوم من الرموز لأنهم فعلوا ذلك غيرة على طريق أهل الله عز وجل أن تظهر لغيرهم فيفهموها على خلاف الصواب فيفتنوا أنفسهم أو يفتنوا غيرهم .

ونضرب مثلاً لبعض الإشارات المتعارف عليها بين أهل الحق ومعناها الظاهر .

المعنى اللغوي	المعنى الصوفي
الصمت: ترك الكلام بغير ذكر الله	من صمت الضمير عن جميع التفاصيل .
السهر: عدم النوم	عدم الغفلة .
العزلة: جوع الأبرار لكمال السلوك	جوع المقربين لموارد الأنس « فالمريد هنا قد توقفت إدراكاته الحسية وهدا من رحمة الله ، وإلا فقد عقله » .

(30) الامام الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ص 81 تحقيق د عبد الحليم محمود 1960 المجلس الأعلى .

(31) اليواقيت والجواهر جـ 1 ص 19 « ولولا اللغز كان القول كفراً * وأدى العاملين إلى المساد »

والفرق بين الحكمين ، فرق بين السلوك والنية ، فالسلوك الظاهري للمريد إنما يظهر للعامة حسب مفاهيمهم ـ في الحكومة المدنية ـ كأن يظن أنه فعل شاذ غير مألوف يتوجب عقاباً أو استنكاراً أو احتقاراً ، أما الحكم حسب السلوك الباطني ، فيرى أن المريد ما فعل إلا بنية طيبة قاصداً وجه الله ، وان نيته انعقدت على السير في طريق الله فتراه في ذكره ماضياً ، يدفعه الحب ، ويحركه الشوق ، ويفيض به الوجد ، فقد ادراكاته الحسية الزائفة ، واتزان شخصيته المصطنع ، وعادات مجتمعه وتقاليده المألوفة ، ولم يهتم بآراء وأفكار الآخرين ، وإنما أراد مرضاة ربه عسى أن يظله برحمته ، وأن يمن عليه بكرمه ، ويكتبه مع الذاكرين .

إنّه لبون شاسع بين ما يراه أهل الحق وأهل الظاهر . . فيما يحكم به على الأقوال والأفعال ، ولكن يتبادر إلى ذهننا سؤال . . هل هناك اختلاف بين أهل الباطن والظاهر في أحكام الشريعة الإسلامية ؟

في الواقع لا ، فالصوفية يرون أنه لا حقيقة بلا شريعة ، وكان الرفاعي لا يقبل مريداً في طريقته ، إذا لم يكن عارفاً بعلوم الشريعة ، وأن جميع مشايخ الطرق يحددون أياماً في مجالسهم للفقه وتدريس العلوم الشرعية .

إذن فمن أين جاء هذا التباين في الأحكام . . وفي الرأي ؟ وهل هذا مفيد للمسلمين . . .

في الواقع أن الفرائض معروفة ، والصلوات محددة ، والكبائر والصغائر معلومة والنواهي والأوامر مقررة ، فمن خالف أحكام الشريعة فهو منافق ، أو مشرك أو زنديق وعلى ذلك فالقصاص واجب على المخالف في الدنيا والآخرة ، إذن فمن أين جاء الخلاف ؟ . . .

الحقيقة أنه لا خلاف بين أهل الحق وأهل الظاهر . وإنما الاختلاف ناتج عن درجات المعرفة . . عن درجات العلم . . فكل ميسر لما خلق له ، فعلى قدر علمي وعملي يكون إجتهادي ، وهذا يؤكد أن درجات الحكم على الأفعال والأعمال تختلف باختلاف العلماء والحكماء والفقهاء فالعالم أو الفقيه كما يراه الترمذي من أهل الصدق عندما يطبق ما جاء به القرآن والسنة ، ويتبع الأوامر وينهي عن النواهي ، فيحكم بين الناس دون النظر إلى أشخاصهم ، إلا إذا كانوا من أهل الحق ، فيرى ما لا يرى بالبصر ، ويحكم بالبصيرة ، فالعالم الظاهري يمكن أن يغير حكمه المطابق للشرع ، إذا أعطاه الله علماً من لدنه ، أو مر بتجربة ذوقية كشف فيها له ، ويؤيد ذلك ما حدث للشيخ دقيق العيد

عنـدما حضر مجلس السيـد البدوي فـرأى رجلاً ملثماً مخبولاً يلتف حـولـه تـلامـذتـه ، ويتصايحون ، فقالت له نفسه : إنه لمجنون ، فقرأ البدوي ما في نفس الشيـخ دقيق العيد ورد عليه .

مجـانـين ألا ان سر جـنـونهم عـزيـز عـلى أعتـابهم يسجـد العقـل

فعلم بـولاية البـدوي ، وأن حكمه الـظاهري خـدعة ، وأن حـواسه وإدراكـاتـه الحسية لم تصدق ، فلم ينكر على البدوي فتوحاته ، وهذا يدل عـلى أنه عـرف ، أن باب الحق لا يفتح إلا للصادقين ، وعندمـا سمع البـدوي حديثـه النفسي بأنـه مجنون ، كـان للبدوي هذا الرد الحكيم « فلم يسعه إلا أن يقبل يده ، ويقر له بالعلم والفضل » .

ويروى[32] المناوي أن أحد الصوفية شهق شهقة ثم قال :

« لو صاح إنسان أشدة وجده ، لملأ ما بين الخافقين صياحاً » .

وقـد اتضح من البحث أن هـناك علاقـة بين التـوحيد الإلهي وبـين عـلاج النفس الإنسانية . فالتوحيد هو معـرفة تشرق بهـا النفوس ، فتتجـلى عليها الحقـائق والأسرار ، وتلقى إليها المعارف ، فتهدى إلى الطريق المستقيم ، والقيم العليا ، فتتعرف النفس على مكاسبها ومثـالبها ، وتتـطهر بـالتوحيـد من عيوبهـا وهواهـا وآثامهـا داخل إطـار التربيـة والتخلق وترويض النفس ، ذلك أن التوحيد إنمـا هو إسـترسال مـع الله في كل فعـل من الأفعال وفي كل أمر من الأمور ، وبالتوحيد تنعقد إرادة العبـد مع إرادة الله ، فـلا يكون للبعد أمل إلا في الله ، ولا غاية إلا بالله ، ولا رجاء إلا مع الله .

ومن هنـا يلقى إلى قلب العبد الحق والعلم والمعـرفة جميعـاً ، فيكون عبـداً ربانيـاً مراداً لله .

وفي الطب الصوفي تـظهر النفس في صـور متعددة ، تبـدأ من مقام النفس الأمـارة متـدرجة من حـال إلى حال ومن مقـام إلى مقام ، حسب مـا تيسر لها من المنن والعـطايـا الإلهية ، فتحظى بمقام النفس اللوامة ، فإذا جاهـدت إرتقت إلى مقام النفس الملهمـة ، ثم إلى مقـام النفس المـطمئنـة ، ومنهـا إلى مقـام النفس الـراضيـة ، ثم إلى مقـام النفس المرضية حتى تصل إلى أعلى المقامات وهو مقام النفس الكـاملة ، وذلك هـو مقام الأنبيـاء والأولياء الكمل ، وهو منتهى غاية السالكين .

وفي الطب النفسي الصوفي تقسم أحـوال النفس إلى طبيعتين : نفس أمـارة ونفس

(32) المناوي ـ طبقات المناوي ص 46

مطمئنة ، ولكن مع ذلك توجد درجات أخرى أدنى وأعلى للنفس ، سنذكرها[33] عند معالجتنا للطرق التي ينتهجها أطباء النفس الصوفي للعلاج .

ويمكننا أن نقارن بين طبيعتي النفس ، الأمارة التي تتصف بالتغيير والتقلب والتلوين والميل إلى حظوظها والركون إلى أهوائها ، وحب الشهوات ، والغضب عند ضياع اللذات .

وبين النفس المطمئنة التي تمتاز بالسكينة والتواضع والرضا والإيثار والصبر على الابتلاء والتوكل وإسقاط التدبير مع الله ، فلا خوف ولا اضطراب ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر إنما رضا في الله وأمل من الله .

أما عامة الناس إنما تسيرهم مقتضيات مألوفات العادات ، وحكم الطبائع فينشأون على أخلاقيات مجتمعاتهم ، ويحاكون سلوك ذريهم ، وذلك عن طريق حسن الظن بهم وثقتهم فيهم ، فيعتقدون أن ما يلقنونه هو الحق الذي لا يرقى إليه شك ، ويرفضون ما عداه مهما كان مطابقاً للحقيقة ، فترسخ هذه العادات والطبائع في نفوسهم وتصبح آخر الأمر خلقاً وسلوكاً وطبيعة ، حتى لا يجد صاحب هذه الطبيعة من بديل لها لأن ذلك ما تعلمه وتلقنه وخبره وإرتضاه وأحبه .

فالسلوك فيما يتعلق بالشخص العادي ـ إنما ينبعث من لذات نفسية تريد إشباعاً وترفض أي نوع من التغير أو المنع أو الحظر ، بل وتدفع عنها كل ما يؤلم بشتى الوسائل ومختلف الطرق . وهذه الطبيعة إنما ترفض ما يؤلم وتقبل على ما يلذ بفعل خبراتها السابقة ، وعاداتها المتبعة ، فكل ما اعتادت عليه تقبله وتطلبه ، وكل ما تتألم منه وتجهله ترفضه وتكرهه . والدفع والرفض إنما هو نتاج طبيعي عن الخوف من الألم وعدم إشباع الرغبات ، ولذلك يرتبط الألم بالكراهية ، وبالعكس فإن كل حب ناتج عن لذة سابقة وتجربة وخبرة شخصية ، سواء كانت تجربة سلبية أو إيجابية .

والشخص العامي إنما يقبل على فعل من الأفعال ، نتيجة لما تعود عليه وتحقق في ظنه من منافع ولذات ، فيفعل ما يفعل بحكم العادة والطبيعة بلا تحليل أو تفكير للمواقف والإتجاهات ، وتتكون شخصيته حسب هذه الخبرات والتجارب والمعارف ، وترسخ في نفسه ، وتصبح كما سبق أن ذكرنا ـ طبعاً وخلقاً وسلوكاً ، فلا يقبل على غيرها إما لخوف من المجهول ، أو لحب مأمول ، أو لذة قريبة المنال .

---

(33) أفردنا لهذا الموضوع كتاباً بعنوان « الطب النفسي الصوفي » (تحت الطبع)

وهكـذا تتكـون الشخصيـة عنـد أغلب النـاس ، وليس في طبعهـا صراع بـين الأضداد ، أو البحث عن الحق والصدق والمعرفة ، ويكون الإطار الغـالب عليها ينـطلق من مبدأين هما : الحب والكراهية ، أو بمعنى آخر النور والظلمة ، أو الظاهر والبـاطن ، وكل هذه الصور التي هي بحال عمل هذه الشخصية إنما قد تمخضت عن شخصية تنـزع إلى الأنانية ، والأثـرة ، وحب الذات ، وقـد ترتب ذلـك جميعاً عـلى التفاعـل مع البيئـة والمجتمع .

أما إذا تقدمت هذه الشخصية بفعل ظروف الثقافة والإيمان خطوات ، فإنها تتأمـل مرة أخرى ما ألقي في روعها ، فتسعى إلى « غربلة » ما تعلمته وإعتادت عليه من معارف وخبرات ، وما ارتضته وأحبته من سلوك وتصرفات ، بل تحـاول إذا تيسر لها إعـادة تقييم معارفهـا ، وذلك للتوقف عن المحاكاة واتباع مألوفات العادات .

ويتحقق ذلـك بوضـع مثل جـديدة ، وقيم عليـا تنحو إليهـا ، وتصبو إلى بلوغهـا وبذلك تترك ما إعتادت عليه من أخلاقيات وما اتصفت به من طبيعة ، بل وتتخذ معايـير جـديدة تحكم بهـا على الأمـور والأفعال ، وهنـا يبدأ الصراع الحقيقي ، إذ تـرفض هـذه الشخصيـة ما تلقنتـه وخبرتـه . وما ألقى في روعهـا إذا كان لا يتـواكب مع المثـل العليـا الجديدة التي أصبحت قدوة وسلوكاً وغاية لها .

وكـما سبق القول فـإن النفس الإنسانيـة التي يطلق عليهـا اسم النفس الأمارة إنمـا تختلف طبيعتهـا عن طبيعة النفس المـطمئنة اختـلافاً واضحـاً ، فالنفس الأمـارة إنما لكي تحظى بمراتب النفس المطمئنة يتوجب عليها أن تحدث تغييراً في عاداتها وطباعها وأخلاقها عن طـريق قيم عليا جـديدة تقتـدي بها وتسـير على مبـادئهـا ولكي تفعـل ذلـك يجب أن تتكلف في أول الأمر هذه الأفعال . والتكلف إنما هو أصعب مرحلة في صراعـات النفس على الاطلاق ، حيث أنه يخالف هوى النفس ولا يتفق مع حظوظها وهواها ، لأنه عـملية تخلية وتحلية ، تخلية من الأوصاف المذمومة ، وتحلية بالأوصاف المحمودة ، فالتكلف إذن تغيـير جذري في عـادات الإنسان وطبـائعه التي جبـل عليها ، بـل هو رفض الـركون إلى هـوى النفس ومناداة بلذات بعيـدة بدل إشبـاع لذات قـريبـة فيهـا الإثم والضيـاع والـدمـار . التكلف إذن على الحقيقة ، هو ترك العادات بالجملة والبعـد عن المحاكـاة والتقليد ، بـل هو مجاهدة وريـاضـة للنفس لسد النقص والتحـلي بالكـمالات الأخلاقيـة ، وهذا الـطريق طـريق صعب لا يقوى عليـه إلا فحـول الـرجـال . فـالنفس بـطبيعتهـا تـرفض ركـوب الأهوال ، ولا تسعى إلا إلى لذاتها وهواها ، ولا يشذ عن هذه القاعـدة إلا من أوتي حظا اليقين والإيمان والعلم الإلهي .

وجدير بالذكر أنه لا يمكن الفصل فصلاً تعسفياً بين حال النفس الأمارة ، وحال النفس المطمئنة ، فالنفس واحدة لكن أحوالها متعددة ، ومقاماتها مختلفة فالنفس تحوي الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، والشرك والتوحيد ، والنور والظلام ، والإنسان يحوي طبيعة النفس الأمارة التي تسير حسب هواها ، ويقودها طمعها ولذاتها وشهوتها ، كما تحوي النفس أيضاً طبيعة خيرة ، نورانية ، تبحث عن الحقيقة ، وتنشد المعرفة وتتحمل في ذلك وتتكلف ، فترفض أحياناً العادات والخبرات التي تجدها غير موصلة إلى الحقائق ، وغير دافعة النفس للترقي ، أو أنها تجدها حاجبة للمعارف ، تسد باب الحقائق ، فإذا ما تكلفت النفس الأمارة للوصول إلى المعرفة سلكت باباً عظيماً وهو باب الخير والحكمة ، فتؤتي الحكمة ، ولا تقبل غير الحكمة ، وهنا تؤتي خيراً كثيراً

والحكمة إنما هي في معرفة الله تعالى الذي هو غاية المعرفة لهذه النفس ، وأملها القرب من الله تعالى .

إذن النفس الإنسانية واحدة ، ولكنها تمتاز بقدرتها على التخلق بخلق جديد والتطبع بطبع غير الطبع القديم ، فإذا كانت النفس محبولة على الركون إلى الشهوة والإثم والفسق والفجور ، فإنها يمكن أن تتطبع عن طريق التكلف بالطهارة والصفاء ، وذلك إذا جعلت المعرفة نوراً يضيء لها الطريق ، والتوحيد هدفها الذي لا تحيد عنه أبداً ، فإذا ما اجتهدت وجاهدت فإنها تغير من جبلتها ، وتعتاد على ما هو أنفع وأثمر لها ، وتتحرر من أصفاد اللذات الحسية المؤقتة لترقى إلى لذات معنوية أبقى وأسمى ، وإلى إحساس بالسمو النفسي الذي لم تكن تجده في المحاكاة والعادة .

ومهمة الطبيب النفسي الصوفي إنما هي في معرفة حال مريده ، هل هو يسير على المحاكاة والعادة ، ويقبل كل ما يلقى في نفسه عن طريق حسن الظن بلا تمحيص أو اختبار أو امتحان ؟ . . أو أنه قد بدأ يتفهم أن النفس التي تسير بحكم العادة لا تعطى شيئاً جديداً ولا تتقدم درجة في رقيها لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وإنما تحيا حياة الخوف والتوتر والزمت والاضطراب والضياع .

ينظر الطبيب النفسي الصوفي إذن بعين فاحصة إلى مريده يحاول أن يربيه ويخلصه من العادات والأهواء والشهوات ، فيوجهه توجيهاً راشداً إلى اختيار القدوة الحسنة ، أو بمعنى آخر يوجهه إلى رؤية طريق الله ، وهذه مهمة عسيرة فالمطلوب تربية وترويض وإعداد شخصية جديدة لتدخل مجتمعاً جديداً بنظرة جديدة .

فيجب أن يتخلى المريد عن كل ما تعود عليه وأن تصبح نفسه صفحة بيضاء يعاد

كتابتها من جديد بنظام وترتيب فريد ، فلا يخلط فيها بين الشهوات والحقائق ، ولا بين العادات والمعارف ، ولا بين هوى الشيطان وطريق الله .

لذلك يجب أن يبدأ المريد بنسيان الكذب ومجاهدة النفس بالصدق والطهارة والصفاء ، إلى أن يدفع عنه الشك والريبة ، ويحل محلها الإخلاص والطاعة

وهذا الطريق إنما هو طريق صعب شاق ـ كما سبق القول ـ فيه مجاهدة ورياضة ومعاناة ومكابدة لما يكتنفه من الحظوظ والشهوات ، ورفض العادات ، واقبال على طريق الله الواحد الأحد ، وهذا الطريق يتطلب إرادة قوية وعمل إيجابي ونية صادقة ، وبدون الإرادة والعمل والنية ينعدم التكلف ، وبإنعدام التكلف تنعدم القدرة على تغيير طبيعة النفس تغييراً جذرياً .

إذن فالطريق طريق واضح ، والمربي يعرف مثالب الطريق وعوائقه ويدفع المريد إليه دفعاً ، فإذا ما صدق المريد وأخلص وأطاع ، ورفض غواية النفس وندم على مطاوعة الشهوات ، وتجنب الاقبال على الملذات ، وعرف أن الله واحد ، وأنه الغاية والسبيل والطريق والأمل والرجاء ، وبدونه لا نجاح ولا فلاح ، إذا عرف المريد ذلك وعرف أن الاقبال على طريق الله هو الموصل إلى التوحيد الصحيح ، والذي به تتطهر النفس من آثامها ، وتبتعد عن اغترارها وغرورها ، فتسلم من الأمراض التي يسببها لها غواية الشيطان ـ وتبتعد النفس إذن عن الخواطر الشيطانية وتستعد بالتطهر والصفاء لاستقبال الخواطر الملائكية .

ومن هنا تبدأ النفس في التطبع بالطباع الحسنة ، وذلك بالتوبة النصوح والندم على ما اقترفت من آثام وذنوب ، ومن أيام قُضيتا في الضلالة والجهالة ، ومن هنا تتوب النفس توبة صادقة قائمة على اليقين بالله تعالى اكتسبته عن خبرة حقة وعلم وهبي وعرفان بما يجب أن يتبع وما لا يجب أن يتبع ، فتسير النفس مطمئنة تشملها السكينة والطمأنينة في طريق الهداية ، فالتوبة عن العادات المرذولة أهم مقومات التربية النفسية ، حيث الندم الذي يحوي طريق اختيار ما هو حق وصدق .

وبالندم الناتج عن التوبة ينتهي الصراع الذي يداخل النفس ويمزقها إرباً إرباً ، وبالندم تبدأ النفس في الاستقرار بعد أن كان يؤلمها الاضطراب والقلق والخوف والهواجس .

فالتوبة إنما هي توصل بين مرحلتين ، مرحلة العادة ، ومرحلة المعرفة ، أو

التوحيد ، فإذا ما سار الإنسان في هذا الطريق بين عادة لفظها ، وتوبة نصوح اتخذها ، وندم على ما فاته من الأيام ، واخلاص وطاعة ونية صادقة ، في أن يبدأ من جديد في طريق الله ، في طريق التوحيد .

وهنا يبدأ المريد في استقبال ثمرات هذا الجهد بعد المجاهدات والرياضات ، فيتعرف على معان جليلة ، ويلهم الهامات عظيمة ويبصر بفتوحات جميلة ، فيطمئن إلى طريقه ، ويعرف طريق الحق ، فيزداد إيماناً وتوحيداً ، ويبتعد عن الشبهات والغوايات ، ويجعل الله له نصيراً ومعيناً ، فلا يذكر إلا اسمه ، ولا يتكلم إلا وهو في قلبه ، وإذا غفل لحظة أو أخطأ ذكر ربه ، والذاكرون هم الموحدون الذين تابوا وأصلحوا وصدقوا فتاب الله عليهم .

وإذا سار المريد في هذا الطريق « طريق التوحيد » فإن الله لا يتركه وحده ، وإنما يضيء له طريقه فيبعد عنه العوائق ويخفف عنه المصائب والبلايا ، ويعطيه نوراً من عنده يبصر به ، وثمرات هي منن يمن عليه بها ، ويؤيده ، وينصره ، فيمتلىء قلبه نوراً وطريقه اشراقاً وعلماً ومعرفة .

والطبيب النفسي الصوفي في هذه المرحلة الحاسمة يلاحظ مريده عند انتقاله في أحواله من غواية النفس الأمارة ، إلى أن يحظى بمقام النفس اللوامة ، التي هي تعبير عن التوبة واللوم إلى نهاية المطاف ، وهي مرتبة النفس المطمئنة التي استقرت وعرفت طريقها إلى الله ، وفي هذا الطريق يكون المريد قد تخلص من الآفات النفسية والأمراض القلبية ، وارتفع عن الأحقاد والعدوان والاغترار وذلك بالتربية والاخلاص والصدق وبما كان قد لحق به من ثوب العادة ، ومن زي المحاكاة والتقليد ، ومن الأشكال والرسوم الظاهرة .

نقول أن مهمة الطبيب النفسي ، الشيخ المربي إنما هي متابعة نفس مريده في هذه الأدوار جميعاً ، فهو فارس ينظر إلى مريده فيتكشف له سيره واخلاصه وعمله ، ومريده لا يخفى عنه شيئاً بل يكاشفه بما في نفسه من خواطر ، فيساعده ، ويبصره ، ويرشده ، وينصحه ، بترك هذا وطلب ذاك ، حيث أنه الخبير بخواطر النفس الملائكية والشيطانية ، وأنه قد خاض غمار هذه التجربة من قبل وتعرف على المثالب والعيوب ، كما أنه ذاق ثمرة الإخلاص والطاعة لله تعالى .

يلقن الطب النفسي مريده إذن معنى الطاعة ، حتى تعتاد نفسه على القبول ، وعدم

الاعتراض ولا تغتر أو تشعر براحة الطمأنينة ، رائدها الأول القرآن الكريم ، وغايتها التخلق بأخلاق الرسول وأملها التقرب من الله الحكيم ، فلا تطلب خيراً ولا تحزن لشر يصيبها ، وإنما هي راضية في كل ما يأتيها من خير أو شر ، متوكلة ، ومتوجهة إليه على الدوام والاستمرار .

ثبت المراجع

المراجع العربية

مراجع أصلية :

إبراهيم الباجوري	:	تحفة المريد على جوهرة التوحيد
إبراهيم السمرقندي	:	تنبيه الغافلين
إبراهيم حلمي القادري	:	مدارج الحقيقة
ابن القيم الجوزية	:	الروح
ابن عربي	:	الفتوحات المكية سفر 1 ، 2، 3
ابن عربي	:	رسائل ابن عربي
ابن عربي	:	مشكاة الأنوار
ابن عطاء السكندري	:	التنوير في إسقاط التدبير
ابن عطاء السكندري	:	تاج العروس
ابن عطاء الكسندري	:	الحكم العطائية
أبو الأعلى المورودي	:	مناهج الانقلاب الإسلامي
أبو الفيض المنوفي	:	وحدة الدين والفلسفة والعلم
أبو بكر الكلأباذي	:	التعرف لمذهب أهل التصوف
أبو بكر بناني	:	مدارج السلوك إلى مالك المولك
أبو نعيم الأصفهاني	:	حلية الأولياء ج من 1 إلى 9
أبو حامد الغزالي	:	إحياء علوم الدين جزء من 1 إلى 16

أبو حامد الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد
أبو حامد الغزالي : الكشف والتبيين
أبو حامد الغزالي : الجام العوام
أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال
أبو حامد الغزالي : فضائح الباطنية
أبو حامد الغزالي : مكاشفة القلوب
أبو حامد الغزالي : المضنون به على غير أهله
أبو حامد الغزالي : المضنون الصغير (المسمى بالأجوبة الغزالية)
أبو طالب المكي : قوت القلوب جـ 1 ، 2
أبو النصر السراج الطوسي : اللمع جزء 1 ، 2
أحمد ضياء الدين : جامع الأصول
السلمي : طبقات الصوفية
الخاري : التبر المسبوك
الشبلنجي : نور الأبصار
الهوري : مدارج السالكين
المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة جـ 1 ، 2
المناوي : طبقات المناوي
أندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة
ترجمة د. عبد الحليم محمود
د. توفيق الطويل : التصوف في مصر إبان العصر العثماني
جلال الدين السيوطي : الجامع الصغير
جلال الدين السيوطي : تأييد الحقيقة العلية
جلال الدين السيوطي : جمع الجوامع
جمال الدين أبو المواهب : قوانين حكم الاشراق
جمال الدين الأتاكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
شهاب الدين السهروردي : هياكل النور تحقيق د. ابو ريان
د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوي
د. عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية
د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلي

د. عبد الرحمن بدوي : الإنسان الكامل في الإسلام
عبد الرؤوف المناوي : الكواكب الدرية
عبد السلام الخلواني : الرسالة الوفية في الرد على منكري الصوفية
عبد القادر الجيلاني : الغنية
عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني
عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب
عبد الكريم الجيلاني : الإنسان الكامل
عبد الكريم القشيري · الرسالة القشيرية جـ 1 ، 2
عبد الكريم القشيري : التحبير في التذكير
عبد المجيد النقشبندي . الأنوار القدسية تحقيق وتقديم محمد الرخاوي
عبد الوهاب الشعراني . الطبقات الكبرى جـ 1 ، 2
عبد الوهاب الشعراني · اليواقيت والجواهر جـ 1 ، 2
عبد الوهاب الشعراني . الكبريت الأحمر
عبد الوهاب الشعراني : تسيه المعترين
عبد الوهاب الشعراني : الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد
الصادق (مخطوط)
د. عثمان أمين . الجوانية
عفيف الدين اليافعي المكي : روض الرياحين في حكايات الصالحين
علي مبارك . الخطط التوفيقية
د. مصطفى حلمي . ابن الفارض
د محمد علي أبو ريان . الفلسفة الإشراقية
ياقوت الحموي · معجم البلدان

مراجع أخرى·
د أحمد أبو زيد . الانتربولوجيا الاجتماعية
الشيخ أحمد حجاب . العظة والاعتبار
الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير : الحياة بعد الموت
الشيخ الشطنوفي . بهجة الأسرار ومعدن الأنوار
الشيخ الشرنوبي شرح تائية السلوك
سير جيمس فندلاي · على حافة العالم الأثيري . ترجمة أحمد فهمي

أبو الخير
دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام
د. سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام
الشيخ صادق عرجون : التصوف في الإسلام
صلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة
فتحي رضوان : الإسلام ومشكلات الغد
د. عاطف غيث : مقدمة في علم الاجتماع
الشيخ عبد العزيز الدباغ : الأبريز
د عبد الفتاح بركة : الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية حـ 1، 2
الأستاذ عبد الحليم المغربي : القيم الذاتية في الإسلام
الشيخ محمد حسنين مخلوف : حكم الإسلام في التوسل بالأنبياء والأولياء
د. محمد غلاب : هدا هو الإسلام
معجم ألفاظ القرآن الكريم : المجمع اللغوي
د مصطفى الشيمي : الصلة بين التصوف والتشيع
نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ـ تعليق دكتور عفيفي
الشيخ وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى
هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية

المراجع الأجنبية :

1) H. A R Gilb. Mohammedanism.

2) J L Goodall An Introdution to the phiiosophy of Religion.

3) Bertrand Russell. Mysticism and logic.

4) E C. Hodgkin. The Arabs.

5) Bertrand Russell Mysticism and Logic

فهــرس

الباب الرابع : الولاية في الحكومة الباطنية

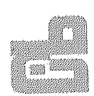
الباب الخامس : الدراسات الميدانية للحكومة الباطنية

الباب السادس : الوصول إلى نتائج محددة عن التنظيم الروحي لحكومة الأولياء





تصميم الغلاف: «ماكيت / Maquette»





المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

